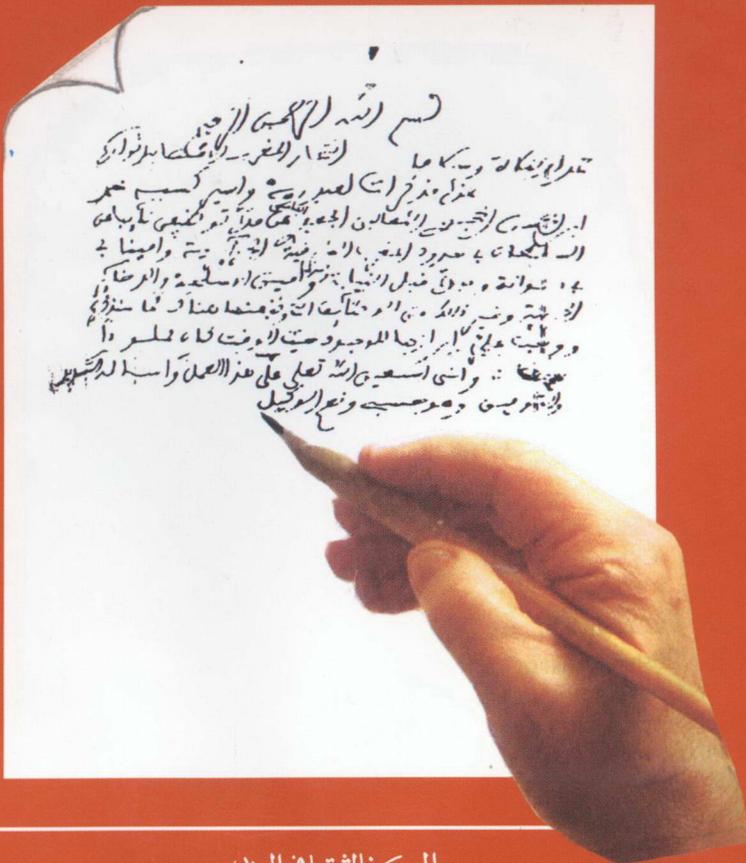


حسن أحمد الحجوي

العقل و النقل

في الفكر الإصلاحى المغربى

(1757 - 1912)



حسن أحمد الحجوي

العقل والنقل

في الفكر الإصلاحى المغربى

طُبع هذا الكتاب بدعم من وزارة
الثقافة والاتصال في المملكة المغربية

الكتاب

العقل والنقل

في الفكر الإصلاحي المغربي

تأليف

حسن أحمد الحجوي

الطبعة

الأولى، 2003

عدد الصفحات : 280

القياس : 17 × 24

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 2303339 - 2307651

فاكس : 2305726 - 212 2+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 750507 - 352826

فاكس : 343701 - 961 1+

حسن أحمد الحجوي

العقل والنقل
في الفكر الإصلاحى المغربى
1757-1912

استطلاع حول التراث المغربي
 الفقيه محمد بن الحسن الحجوي
 نموذجا

تتميز الكتابة وسبكها
 عندهم من غير انما لعبد ربه واسم كسب غير
 ان في حيز الحسب والجمالين اجمعين من غير انما لعبد ربه
 الصلوات في حدود المغرب الشرقي من غير انما لعبد ربه
 في ديوانته وحقه في غير انما لعبد ربه
 الشهيرة وغير ذلك من الامور التي فيها من غير انما لعبد ربه
 وحقه في غير انما لعبد ربه
 بالحمد الذي لا ينقطع حمدا في الجملة والجزء على وجه
 وحدهما لا يهاجرك الا انما لعبد ربه
 اية جامعة والجامعة والجامعة
 التي هي اولى من التي في السنة والجامعة
 وقد ايتت بعنت انما لعبد ربه
 وفيها بعض الامور التي في السنة والجامعة
 التي هي اولى من التي في السنة والجامعة
 ومنها على ما يشك في الكيفية التي في السنة والجامعة
 التي هي اولى من التي في السنة والجامعة
 التي هي اولى من التي في السنة والجامعة
 التي هي اولى من التي في السنة والجامعة

ان لا يكون
 في حيز
 الشامي
 البر



نموذج من الكتابات السياسية المغربية
 في بداية القرن العشرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«إن عزيمة الانسان لا بد لها

من نفوذ ولو بعد حين»

الفقيه محمد بن الحسن الحجوي

الإهداء:

إلى روح عمي الذي علمني

كيف أخدم العدالة

حسن أحمد الحجوي

تقديم

الباحث في تاريخ المغرب تستوقفه عدة استفهامات عن الشدود الذي طبع مسيرة الفكرة الاصلاحية في المغرب في ميدان الارتقاء الحضاري والانتقال بالمكتسب إلى المتجدد. وما نعينه هو أنه في الفترة التي بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر حيث كانت أوروبا ترزح تحت نير الكنيسة وتتخبط في الظلام الفكري، كانت الإمبراطورية المغربية قاعدة إشعار حضاري وعلمي، تبدو وكأنها قابضة على وسائل الاستمرار في أمامية التقدم.

لكن المغرب وإن استطاع الاحتفاظ ببعض مظاهر التقدمية لفترة دامت زهاء قرنين آخرين، فإنه في فجر القرن السادس عشر غدا يبدو للعيان وقد فاته الركب الحضاري بمسافات صعبت ملاحظتها، بل إن مظاهر التخلف أخذت تتفاقم لحقب متوالية ظلت فيها البلاد تحت وطأة الغارات المسيحية الآتية من الغرب والتسللات العثمانية الآتية من الشرق.

وهذه الحروب التي أكره عليها المغرب لرد الهجومات المتعاقبة عليه من أوروبا غداة «الفتح الاستردادي» اليبيري (LA RECONQUISTA)، بما كانت ترمي إليه من مطامع استعمارية باطلة، قد شغلت دولة المغرب وأتمته أزمنة طويلة عن القيام بما كانت تقضي به مصلحة البلاد، ويتطلبه رقي الشعب في ميادين العلوم والتقنيات التي شادت عليها أوروبا حضارتها وتقدمها إنطلاقاً من القرن السادس عشر.

إنه من خلال نتوآت هذا الواقع التاريخي، ولأسباب أخرى ذاتية سنحاول الوقوف عليها، ظلت الفكرة الإصلاحية في بلادنا تلاقي صعوبات جمة تجعل دعاة

الإصلاح يجهدون فى كىبون تحت تأثر الأحداث السىاسية وما يصاحبها من تناقضات واختلافات تطبع منهجية الفكر الإصلاحى فى منظوره وتجسيده .

وإذا كان للأحداث السىاسية مواقعها وملابساتها فى التاريخ المكتوب، فان «الفكرة الإصلاحية» فى عمقها، بل وحتى فى ملابساتها، لم تحظ من «مؤرخى» المملكة بما تستحقه من تحقيق وتحليل. ولذلك كان على الباحث فى مجالات الدعوة الإصلاحية فى مغرب ما قبل الحماية، أن يبذل الجهد فى الكشف عن الملامح الإصلاحية فى تلك الفترة من خلال التعبيرات والإشارات المتناثرة هنا وهناك، سواء فى المدونات التاريخية العامة، أو فى التدوينات المخزنية والفتاوى الشرعية والتقايد المخطوطة، مما خلفه زمرة من الفاعلين إن بحكم مسؤوليتهم أو عن طريق الصدفة .

والمساهمة المتواضعة التى نقدمها فى موضوع الدعوة الإصلاحية فى المغرب، أمس الحماية، لا ندعى أنها تعبر عن تاريخنا الفكرى فى هذا المجال تعبيرا كاملا يحيط إحاطة شاملة بجوانب هذا الفكر فى خطاباته الإصلاحية المتعددة والمتنوعة فقها وتاريخا وأيديولوجيا، وإنما حاولنا المسك بخيوط هذه الدعوة حتى تتمكن التركيبة التاريخية الشاملة للفكر الإصلاحى فى المغرب، من التوافر على أرضية منسجمة فى المنظور والمضمون .

لذا اقتصرنا فى سياقة هذا البحث المتواضع على فترة زمنية من تاريخ الفكر المغربى الناهض وهو يخوض مسألة الإصلاح والتحديث، لنحصرها فى المرحلة ما بين سنة 1757 تاريخ اعتلاء السلطان محمد بن عبد الله (محمد الثالث) على العرش، وسنة 1912 تاريخ سقوط المغرب تحت الحماية الأجنبية .

فهذه المرحلة من تاريخ المغرب أفرزت أحداثا سىاسية وفكرية كان لها الأثر على مسار تطور بلادنا فى مجال اكتشاف ذاتيتها وشعورها بالفجوة التى تبعدها عن مستوى تقدم البلاد الأوربية، وتندرها بأن الوقت قد حان للقيام بما يمكنها من ملاحقة الركب الحضارى الذى أخذ يتسع لكثير من البلاد الأخرى، عربية وغير عربية .

فالبرغم من أن أوربا حملتنا عواقب كثيرة مما أصبنا به فى تقدمنا ثم فى مصيرنا التاريخى، فإن النخبة المغربية الممثلة فى علمائها المتنورين ومثقفىها السىاسيين، لم تكن غافلة عن ما يحيكه المستعمر الأوروبى من دسائس وما يتظاهر به من تهديدات لكسر شوكة المخزن وإعاقة عمل الحركات الإصلاحية التى كانت تجهد فتكبو تحت

تأثير الأحداث ثم تنتعش فتنوع في أشكالها وإيديولوجياتها، تدفعها الحماية الدينية وحمل الآنفة والإباء، ثم إذا بها تتجدد في تعبيراتها الفكرية وجدلياتها المتعاقبة.

هكذا إذن ظل شأن هذه الحركات الإصلاحية، ترقى شيئاً فشيئاً من: الدعوة إلى الإصلاح اقتداء بالسلف الصالح بوسيلة النصيحة المحتشمة، إلى المناداة بالإصلاح كضرورة عن طريق تجويز التحديث والتوافق الشرعي بفضل الاجتهاد التنويري في استنباط الفتوى الشرعية، فإلى الانتقال بالدعوة التقوية إلى المطالبة بإعادة النظر في الأنظمة السياسية الداخلية وتحديثها بإقرار الدستور وفصل السلط وتنظيم حياة نيابية.

وحتى يتمكن القارئ الكريم من الوقوف على الأطوار الثلاثة التي مرت منها الدعوة الإصلاحية في المغرب أمس الحماية، لم يكن لي من غنى عن وضع كل مرحلة في إطارها التاريخي، سياسياً وفكرياً، وهو ما حاولت إبرازه جهد ما استطاعت اليد أن تطول إليه من مصادر.

وفي هذه المقدمة أتيت بتوطئة تمهيدا للدخول في صميم التحليل المنهجي للموضوع، وتسهيلاً على القارئ اقتحامه لمادة طالما استقطبت أقالماً وأفرزت تحقيقات انقسمت حولها الآراء واكتفتها شتى الجدليات.

وسعيًا في التوسع في مجال تطور الفكرة الإصلاحية في المغرب، فقد خصصت الجزء الثاني من هذا المؤلف لأحد رواد الفكر الإصلاحي في بلادنا العزيزة، ألا وهو العم المرحوم محمد بن الحسن الحجوي، المعروف بالفقيه الحجوي، فبذلت الجهد لإعطاء صورة واضحة عن أعماله وأثاره الغنية بتعابير الدعوة إلى الإصلاح والتحديث، الدعوة المبنية على الفتوى الشرعية التنويرية، تمشياً مع التطور الحاصل في الفكر الحدائثي في البلاد الغربية، إيماناً من فقيهننا بأن الوقت قد حان لتحقيق ولو قسط من هذا التطور، حتى تلتحق بلادنا بالركب الحضاري السائد في المجتمعات المعاصرة.

وختاماً فليقبل القارئ الكريم عذري إن كنت حاولت من خلال هذا العمل المتواضع تمرير خطابات انتقادية أو حائثة رغم أن التحليل التاريخي ليس من شأنه حث الناس على تبني رأي ما، وإنما القصد هو تقويم ما ورد في الهستوغرافيا المغربية ككشف مقارن لربط ماضيها بحاضرها.

وعلى كل فببقى من الأكىد الصحىح ما قاله الإمام الشافعى من أن الرأى «الصائب» يحتمل الخطأ، والرأى «الخاطىء» يحتمل الصواب، فالصواب والخطأ وما إلى ذلك من المفاهىم البشرىة إنما هى نسبىة وستظل نسبىة ما دامت قابلة لجدلىة الرأى، ولذلك فقد لا ىرقى أى رأى مهما بدا لنا صوابه أو خطاه، إلى الحقىقة، لأن الحقىقة نفسها نسبىة إن لم نقل إنها من باب إدراك ما لا ىدرك.

وأخىراً فافتداء برأى علماء الاجتماع من أن الخوض فى جانب من جوانب مادة ما، ىقتضى تصوراً لتلك المادة، فقد خصصت حىزاً أولياً ىقضى بتعرف مقتضب على أصول الدولة المغربىة حتى ىتأتى وضع مسألة الإصلاح فى إطارها التارىخى والسىاسى.

أولىس الحكم على الشىء فرع تصوره كما ىقول الأصولىون؟

وبالله التوفىق

حسن أحمد الحجبوى

فاتح أكتوبر 2002

القسم الأول

إشكالية الدعوة الإصلاحية
في المغرب بين الإجتهد والتقليد

1912-1757

توطئة

بتتبعنا للأحداث السياسية والفكرية التي رأت النور في مغرب القرن الثامن عشر، سنرى أن عهد السلطان محمد بن عبد الله تزامن مع النهضة الأوربية في الميادين العلمية والصناعية، وفي تطور الأنظمة السياسية والإدارية حيث عرفت هذه الفترة اتساع آفاق السياسة الخارجية المغربية لإدراك ما يجري في العالم الغربي من صعود في المجالات العسكرية والتجارية. وهو ما تولد عنه من جهة، تجهيز البحرية المغربية بأسطول قوي قادر على رد الهجمات المسيحية التي كانت تتوالى على البلاد بذريعة الرد على «القرصنة المغربية»، ومن جهة أخرى تنشيط واسع في الدبلوماسية المغربية عن طريق إبرام المعاهدات السياسية وتبادل السفراء والوفود الاستطلاعية، الشيء الذي أسفر عن تنمية العلاقات الدبلوماسية والمبادلات التجارية مع عدد من دول أوروبا.

ويمكن تعريف هذه المرحلة بكونها مرحلة تنامي الشعور لدى المخزن بضرورة التمسك بسياسة الانفتاح على العالم الأوربي. فقد قرر المخزن لتنظيم الدبلوماسية المغربية جمع التمثيليات الأجنبية بمدينة طنجة التي أضحت العاصمة الدبلوماسية للمملكة إلى حين قرب فرض الحماية على المغرب.

وإدراكا من السلطان المغربي لتفوق أوروبا على بلادنا على المستويات التجارية والعمرانية، توجهت ما بين 1763 و1782 بعثات استطلاعية إلى عدد من دول أوروبا «لتدرس بعناية جميع التنظيمات الصناعية والسياسية والاجتماعية» إلا أننا لا ندري هل هذه الوفود قامت بمأموريتها بوجه ظهرت معه نتيجة لعملها في المجتمع المغربي، أم

أن نوعاً من اللامبالاة صرف هؤلاء الموفدين عن استشراف حقائق الرقى الأوروبى، وأعاق عن الدعوة إلى إصلاح الهياكل العتيقة للولاية الشريفة. ففي هذه الفترة التاريخية لم يكن المغرب يمتلك بعد متناً صحيحاً لرحلة أوربية مثل رحلة الصفار «السفارية» التي لم تظهر إلا عند منتصف القرن التاسع عشر.

ورغم هذا التفاعل الناشئ بين المغرب وعدد من دول أوربا على المستويين التجارى والدبلوماسى، فلم تقلع دولة فرنسا وإسبانيا عن الوقوف في وجه تكوين أي أسطول مغربى عصري قادر على مواجهة أسطوليها القويين إذ أن غاراتهما على الشواطئ المغربية ازدادت شراسة لدرجة أن السلطان مولاي سليمان الذي انتهى إليه أمر الخلافة، أمر بإيقاف عمل الأسطول المغربى، سلوكاً منه لسبل الاحتراس والحذر من الوقوع في شرك أساطيل أوربا، خاصة فرنسا التي أصبحت بحكم التطور والتفوق تفرض قوانينها الدولية على البحار، متحفزة للسيطرة والاستيلاء على القطر الجزائرى وأيضاً على محطات معينة من الشواطئ المغربية، مثلها في ذلك مثل إسبانيا والبرتغال.

وبديهى أن هذا الوضع الغير متكافئ بين عالم أحرز على تطور علمى وصناعى وظهرت بوادر تطلع قواته البرية والبحرية إلى السيطرة والاستيلاء، وبين بلاد يطبعها الانقسام بين سلطة ضعيفة وشرائع مجتمعية متفككة تعيش في ظل طرازات سياسية واقتصادية واجتماعية بائدة، لهو وضع لم يتهيأ فيه للمغرب أكثر من أن يعيش تحت هاجس الغارات المصوبة ضده، ورصد كل ما لديه من وسائل لصدها عن شواطئه، بالأحرى أن يستطيع تزويد نفسه بالمؤسسات الإصلاحية التي هو في حاجة إليها، فكانت النتيجة الحتمية للخطر الأوروبى المهدد هو تحويل أنظار المغاربة عن الاخذ بأسباب التقدم وإعاقتهم عن توفير الطاقة والقدرة.

وفي كل هذه المجالات، كان لهزيمتى إيسلي وتطوان وقع كبير على التوجهات السياسية والعسكرية للولاية الشريفة. ورغم أن المغرب استطاع الحفاظ على كيانه فإنه فقد الكثير من مركزه الدولى وقدرته على مواجهة الأطماع التوسعية الأجنبية حيث أضحت البلاد عرضة لمفاعيل التوغل الاقتصادى الأوروبى، ولمؤامرات الدول الاستعمارية وتسايقها إلى بسط سيطرتها على المغرب، الرجل المريض، خاصة فرنسا انطلاقاً من الحدود الجزائرية، الشيء الذى زاد من حدة التهافت على غزو الأسواق

المغربية توريدا وتصديرا من دون تقييد بأي التزام تعاقدي أو احترام للسيادة.

وقد ضاعف هذا الاختراق الأجنبي على الصعيدين التجاري والدبلوماسي من أطماع المنتفعين من رخص الاحتماء بالدولة الأجنبية، ومن شراحتهم للحصول على الربح العاجل، غير ملتزمين بواجبات المواطنة. وكان من النتائج المباشرة لذلك فقدان الخزينة لجزء من مواردها الجبائية من جهة، واحتكار المقيمين الأوربيين على أرض المغرب للمشاريع التجارية والخدماتية بمؤازرة المغاربة المحميين، من جهة أخرى.

إلا أن شعور النخبة المخزنية بالإحباط لم يكن ليبلغ درجة اليأس والتخلي، فقد استمر الملوك الثلاثة: مولاي عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان والحسن الأول، وقد عاشوا أو عايشوا بالتعاقب الكارثيين، وتأثروا بعواقبها السياسية والمالية، نقول استمروا في بذل الجهود للحفاظ على نوع من التوازن بين الأزمات الداخلية والأطماع الخارجية، وذلك بالمضاربة على تشابك المصالح بين الدول العظمى الطامعة في التوسع الاستعماري.

لكن بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر أصبحت الدول العظمى تلح في أن يفسح لها المجال لإدخال «إصلاحات» على جهازات المملكة، تمكنها من مزاوله أنشطتها التجارية وتنمية مشاريعها الاقتصادية على نمط تريد فرضه على الأيالة تحت مظلة ما تسميه بـ «الرسالة التمدنية». أما السلطان مولاي الحسن فكان يدرك حق الإدراك بأن الإصلاحات على النهج المطلوب ستخدم لا محالة مصلحة الأجانب قبل أن تجر نفعا للمغاربة، ولهذا كان جد حذرا من نوعية الإصلاحات المقترحة ومدى وقعها على الأمة المغربية. لكن بقدر ما كان يماطل الطرف الأوربي في إدخالها، بقدر ما كان يحث مجالس العلماء والأعيان على تدارس جوانبها ويشجع على قبول الصالح منها.

واستجابة لرغبة السلطان في تزويد جهازات الدولة بما فيها الجيش بمؤسسات حديثة تقنية تتولى مهام تحقيق الإصلاحات المرتقبة «توجهت في هذه الفترة بين 1860 و1890 ثمان بعثات تضم 350 فردا إلى أوربا، وتوجهت ست بعثات إلى مصر. وارتبط بمهمة تحديث الجيش إقامة العديد من المدارس والمصانع كمدرسة المهندسين بفاس، والمدرسة الحسنية بطنجة، ومصنع البارود بمراكش ومصنع

الكارتوش، ودار السلاح بفاس (وهو يضم ثلاثة معامل: معمل لصناعة البنادق والثانى لصنع البارود والثالث لصياغة النقد)، ومطاحن تجارية فى طنجة ومراكش. ورغم الحماس الذى أظهرته النخبة المغربية تجاه مسألة تحديث الجيش، فإن الفقهاء لم يتخلوا عن دورهم فى تقييم التقنيات والآليات العسكرية الجديدة من زاوية الشرع. وكان استعمال المدفع كان فى حاجة إلى فتوى شرعية تبيح استعماله⁽¹⁾.

ومع ذلك فمصير المتخرجين من المعاهد الأوروبية من أطباء ومهندسين وتقنيين فى الفنون الحديثة، كان مصيرها محزنا لما لا قوه من تهميش وإبعاد عن المسؤوليات من طرف أصحاب الحل والعقد.

وبقطع النظر عن نوايا الدول الأوروبية التى كانت دعوتها الإصلاحية تسير فى اتجاه ما يهيم لها الاستيلاء على البلاد، خاصة فرنسا وإسبانيا المدعمتين بانتصاراتهما على الجيش المغربى، فإن الرأى العام المغربى كان ما يزال فى حاجة إلى تربية عميقة للقبول بالإصلاحات من حيث أتت، فالساكنة الحضرية كانت لا تدرك من وجوه الإصلاح إلا آثارها السلبية، وأهل الحل والعقد كانوا يخشون من نتائج استتباب النظام الأمنى والجبايى القضاء على مصالحهم الخاصة، والعلماء كانوا أشد حذرا ومعارضة لغيرتهم العفوية على البنية الإسلامية للبلاد، والمتاجرون سواء منهم الأجانب أو المغاربة، خاصة المحتمون بالجنسيات الأجنبية، لم يكونوا ليسانداوا أى مشروع من مشاريع الإصلاحات التى كانت تعرض على المخزن، وذلك لما كانوا يخشونه من تأثيرات استتباب الأنظمة القضائية والجبايى والتقنية بصفة عامة.

ولعل فئة المزارعين وأهل البوادي على العموم هم وحدهم الذين كانوا ينتظرون بارتياح حدوث إصلاحات فى البلاد، تخفف من مفاعيل انخفاض قيمة النقد المغربى الناتج عن المضاربات التجارية التى كانت تضر بهم أكانوا بائعين لمنتجاتهم الفلاحية أو مشترين للمواد الاستهلاكية. فضلا عن ذلك فقد كانوا يرون فى تحقيق إصلاح ما، تحريرا لهم من عبئ الجبايا والرسوم والتغريمات المالية والبدنية المفروضة عليهم من لدن الولاة والحكام.

والواقع أن الشعب المغربى فى عمومه لم تكن له فكرة عن الإصلاحات تتبلور فيها إرادته بجذ وتدفعه للخروج من حالة التخلف والاستلاب إلى حالة التقدم

(1) محمد سيلا - المغرب فى مواجهة الحداثة - ص 11-12.

والتححرر. فقد ظل طوال تاريخه ضحية الجبرية والحتمية السياسية التي تبعده عن فكرة الاعتراض المعلن دون ما لجوء إلى التمرد. فقد كان أهل الحل والعقد يرفضون، رفضا لا تبصري لكل ما هو جديد وهم غير واعين بعجزهم عن مواجهة تخلفهم على أكثر من واجهة، ولم تكن التحديات التاريخية التي تسير بالبلاد إلى الانحدار لتخلق فيهم تحديات أخرى لمواجهة الأخطار المحدقة بهم.⁽²⁾

ومن ثمة لم تكن العناية موجهة لإصلاح الأوضاع الإدارية وتطوير أساليب الزراعة والصناعة، إذ كان الهاجس المسيطر هو تراكم الأصداء وإرهاصات المنذرة بقرب هجمة المستعمر، خاصة بعد انهزام الجيش المغربي في إيسلي ثم في تطوان، وما ترك ذلك من أثر سيئ على مناعة دولة المغرب ومعنوية المغاربة الذين أصبحوا يرفضون التعامل مع كل ما هو أوروبي ولو كان من أجل إصلاح أو تحديث يعود بالنفع على البلاد.

وهنا يبرز الدور الطلائعي الذي لعبته الطريقة الصوفية في استنهاض الهمم وتجنيد آلاف المتطوعين، معلنين الجهاد بانضمامهم للفياليق العسكرية المخزنية، لسد أزرها في الدفاع عن حوزة الوطن وتطهير الشواطئ من الغارات النصرانية.

لكن المؤامرة الاستعمارية لم تكن في نظري هي العائق الوحيد لملاحقة الركب التقدمي، فعدم الاطلاع الكافي على أحداث التطور الإنساني خارج المغرب والرقعة العربية الإسلامية، أو سوء فهمها أو النكوص عن تفهمها من لدن العلماء التقليديين وأهل الحل والعقد بالمغرب، بالإضافة إلى تفويت الفرص المؤدية إلى تكوين مجتمع مدني في الداخل، كل ذلك سيشكل فقدان البلاد، أثناء الظرف الحاسم، لوسائل التوعية المفضية إلى تنمية القدرات وتطويرها وإجراء الإصلاح الملح للقبض على سلم الارتقاء. وهكذا لم يستطع المغرب الالتحاق بركب الحضارة عن طريق التطور الطبيعي لعدم تحقيق الشروط الموضوعية المؤثرة على المفاهيم المتجاوزة التي كان المغاربة أسارى لها، أو بعبارة «عاجزين عن ربط مطامحهم بمنطق وبإمكانيات العصر الذي يعيشون فيه».⁽³⁾

(2) عبد الله العروي - اشكالية الدولة العربية الاسلامية - مجلة المشروع اكتوبر 1980 .

(3) العبارة بين المزدوجتين لعبد الله ابراهيم (نداء الحرية ص 121).

إن الأزمة الخانقة التي كانت تعم البلاد منذ الهزيمتين لم تكن لتترك النخبة المثقفة في منأى عن الأحداث، فقد كان هذا الشعور بالخطر، سواء من جانب المخزن أو من جانب النخبة الواعية «بمثابة نقطة انطلاق في اتجاه نقد ذاتي على الصعيد الوطني، ومبعث لحركات اصلاحية لم تعط ثمارها في الحال، إلا أن خيوطها ظلت متماسكة إلى وقتنا الراهن»⁽⁴⁾.

فعلى هذا الأساس قامت حركة مكونة من علماء متفتحين ومثقفين، ووجهاء وزعماء أمازغة، انطلقت تنادي بالإصلاح لجعل جهازات الدولة قادرة على رد الخطر الاستعماري الذي كان يتهدد استقلال البلاد وثقافتها وهوية أبنائها، وهذه الحركة شكلت تيارا إصلاحيا مجددا كان يرى بأن أفضل وسيلة لمقاومة التغلغل الأجنبي هو المبادرة بإصلاح الأوضاع المتردية التي كانت ترهن في نفس الآن الدولة والمجتمع والثقافة وروح المواطنة بل وحتى مبادئ الدين الحنيف . . .

وهكذا نشأ في المغرب تياران: تيار سلفي يقاوم الأوهام والتقاليد البالية والأساطير التي تقوض حرية الفرد وتعمي عقله ووجدانه، وتيار من موجبات القومية العربية في المشرق العربي، ممثل في كتلة العلماء المجددين الجاهدين في بعث النهضة القومية لدى الأمة العربية، حيث كان صدى الإنتاج الفكري لهذا التيار يصل إلى المغرب عن طريق المنشورات والمجلات المصرية واللبنانية.

ويظهر بعض المشاركة ممن دفعتهم النهضة الفكرية والسياسية إلى الإهتمام بالشؤون المغربية عبر مدينة البوغاز المفتوحة على البحر، بدأت الأفكار التحررية وبعض الشعارات كالحكم للشعب، والدستور، والعدالة، يهب ريحها من الشمال لتقرع آذان السلطان والنخبة المحيطة به. وقد تولد عن هذه الأفكار الجديدة ما يمكن أن نسميه بظهور معارضة للنهج السياسي والإداري والاجتماعي الذي كان يعيش عليه المغرب، خاصة بعد موت الحسن الأول وانهيار الواجهة التي كان يمسكها في وجه المناورات الأوروبية بعد أن أضحت مقومات الكيان المغربي متداعية للانخساف.

وهذه اليقظة النهضوية الجديدة كانت بمثابة تجديد للنظرية السلفية بانتقالها من حالة الجمود والركون إلى الماضية العقيمة، وبإعطائها دما جديدا يجعلها تفتح على

(4) محمد زبير (Mémorial du Maroc) جزء 5 / ص 241 (التعريب للمؤلف).

العلوم الحديثة وعلى حضارة العصر بمفاهيمها ومقوماتها - طبعاً بتحاشي كل ما يتعارض مع روح الأحكام الشرعية - وذلك بالعمل على تجديد أجهزة الدولة المغربية وصياغتها في قالب ديمقراطي تراعى فيه كافة الإصلاحات والاقتراسات التي من شأنها إضفاء العصرية والحدثة على دولة المخزن، وذلك من دون ما تعويل على الوسيط الأجنبي .

وكانت المطالبة السياسية والإصلاحية التي تمثلت في البيعة الحفيظية المشروطة تبشيراً بانبعث المبادئ السلفية وتجديدها بالدعوة إلى تحرير الأفكار من التأثيرات الظلامية من جهة، وإلى التصدي للمستعمر لاسترداد المناطق المحتلة من جهة أخرى، وكل هذا بالمبادرة إلى إصلاح جهازات الدولة وتقويتها وتقويم مفهوم المواطنة من شوائب نزعة «الاحتفاء»، ورد الاعتبار للدولة والقضاء على الفساد الإداري .

ويمثل هذه الحركة الفردية طائفة من أقطاب العلماء والوجهاء أمثال ابو عبد الله السليماني والفقيه محمد الحجوي والشيخ شعيب الدكالي والعلامة محمد بن العربي العلوي، وغيرهم ممن عايشوا الفترة الرهيبة المنذرة بسقوط البلاد في يد المستعمر، وكانت دعوتهم فردية تقوم على تأثيراتهم الشخصية المباشرة على السلطان عبد العزيز ثم عبد الحفيظ من بعده . . .

لكن الساعة الرهيبة التي كانت وشيكة، سرعان ما عجلت بخلق محيط جديد امتد سعيه إلى إصلاح الأنظمة السياسية للبلاد في عمقها كأساس لكل تقويم هيكلي للقوى الوطنية على المستويات الداخلية والديبلوماسية، ونعني بذلك استيعاب تجديد هذه الأنظمة بإعادة النظر في تنظيم السلطة عن طريق مشروع دستور نشر بجريدة «لسان المغرب» التي كانت تصدر باللغة العربية بمدينة طنجة .

وقد تجلت في هذه التيارات الداعية إلى الإصلاح، في كل مضامينه، روح الإرادة الرامية إلى التغيير النابع عن الذاتية المغربية كوسيلة ناجعة لإبعاد الخطر الاستعماري . لكن لم يكتب لجماعة «لسان المغرب» أن تنجح في جعل حد للجدل الذي طبع مسألة الإصلاح في المغرب طوال فتراته التاريخية للسلوك بها عبر مسالكها الفعلية، وذلك لما ظلت تتأثر به من مشادة بين خطاب الفكر المجدد وواقعية السلطة السياسية والمرجعيات التقليدية المتشددة، أضف إلى ذلك أن هذا المشروع «الثوري» تعرض لمناورات إجهاض خارجية ولثورات داخلية أغرقته في طي العدم .

هكذا إذن كنا نمائل فى الإصلاحات ومنتحل أصناف الأسباب لابعادها، وكان يحلو لهيئة الفقهاء وأهل الحل والعقد الاستمرار فى المجدالة والتبارى فى خلق المعوقات «الشرعية» للقبول بإدخال التقنيات الحديثة، مما جعل عملية الإصلاح تغرق فى غياهب اللاجدية، والدفع بها إلى اللامفكر فىه .

ولربما كان سبب إحجام سلاطين المغرب عن الدفع بعملية الإصلاح دفعا جديرا بمن يؤول إليهم أمر «الخلافة فى الأرض» وتعلقت بهم شؤون السلطة الزمنية (والدينية)، هو ميلهم - أو على الأخرى - استجارهم إلى استفتاء العلماء - الفقهاء - فى شأن ما يعرض من حالات «تطبيقية» تحيط بمسألة الإصلاح رغبة فى التوقف عند حدود الأحكام الشرعية، فكانت الفتاوى متضاربة والآراء متشابكة والجدل حادا بين من يجسدون العقل الفقهى ومن ينظرون للأمور بالعقل المخزنى، وفى كل هذا يكون المثقفون بثقافة العصر مبعدين عن المشاركة فى اتخاذ القرار .

وهكذا فعندما كانت تطرح قضية الإصلاح يحتدم الصراع بين المفتيين النقليين والمجتهدين المتنورين من جهة وبين أهل الحل والعقد من جهة أخرى، فتطول المناظرة والمناقشة بين هذا الجانب وذاك، دون التمكن من طرح المشكل بالوجه الحقيقى، وتغرق كل مبادرة إصلاحية فى لجج الصراع الجدلى والخلاف الذاتى . وفى خضم ذلك يبقى الموقف السلطانى موقفا سلبيا لا يستطيع فرض اتجاه تأخذ معه مسألة الإصلاح مسارا يفتح خطأ لطوق الإشكاليات المعيقة عن تحقيق الإصلاح المنشود، وهذا التخلف المنهجى ظلت شروره تسرى على مسار تقدم البلاد والتحاقها بالركب الحضارى، وإداركها للطريقة الجادة للتصدي للخصم المستعمر .

ومرة أخرى يخسر المغاربة معركة الإصلاح ويكون عليهم تلقي الدرس من المستعمر . لكن ليس معنى هذا أن ضير الاستسلام تسرب للروح المغربية الأصيلة التى ألفناها وقادة وصامدة وسط العاصفة . فالحجر الاستعمارى لم يزددها إلا اعتزازا بالنفس وتوقا إلى تحقيق الغايات . ومن ثمة كانت حشود المقاومة المسلحة التى قامت لتغص على المستعمر استقراره لفترة تجاوزت العقدين، ثم تلاها قيام الحركة الوطنية المباركة، إن على المستوى الشعبى أو على صعيد الأسرة المالكة، ليتحقق بذلك تحرير البلاد وإعلان الاستقلال كما هو معلوم .

الفصل الأول

الجذور التاريخية لنشوء الدولة المغربية

1- الإرث الأمازيغي والتجديد الإسلامي

لا جدال أن البلاد المغربية ما قبل دخول الإسلام كانت عبارة عن مجموعة من قبائل تنتمي إلى جذور متقاربة يجمعها الإحساس بالنسب المشترك، وتتساكن على مسرح يضم مجموعات ذات اكتفاء ذاتي، تستهلك منتوجاتها الزراعية والرعوية والغابوية، يتأقلم كل منها مع إمكاناته ووسائله لضمان حاجياته وطموحاته، تستغني كل مجموعة عن جارتها في تدبير شؤونها الداخلية، ولا ترضى بالشعور بالحاجة إلى التعاون مع غيرها أو تبادل أي نوع من أنواع المصالح فيما بينها ماعدا فرض الثأر وثمان الدم. ولذلك لم تكن تنزع إلى ما يدفعها إلى الانضواء تحت تحالف أو اتحاد من أجل إنشاء دولة تجمع شملها.

ولم يكن شبه الاحتلال القرطاجي والروماني ليدخل البربر إلى التاريخ الحضاري أو يضعهم على سكة تكوين الدولة، شأن ما حققه الفتح الإسلامي الذي أعطى للمغرب انطلاقته الكبرى ليندمج ضمن شبكة قارية من المواصلات التجارية التي شقت مناطق البلاد طولا وعرضا، وأخرجت أهاليه من سباتهم العميق، فكان من الضروري لضمان حركية المرور والتواصل تأسيس تنظيمات جديدة تجاوزت الأطارات القبلية.

وكانت فترة التبعية لخلافة المشرق وما تميزت به من مد الجسور الإسلامية بين إفريقيا وأوربا عن طريق المغرب الأقصى، تمهيدا للحدث العظيم الذي كان ينتظر

الأمازيغ فى استقلالهم عن المشرق العربى ودخول عهد السلطنة المغربىة مع بزوغ القرن التاسع الميلادى، فكانت الدولة الأدرىسية أول دولة بربرىة تحت رئاسة أمير عربى، وكان هذا الحدث هو التكرىس والإقرار للمسار التاريخى للمغرب الجدىد، يدل على ذلك حسب ما يراه جبرمان عىاش،⁽¹⁾ تعدد دور ضرب السكة واستغلال مناجم الفضة والنحاس بأرجاء المملكة، مما يشهد على أن الدولة الحديثة لم تعد مجرد واقع مرحلى أو ممر عبور للتبادل التجارى بل أصبحت مقر معاملات أصيلة .

وأهم من كل ذلك هو العامل الدينى وأثاره على المعطيات والعادات الأطلسىة، فلقد تولت ما بىن القرن التاسع والقرن الثانى عشر ثلاث أسر مالكة حكمت البلاد، كان همها الوحىد ورائدها هو العمل على توسىع رقعة دار الإسلام وإحىاء معالم الدين الحنىف واللحام القوى بىن قبائل البلاد على اختلاف نزعاتهم وعاداتهم لىصىغها وىذبها فى وحدة متراصة حول شىخص الأمير تعترف له بالإمارة وتستمد منه حرية الدين وحلاوة النصر والشعور بالرباط القومى، وبحق التمتع بالأرض، ولا تعطىه إلا ما هو مطلوب من جمىع الناس، ونعنى فروض الطاعة والولاء المبنىة على البىعة ثم المساهمة النسبىة فى رصىد بىت المال .

عاملان أساسىان ساهما إذن فى توحىد قبائل المغرب: الإسلام واللغة العربىة من جهة، وحركة المبادلات التجارىة التى شقت طرق المغرب العربى فى اتجاه الأندلس وبلدان افرىقىا السوداء من جهة أخرى، فعلى مسرح الإسلام والعروبىة أسس بربر المغرب وحدتهم السىاسىة، وبفضل ازدهار المبادلات التجارىة المتبلورة فى حركىة القوافل العربىة الافرىقىة، نشأت وترعرعت علاقات داخلىة اقتصادىة واتصالات ثقافىة واجتماعىة بىن مختلف قبائل الأمازيغ من مصامدة وزناتة وآىت عطة وغيرها من القبائل والكنفدىريالىات البربرىة المغربىة، وكان رباط الدين والتمازج الحضارى عاملىن على إشاعة اللغة العربىة لغة القرآن .

وعلى مسرح الإسلام دخل البربر إلى التاريخ الحضارى من بابة الكبىر، اعتنوا بالعلوم والفنون والآداب عناية كان لها فضل على البعث الأوروبى، وأسسوا أنظمة

(1) «دراسات فى تاريخ المغرب». ص 398 - أنظر دنىال اوسطاش «دور الضرب السكى بالمغرب» حىث يظهر أن من بىن 51 دارا للضرب ثم اكتشافها بمغرب ما قبل الحماية هناك 21 دارا أسسها الملوك الأدارسة .

امبراطورية فسيحة، مربوطة لا بالقوة المادية فحسب، بل بالرسالة الإسلامية، وثقافة حقيقية وقانون... وساهموا مساهمة ناجعة في تكوين فن معماري فاخر يحمل طابع الغرب الإسلامي ويتسم بسمة الرجولة، كما حافظوا من جهة أخرى على صناعات يدوية مبدعة، واستغلوا قبل المدن الحرة في أوروبا، طريقة الإشهار التجاري بواسطة المعارض السنوية، فقد نوه ابن خلدون بالمعرض السنوي بمدينة «تاكاوست» محط البضائع على نهر سوس وهو سوق في يوم واحد في السنة يقصده التجار من الآفاق وهو من الشهرة بهذا العهد بمكان»⁽²⁾.

ففي هذه الفسيفساء من الثقافات والتساكنات الانسانية المنصهرة في النسيج الاسلامي المتسامح، الخلاق، ذابت الخصوصيات ليقيم محلها شعور عميق بالذاتية المغربية البارزة في الحضارة الأصلية التي أسسها تحت راية الإسلام المكونان العربي والأمازيغي بجهود مشتركة، قوية واردة وفي إطار الولاء لقاعدة البيعة.

2- السمات التاريخية للدولة المغربية

إن نظرية السيادة في المغرب، بالرغم من أنها مستمدة مبدئياً من نظرية الخلافة، ظلت مستقلة عن دار الخلافة متأثرة في نظامها العام بالتقاليد الأطلسية العريقة، غير منفصلة بالتقلبات الشرقية الكبرى مما جعلها تكتسي في إطار الجامعة الإسلامية صبغة استثنائية تحتفظ للمغرب بشخصية سياسية قوية وخاصة. ومن البيعة - وهي نوع من التنصيب الوطني - يستمد السلطان شرعية السيادة. فتكون بذلك السيادة السلطانية مرادفة للسيادة الوطنية. إلا أن لهذه السيادة حدوداً رغم سعتها. فالأمة، أي ممثلوها الضمنيون، تحتفظ بحق النظر في توافق الأعمال السلطانية مع أحكام الشريعة ومصالح الرعية، أو بعبارة أخرى، لها حق النظر في «دستورية» هذه الأعمال.

لذا لم تخرج التقاليد المغربية الدستورية في العصور المتقدمة عن هذا الإطار الإسلامي الصحيح، وقد برهن ملوك المغرب عن استعدادهم لاستشارة كل من له رأي في المجالات المختلفة، وإلضفاء الخاتم الملكي على القرارات التشريعية المهمة، خاصة التي لها علاقة بسيادة البلاد. فنرى في عهد الموحدين الخليفة ابن

(2) عبد الله إبراهيم (صمود وسط الاعصار). ص 69. (موقع تاكاوست حالياً بقربة القصابي).

تومت يعين مجلسا مصغرا مركبا من عشرة أقطاب الجيش والإدارة ليستشيرهم فى شؤون الدولة، وذهب إلى أبعد من هذا بأن أحدث مجلسا للشورى يتألف من خمسين عضوا كان يستير برأيهم فى الظروف ذات الأهمية العظمى.

وفى عهد الملوك العلويين كان هناك ما عرف بمجلس الأعيان الذى كان يشمل عددا من الوجهاء والعلماء والأشراف يستند السلطان على استشارتهم فى مشاريع الإصلاحات والمعاملات التجارية مع الدول الأجنبية كيفما كان شأنها (استشارة الحسن الأول بشأن الترخيص بوسق الحبوب). كما أن السلطان عبد العزيز أمر بانعقاد مجلس الأعيان لمناقشة مقترحات القنصل الفرنسى روني طايلاندى بشأن التقط المزمع طرحها على مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1905.

فنظرية السيادة المغربية، كما نجدها فى مطلع القرن العشرين، من حيث الأصول الشرعية، نظرية واضحة وقارة، تلزم صاحب الولاية العامة، بصفته خليفة المشرع الأصلى والمؤتمن على سيادة الأمة، بأن يجمع أهل الرأى ويشاورهم فى الأمر ويتخذ معهم القرارات التى تلزم الرعية.

والسلطان فى نظرية الدولة السلطانية المغربية له مسؤوليات أمام الله وأمام الأمة، فهو يحرص القانون المنزل ويحافظ على كيانه، كما يدافع عن حرمة الدين وسلامة أرض الإسلام. وهو يضمن النظام والعدالة والأمن، ومن ثم يتوجب عليه أن يكون دائما فى خدمة الرعية والسهر على مصلحتها وسعادتها.

وفى مقابل ذلكم يكون وفاء الرعية لتعاليم القرآن (يأبها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي المر منكم) هو فى نفس الوقت تعزيز لسلطة السلطان والحاكمين بأمره. فالدولة فى هذا النظام السياسى، كما يقول عبد الله العروى، «لا تتميز عن شخص السلطان، بحيث الدولة هى الشخص المعظم للسلطان، والسلطان هو تجسيد الدولة»⁽³⁾ وبذلك يكون نظام البيعة فى مفهومه القانونى موازيا لمعايير القانون الدولى، أى معادلا لمفهوم الولاء للدولة وسيادة الدولة.

وطبعا فإن تطور النظام الدستورى المغربى بفصل إرساء نظام الملكية الدستورية المرتكز على المبادئ الديمقراطية، جعل من المغرب اليوم دولة ذات نظام حديث

(3) إشكالية الدولة العربية الإسلامية - مجلة «المشروع» أكتوبر 1980

متكامل اظهر تعلقه بمبادئ حقوق الإنسان ووفاء لقواعد دولة الحق والقانون. (4)

3- الشعور بالوحدة القومية عند المغاربة

منذ أن ظهر الإسلام في الرقعة المغربية ودخلت فيه جموع القبائل المغربية على يد الفاتحين الأفداد، أصبح المغاربة يشعرون بتحملهم المسؤوليات العظمى نحو دينهم وملتهم مما هو محفوظ في التاريخ، فجاهدوا خير جهاد من أجل نشر الرسالة الإسلامية وبث الدعوة المحمدية في سبيل المثل العليا من حرية وحضارة وعرفان في عصر كان الفكر الإنساني يتخبط في جهالة عمياء.

ومن هنا تحققت الفتوحات العربية التي تزعم فيها المغرب أو شارك فيها بنصيب وافر في نشوء الحضارة اليانعة في بلاد الأندلس، تلك الحضارة التي أقيم منارها عاليا يشع منه نور المعرفة على جميع من آوته أرضها وأطلته سماؤها.

ولا شك أن جامعة القرويين كانت حصنا حصينا في الحفاظ على هوية الشعب المغربي اسلاما وعروية، إذ لولا القرويين لما تمكن المغرب من المحافظة على وحدته الثقافية وشخصيته القومية. والمستعمر ادراكا منه لهذه الحقيقة ما فتى يجهد في القضاء على الهوية المغربية بمحاولة القضاء على القرويين عن طريق تجميد برامجها التعليمية والاغضاء عن تطوير نظامها.

لقد كتب للشعب المغربي أن يمر من مراحل طويلة ليدشن حلقات متواصلة من أعمال المجد وتقاليد الدفاع عن الكرامة والهوية. ومن خلال هذه الممارسة النضالية

(4) كان المجتمع الأمازيغي يتميز بظاهرة أزرف (مجلس شيوخ القبائل) الذي ينظم المعاملات القانونية، والمدنية والتجارية والشرعية والحرية للقبيلة، وهو مجلس لا يلجج إلا من وقع عليه الاختيار غيابيا من ذكر وأثنى لثلاث خصال، وهي الصدق في القول والفعل - الشجاعة في الرأي والممارسة - الغيرة على مصالح القبيلة - ويسمى الذكر امغار والأثنى تمغارت، أي الشخص الذي تميز في عشرة طويلة بسداد الرأي وسعة الصبر وعمق التجربة والتفاني من أجل الآخرين... ونظرا لقيمة المركز فإنه لا يحق لأحد أن يرشح نفسه له. ومعنى هذا أن الشخص المختار يكون آخر من يعلم بقرار القبيلة. وحين ما يتوصل به فإنه غالبا ما يرفضه خوفا من المسؤولية، لكنه أيضا غالبا ما يرضخ لمشيشة القبيلة مع الاشتراط أن يسانده مجلس شيوخ القبيلة الذي يعتبر الموجه لقراراته ومشاريعه وانجازاته. وعليه فإن أي قرار في أزرف لا يتم بدون علم من مجالس القبائل، وبعبارة أخرى فإن أي قرار رأسي لا يتم دون علم وموافقة القاعدة (عن اسبوعية الصحيفة. العدد 19، 2000-2 - فاطمة شبوب)

تكون لدى المغاربة عربا وأمازيغ، الشعور بالذاتية المتميزة والوعى الوطنى، مما رسخ فيهم روح المقاومة التى تفجرت ضد المستعمر الغاشم فى صورها الرائعة مع حركة اللطيف الناجمة عن الظهير البربرى .

دعنا، يقول علال الفاسى، من الأسطورة التى اشتغل المستعمر الفرنسى بترديدها لتبرير احتلال المغرب، بقوله إن الأيالة الشريفة كانت منقسمة إلى «بلاد مخزن وبلاد سببة»، أى قبائل خاضعة لسلطة المخزن وأخرى لا تخضع إلا للرمزية الروحية للسلطان دون السلطة الزمنية . ولهذا ادعى المستعمر أن السلطة المركزية بالمغرب لم تكن إلا سلطة اسمية . وللدرد على هذا الادعاء تساءل لماذا كان المستعمر الفرنسى يتعامل مع مناطق «السيبة» ويأشر احتلالها باسم السلطان كعاهل زمنى للأيالة لا كمركز روحى فحسب، فلولا أن المؤسسة السلطانية فى معناها الشمولى لم تكن هى العربون القوي عن وجود الأجنبى «الحامى» لما استطاع المستعمر الفرنسى التوغل فى المناطق المغربية . وبفعلته الهادفة إلى تقسيم البلاد قوميتين متباينتين احدهما عربية تخضع لأحكام الشرع الإسلامى وأخرى بربرية تخضع للقانون العرفى، أثار المستعمر وعلى نقيض ما كان ينتظره، رجفة وطنية حول شخص السلطان الذى سرعان ما تحول إلى رمز للوحدة الوطنية.⁽⁵⁾

وفى هذا السياق يرى عبد الله العروى⁽⁶⁾ أن رغم تفويض إدارة البلاد لمجموعة من دول أوربية فى العام 1912 بمقتضى عقد الحماية والاتفاقيات الثنائية التى تلت هذا العقد، فإن الجميع لم يكن يعترف إلا بسيادة واحدة وهى السيادة المتجسدة فى «مؤسسة السلطان» بحيث عندما انتهى هذا التفويض الموقت بالغاء عقد الحماية والاتفاقيات الأخرى سنة 1956، تمكن السلطان من استرجاع كل السلطة الإدارية التى كانت تحد من السيادة الوطنية .

إن الدولة المغربية دولة تاريخية تكونت عبر قرون وتبلور الوعى القومى فيها خاصة أثناء صراعها ضد الإسبان والبرتغال شمالا، وضد الأتراك العثمانيين فى الشرق للمحافظة على حدودها التاريخية . وإذا كان هذا هو دأبها فى مواجهة من يهدد كيانها من الخارج، فإنها لم تعرف نزاعات عرقية أو حروبا داخلية تذكر، وذلك رغم تعدد

(5) الحركات الوطنية فى المغرب العربى - القاهرة - 1948 .

(6) جريدة المحرر - 19 مايو 1977 .

مجموعاتها الاثنية، بل إن التمازج بين مختلف مكوناتها أفرز فضاء من الثقافات المتجانسة ومن أنواع الوعي القومي المتراص، وقف دوماً في وجه الدخلاء الطامعين وصددهم عن الأرض المغربية، إن بوسيلة المقاومة المسلحة أو بالتعبير عن أنماط السلوك الوطني الأصيل، الشيء الذي اعتمدته الحركة الوطنية في عملها ضد المستعمر الغاشم غداة توقف الكفاح المسلح، وقد شارك في هذا الاستثمار الإثني النادر مجموعات العرب والأمازيغ على السواء من دون تقاعس أو تخادل.

ولمن ينكر عن بلادنا وشائج وحدتها الترابية نقول عليه أن يعلم بأن ما من قبيلة سواء كانت منحدره من أصل بربري أو عربي، إلا ويوجد فرع لها في التقسيم الجغرافي الحالي سواء في الصحراء أو في القلب السكاني للبلاد. فبرغم التقسيمات التي افتعلها الاستعمار لمنع تواصل الإنسان المغربي واستمرار روابط الثقافة والوحدة الوطنية، فقد ظلت العلاقات قائمة بين مختلف القبائل المغربية، وظلت وحدة الشعب شاهدة على وحدة الأرض، ومن هنا كانت القومية المغربية تقوم من بين ما تقوم عليه من الركائز، على مزيج متراص من العرق والدين واللغة تحت كنف الولاء لقاعدة البيعة ومشروعيتها من أجل سيادة ترابية كاملة غير منقوصة.

وهذا المزيج النادر من العرق والدين بين العرب والأمازيغ يتجلى من عدة قراءات عن حركية القبائل المغربية شمالاً وجنوباً، وامتزاج بعضها ببعض، حيث إن قبائل من شمال المغرب ووسطه تفرعت تحت تأثيرات التجوال وتساكنت مع قبائل الجنوب وإلى تخوم الصحراء من بلاد شنقيط - أي صحراء المغرب - الممتدة من وادي ذرعة شمالاً حتى نهر السينغال جنوباً.

وفي هذا المجال نقرأ مثلاً في مؤلف لعلی طعمة⁽⁷⁾ إن قبائل اولاد دليم الحسانيون الأصل من الحميريين القادمين من اليمن في القرن الثالث الهجري بفروعهم في وادي الذهب وسيدي قاسم وما بين مراكش والصويرة، قد اشتهروا بولائهم العربي الإسلامي لملوك المغرب، وبفضل شكيمتهم كانوا هم يد السلطان وعينه في مناطق تجوالهم وإقامتهم في الصحراء الجنوبية لقاء إعفائهم من دفع الضريبة، فقد برهنوا غير ما مرة على ولائهم للعرش العلوي وعلى حسهم القومي والوطني.

(7) المغرب. تاريخه، حضارته، حقيقته - ص 36-37-49.

4- الدفاع عن الذاتىة المغربىة

لقد توالى على المغرب طوال القرن التاسع عشر وخاصة منذ احتلال الجزائر حملات استعمارية شنتها عليه اوربا وتجلت فى الضغوط الاقتصادية والسياسية التى كانت تمارس على البلاد إلى أن انتهت بفرض الحماية الفرنسية. والمؤرخ لهذه الفترة من تاريخ المغرب يتساءل هل لم يكن هناك، ويقطع النظر عن المعارضة الدبلوماسية الملكية من جهة وتجليات التيار التنويرى الذى يمثله جماعة «لسان المغرب» من جهة أخرى من مقاومة شعبية مفتوحة ضد غارات الاحتلال الأجنبى، ونعنى بالذات ما يسمى فى الأدبيات السياسية بالروح الوطنية والإحساس بالقومية.

يعتقد الكثيرون أن المقاومة المسلحة التى جسدها موحا وحمو الزيانى وأحمد الهية ومحمد عبد الكرىم الخطابى وغيرهم، إنما برزت بسبب ظهور بوادر الاحتلال الأوروبى الناتجة عن مقتضيات عقد الجزيرة الخضراء، ثم عن الاحتلال الفعلى فور إبرام عقد الحماية، ولم تكن سوى استفاقة نجمت عن حادث مهول، بل وعلى النقيض، فإن هذه المقاومة كانت فى الحقيقة رجفة قيام شعب بكامله فى وجه الاحتلال المسيحى منذ بداياته المتجسدة فى الغارات التى عرفتها الشواطئ المغربىة.

فىجب أن لا ننسى أن الترصـد لمحاولات غزو الشواطئ المغربىة بدأ عند احتلال مدينة سبـتة فى مستهل القرن الخامس عشر، واستمر لفترات متقطعة كانت المقاومة المغربىة تواجه فيها غارات الاحتلال الاسبانى والبرتغالى بضراوة نادرة وفى وقت كانت جيوش الغزاة على جانب كبير من التجهيز والتقنية، أى على مستوى أرقى بكثير من «الحركات» القبائلىة المغربىة المجهزة تارة بأمر من حكومة المخزن وتارة بمبادرة وتحريض من رؤساء الزوايا أو القبائل.

ويمكن القول بأنه لولا هذه المقاومة المستمىة التى كان يغديها حماس شعبى شديد لما استطاع المغرب المحافظة على استقلاله إلى ما بعد عقد الجزيرة الخضراء، ولولا روح قومية فاعلة لما استطاع المغاربة إيقاف المغيرين الأفرنج عند حدهم فى مواقع نزولهم، وطردهم من حيث أتوا. «فالمحلات المخزنىة» والحملات المسلحة التطوعىة للقبائل ولمجاهدى المرابطة قد واجهت باسم السلطان غارات اوربا المتوالىة طوال أربعة قرون وبلا انقطاع.

أو ليس فى هذا الإجماع الشعبى الدؤوب حول فكرة الدفاع عن الدين والكيان

الوطني ما يشهد ويعبر خير تعبير عن وجود قومية عريقة؟ وقد كان هذا الشعور بالقومية وهذا الإحساس بالانتماء إلى سلطة عليا مركزية هو الحافز القوي على التحرك الدائب من أجل الدفاع عن عروة الدين ووحدة المذهب . وكانت أعمال المقاومة لكل ما يهدد الكيان القومي تتبلور في تكريس كل الوقت لتحسين الحدود والثغور لجعلها في مأمن من هجمات المغيرين المترصدين لها بإصرار وباستمرار .

وفي هذا السياق ينبغي الإشادة بالدور الطلائعي الذي لعبته الزوايا في مجال البعث الديني والاستعداد للجهاد والدفاع عن حوزة الوطن، وكان التطوع للمرابطة تلبية لنداء منشئي الرباطات (الزوايا) المختلفة خاصة في الثغور التي يخشى منها مفاجأة العدو واقتحامه لدار الاسلام سواء على شواطئ البحار أو بالقرب من المدن .

فلقد ذكر التادلي في «التسوق» عشرين رباطا كلها كانت مركزا للاجتماع والعبادة، وقد تعود المريدون الاجتماع في الرباط لحراسة الثغور والجهاد، حتى إذا انتهت مهمتهم تحول الاجتماع للتعليم والذكر والتعبد وتلاوة القرآن . وقد انتشرت الزوايا في المغرب انتشارا واسعا حيث كانت تتلى فيها الأوراد ويتم إطعام الزائرين والواردين عليها، فضلا عن تأثيرها الأدبي والعلمي والحضاري في محيطها، وعن جهادها القديم المتجلي في مرابطة أصحابها في الثغور، وجهادها الجديد في مقاومتها للتدخل الفرنسي والاسباني والبرتغالي في المغرب.⁽⁸⁾

وعلى ما يبدو فإن الإقبال على الانخراط في الرباط كان تلقائيا وذاتيا من دون تدخل لممثلي السلطة، يدل على ذلك أن المخزن رغم ميولاته الوهابية لم يكن يبدي معارضة لإنشاء الرباطات بل يتقرب ممن كان يتوسم فيها خيرا لمساعدته على احتواء القبائل وتعزيز سياسته الداخلية والدبلوماسية . فانتشار الطرق «الصوفية» على هذا النحو من الاجماع الشعبي والرضاء المخزني⁽⁹⁾ واحتضان الرباطات في المدن والبوادي لجموع المريدين من قبائل متغايرة ومجتمعات متعددة في الفوارق، ليشكل مظهرها ساطعا لوحدة القومية والمواطنة المغربية .

(8) ذ. عبد الحي العمراني - مجلة الجواهر المغربية عدد 28 (فبراير 93) .

(9) لم تكن يد المخزن تمتد إلا نادرا لبعض الرباطات، خاصة ما كان منها يتظاهر بمعارضته لنظام الحكم (الزاوية الحنصالية مثلا انظر طيراس تاريخ المغرب ص 373) .

ناهىك أيضا عن صلابة قبائل اولاد دليم بتخوم الصحراء من بلاذ شنكىط وما امتازوا به من الحس القومى الوطنى وقيامهم فى العام 1884 بتحطيم منشآت اول شركة اسبانية حاولت النزول الى شاطىء نغر الداخلة لأنها لم تتقدم باسم سلطان المغرب .

تجدد الإشارة كذلك إلى قبيلة أدرار من قبائل الساقية الحمراء موطن الشيخ ماء العينين مؤسس السمارة وخليفة السلطان فى الصحراء ابتداء من عهد السلطان مولاي عبد الرحمان وصولا إلى مولاي عبد العزيز . وقد اشتهرت قبيلة ادرار هذه بحسها الوطنى الدينى ، واعتمد اشياخها على الزاوية الشنقيطية فى استمالة القبائل الصحراوية للعمل السياسى من أجل الحفاظ على الوحدة المغربية .

فمن مناقب الشيخ ماء العينين فى ولائه للعرش العلوى ، أنه أمام المناورات الاستعمارية وعند بدء اجتياح فرنسا لتلك المنطقة والتهيبى لوضعها مستعمرة تابعة لرابطة ما كان يسمى ببلدان افريقيا الغربية الفرنسية (PAYS DE L'AFRIQUE OCCIDENTALE FRANCAISE) لفصلها عن المغرب ، تصدى المجاهدون الشناقطة لغارات الجيش الفرنسى بقيادة الشيخ ماء العينين ، ولما وصل خبر ذلك للسلطان عبد العزيز قام باحتجاجات شديدة وجهها سنة 1900 إلى قناصل الدول الأجنبية بطنجة ، كما لم يالو جهدا فى مؤازرة المجاهدين الشناقطة ، وتجلت هذه الجهود فى المحلة الشريفة التى أرسلها بقيادة عمه مولاي ادريس ، «ويخبرنا الأرشيف الفرنسى فى مدينة تجكجة - وسط موريتانية الحالية- كيف أن محلة مولاي عبد العزيز أبلت البلاء الحسن بقيامها بتعبئة وتجهيز كتائب المجاهدين الشناقطة بقيادة الشيخ ماء العينين» .⁽¹⁰⁾

لقد تبلور عمل آل ماء العينين من خلال الثورات التى شنوها على المستعمر الفرنسى بدءا من السمارة فوصولا إلى مراكش بقيادة الهيئة ، وتويعت الثورة إلى آخر المواجهات مع الجيوش الفرنسية ، تلك التى قادها الشيخ المريبه ربه سنة 1934 ، وبقي اتصال آل ماء العينين مستمرا بالعرش العلوى عن طريق نائب خليفة السلطان بالصحراء الشيخ محمد الأغضف الذى كان أول من بايع المغفور له محمد الخامس سنة 1956 على رأس القبائل الصحراوية .

(10) واصف منصور - الجهود من أجل الوحدة - جريدة الاتحاد الاشتراكي - 97/7/13 .

5- المقاومة المسلحة كمظهر لوحدة القومية

عندما آل الأمر بولادة الأمر إلى الإحباط أمام النكبات المتوالية على البلاد جراء التصاعد الاستعماري، بقي الشعب رافضا لكل استسلام، مستعدا للمقاومة، فاتخذ له قادة برزوا من صفوف الثورة القائمة في الشمال والوسط والجنوب ليعم الكفاح في القبائل وفي المدن «فكانت ثورة مدينة فاس المجاهدة لتظهر بدورها أن المغاربة الذين ظلوا احرارا يتمتعون باستقلالهم منذ الغزو الروماني، لا يمكن أن يخضعوا بسهولة لأي احتلال أجنبي، وإذا تم قمع هذه الثورة وإسكانها بكل وحشية، فإنها ستندلع في مناطق أخرى لكي لا تهدأ حتى استرجاع السيادة».⁽¹¹⁾

والجدير كذلك هو جهاد أبناء الأطلس المتوسط بقيادة الزعيم موحا وحمو الزياني، مما خلدهته معركة الهري المعروفة، وناهيك بصفة خاصة عن ثورة المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطابي التي تميزت بانتصاراتها على القوات الاسبانية ما بين 1924 و1926 إلى أن تظافرت ضدها القوات الفرنسية معضدة الجيش الاسباني كما هو معلوم. واللائحة طويلة للذين عرفوا بصلابتهم وشدة مقاومتهم للدخيل المستعمر «ففي رأي الجنرال كاترو - وقد كان يومئذ من أعوان المريشال ليوطي المقربين وواحدا من المساعدين العاملين معه - أن معاهدة فاس رفضها الشعب المغربي بأجمعه، وأدت في الحال إلى قيام ثورات دامية قتل أثناءها في فاس وحدها مئات من الجنود الفرنسيين. ولم تتمكن فرنسا من فرض الحماية إلا بسبب تفوقها الحاسم في السلاح، إذ أن الأمة بأكملها، عربها وبربرها، قامت في وجه العدو الكافر. ولم تخضع أي من القبائل دون مقاومة، والبعض لم يخضع إلا بعد أن استنزف آخر وسلية للمقاومة. ولم تأت قط قبيلة إلينا - يقول الجنرال كاترو- إلا بعد هزيمتها في ميدان القتال، وكل مرحلة من مراحل التقدم كانت نهاية معركة يخوضها رجالنا لسنوات طويلة وهم معرضون للخطر دون أن يجنوا أي مجد».⁽¹²⁾ إنتهى كلام كاترو.

وعندما تمكن المستعمر الفرنسي من قمع هذه الانتفاضات الشعبية الجهوية أراد كسر نابضها بمحاولة إحداث تفرقة قومية وقضائية بين عرب المدن والسهول من جهة، وأمازيغ الأطلس من جهة أخرى، وهو مشروع فضيحة الظهر البربري في 16

(11) أحمد قايليل - جريدة الاتحاد الاشتراكي - 4/17، 1996.

(12) روم لاندرو - تاريخ المغرب في القرن العشرين.

مايو 1930، ذلك المشروع الذى أوقد فتيلة الثورة الشعبىة من جديء حيث انتقلت المقاومة إلى المدن وأظهرت الوجه الحقيقى للوحدة القومية وسقوط كثير من الفوارق الاجتماعىة والثقافىة لدى عامة المغاربة، متجلىا كل ذلك فى قراءة اللطيف بمساجء المملكة (اللهم بالطف نسالك اللطف فىما جرت به المقادىر ولا تفرق بىنا وبنى اخواننا البرابىر).

والجءىر بالذكر أن حركة التحرىر لم تكن ولىءة الظهىر البربرى فحسب حسبما ىذهب إلىه معظم الذىن أرخوا للمغرب من الأجانب بل هى نشأت عن الاحتلال نفسه وفور فقاءن السىاءة، ثم ان تطورها وتغىىر أسالىبها كان مواكبا للتغىىرات التى كانت تطراً على أسلوب إءارة البلاد من لءن سلطات الحماية، ولا مجال هنا للتعرض لهءه التطورات إذ ببقى هذا من مجال التاريخ. إلا أن ما يعنىنا فى هذا المقام هو أن المقاومة المغربىة لم ترغم على وضع السلاح إلا لتتخذ شكلا جءىءا فى المدن بظهور الزعماء الءىنىن والسىاسىن المؤسسىن للحركة الوطنىة منذ العام 1926.

الفصل الثاني

الإطار التاريخي لحركة الإصلاح

1- فترة انفتاح على الخارج

يمكن القول أن التفكير في إدخال أساليب عصرية على أجهزة الدولة المغربية بدأ يتمظهر منذ حلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر في محاولة اقرار ديبلوماسية مغربية أكثر تفتحا على عالم اوربا، بما انطوى عليه هذا العالم من تجليات علمية ومظاهر تمدنية حديثة.

فلقد تزامن عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله - محمد الثالث 1757-1790 - مع أحداث الثورة الفرنسية والنهضة العلمية والصناعية والفكرية التي عرفتها اوربا في القرن الثامن عشر، قرن الأنوار، وإذا كان الملوك العلويون الماهرون (مولاي رشيد ومولاي اسماعيل) قد وجهوا عنايتهم لإرساء قواعد الدولة المغربية وتوحيد أطراف البلاد واقتصروا شيئا ما على تنشيط العلاقات السياسية والمبادلات التجارية مع السودان ودول الشرق الأوسط والعثمانيين، فإن جهود السلطان محمد الثالث اتسعت إلى الآفاق «النصرانية» وبعبارة إلى مراقبة ما يجري في العالم الغربي ليدرك نوابض صعوده وأسباب تفوقه على دار الإسلام في شتى المجالات العلمية والحضارية.

ذلك أن سيدي محمد بن عبد الله، منذ كان خليفة لوالده السلطان مولاي عبد الله بمدينة آسفي (1746)، وبحكم احتكاكه بالعالم الأوربي عن طريق البحر، استوعب الأهمية الاقتصادية والسياسية للتجارة الخارجية حيث كان ينوب عن والده في إجراء المفاوضات مع الدول الأوربية بهدف إبرام اتفاقيات تجارية وسياسية. وفي هذا الإطار

كان حسه السياسى يدفعه اثناء حديثه مع الممثلين الأجانب لى الاىالة الى الاستطلاع حول ما ىجرى فى البلاد الغربىة بخصوص الأسالیب الإدارىة والنشاطات الاقصادىة.⁽¹⁾

لذا كان أول ما شغل بال السلطان المغربى هو تحصین شواطئ البلاد وتسلیح بحرىته باسطول قوى. وهو ما جهد فى تحقىقه بدون هواده ولا كلل، الشىء الذى مكنه من تحریر التجارة من منافسات الدول الأوربىة وإعطاء الدور الأكبر للموانئ المغربىة خاصة الجدیة والصویرة وأسفى، وفى ذات الوقت عمل السلطان محمد بن عبد الله على جعل حد للرقیق الناجم عن عملیات القرصنة بین المغاربة والاوربیین.⁽²⁾

ولم یکن الشأن فى توفر المملکة المغربىة على أسطول قوى هو المواجهه القتالیة للقوات البحرىة لإنجلترا وفرنسا وإسبانیا، بل الهدف كان هو توفير وسائل تمتمین العلاقات السیاسیة مع دول أوربا والتمکن من تنمية المبادلات التجاریة على الخصوص، لأن السلطان المغربى أدرك تفوق أوربا على بلاده على المستویین البحرى والتجاری.

وعلى هذا الأساس انطلقت الدیپلوماسیة المغربىة فى إبرام المعاهدات السیاسیة والتجاریة مع ألمانيا والنمسا وإسبانیا وفرنسا والدنمارك والسوید وهولندا وإطالیة (مملکة نابولی) بل وحتى مع الولاىات المتحدة رغم بعدها⁽³⁾ وكان من البدیهى أن

-
- (1) یذكر عبد القادر تیمول فى كتابه *Le Maroc à travers les chroniques maritimes* ص 245- ان اليهودى بوزاکلو الباز، یحكى أن سیدی محمد بن عبد الله كان ىستحضره فى كل مساء لیصت إلى حدیثه حول بلاطات اوربا واسالیبها فى الحكم والسیاسة والحرب والتجارة.
- (2) إلى جانب تقویة الأسطول وتحریر التجارة الخارجیة لم یحد محمد الثالث عن متابعه أعمال الجهاد لتحریر الثغور الشاطئیة المحتلة من لدن إسبانیة والبرتغال خاصة تحریر ثغر الجدیة من الاحتلال البرتغالی فى شهر مارس 1769 حیث شكل هذا التحریر انتصارا عظیما ضد البرتغالیین.
- (3) لقد اشتهر سیدی محمد بن عبد الله بحسن علاقته مع الدول الغربىة على العموم بما فیها الولاىات المتحدة التى كانت تربطه برئیسها الأول جورج واشنطن صدافة خاصة ولهذا كان المغرب من بین الدول الأولى التى اعترفت باستقلال الولاىات المتحدة، و یذكر جان کایى فى كتابه (التاریخ الصغیر لدولة المغرب) أن أول معاهدة بین الدولتین وقعت یوم 19 یونیه 1786 أحرز الأمريکیون بمقتضاها على نفس الامتیازات المخولة لإنجلترا وفرنسا، وبإضافة إلى ذلك تمتعت البحرىة الأمريکیة بحظوة خاصة حیث أعطیت التعلیمات للبحارة المغاربة بمد ید المساعدة للأسطول =

تتاح للسفراء والموفدين المغاربة مشاهدة احوال البلاد الاوربية وما أصبحت تتوفر عليه من منشآت عمرانية ومصالح عمومية وتجهيزات اقتصادية . مما كانوا يحكونه أو يدونونه بمذكراتهم .

وبفضل علاقات الصداقة التي عمل السلطان محمد بن عبد الله على إقرارها مع عدد كبير من دول اوربا، أصبحت أبواب اوربا مفتوحة أمام التجار المغاربة، وفي هذا الصدد توجهت ما بين 1763 و1782 عدة وفود تجارية إلى أوربا، خاصة مدينة مرسيليا والدنمارك وفينيسيا بإيطاليا، واستقرت هناك لمدة من أجل تنشيط المبادلات التجارية بين تلك الدول والمملكة المغربية، إلا أن نوعا من اللامبالاة كان يصرف هؤلاء الموفدين عن التطلع إلى معرفة ما يجري في تلك الأقطار من تحولات اقتصادية وعمرانية، وقليل منهم من استشرف حقيقة الآخر الأوربي بهدف الدعوة عند العودة إلى الوطن، إلى الأخذ بما يليق منها لتحديث الطرازات التي تعيش عليها البلاد .

وتطلعنا المصادر القليلة، خاصة ما جاء في كتاب الاستقصا للناصرى من التنف والإشارات، عن بعض ما تحقق مبكرا من محاولات التحديث على يد السلطان محمد الثالث . فقد سبق لهذا الملك أن أرسل منذ سنة 1766 بعثة استطلاعية، برئاسة سفيره أحمد الغزال الى مدريد أمرا إياها أن تدرس بعناية جميع التنظيمات السياسية والصناعية والاجتماعية في بلاد إسبانيا، ولكن ليس بوفرننا أي مرجع للتأكد من كون هذه البعثة قامت بماموريتها، وذلك لعدم ظهور أية نتيجة عملية في المجتمع المغربي آنذاك تكشف عن تحصيلات علمية لأفراد البعثة، اللهم ما تحقق من رفع الأسر عن بعض أسارى القرصنة البحرية .

وإذا كان من بين أهداف السلطان محمد بن عبد الله في التقرب من أوربا وعقد المعاهدات السياسية والتجارية معها هو الحصول على السلاح من اجل الدفاع عن شواطئ البلاد وحدودها الطبيعية، فالسعي كان أيضا تتبع خطوات العالم الغربي لإدراك عوامل صعود قوته القتالية والعلمية لانتقاء شروبه وصد هجماته وسعيا أيضا في

= الأمريكي الفتى في حالة تعرضه لهجمات قراصنة البحرية الجزائرية والتونسية والليبية وذلك تحت طائلة تدخل دبلوماسي يجريه المغرب مع هؤلاء الدول . وبصورة عامة يمكن التأكيد بأن سيدي محمد بن عبد الله كان يولي الاهتمام الى حسن معاملة الاسرى المسيحيين الذين كان يلقي بهم القدر بأحضان المملكة المغربية مما كان يجلب له كل إجلال واعتبار لدى الأمم الغربية (الترجمة عن الفرنسية للمؤلف).

جلب المنفعة وأسباب التقدم لدار الإسلام . ففي الوقت الذى كان السلطان المغربى يسعى إلى إقرار مهادنة مع العالم المسيحى، كان يتوخى من بيع المنتجات المغربىة (القمح والصوف والجلد والشمع) لمصانع أوروبا جنى الأموال التى تمكنه من شراء السلاح الخفيف والمدافع لفك الحصار المضروب على مدينتى سبتة ومليلية من لدن الاسبان، ولذلك كان أقصى ما تم إدخاله من تحديث على الطرازات المغربىة آنذاك هو إنشاء مصنع للسلاح من طرف تاجر فينيسى، وورش لإصلاح السفن من قبل اسبانيا في مقابل منحها امتياز لتصدير القموح .

«ورغبة في إنشاء مصانع السفن، طلب السلطان محمد بن عبد الله من التجار الأجانب المقيمين بالمغرب آنذاك أن يجلبوا له المواد اللازمة لبناء المراكب والسفن على اختلاف أنواعها، وبذلك تمكن من تجديد الأسطول المغربى وإعطائه مكانة ممتازة بين الأساطيل العالمية . وكان الأتراك العثمانيون ممن تنافسوا في مساعدة السلطان على ذلك، فاجتمع بهم بمكناس واتفق معهم على المقام في المغرب، ثم أرسل المعلمين منهم في صناعة المراكب والشؤون البحرية إلى الموانئ المغربىة للعمل بها، و بعث المعلمين في الاعتدة الحربية إلى فاس، وقد اشتغل كل بمهمته المنوطة به عملا وتعلما، واستفاد منهم كثير من المغاربة ما لم يكن عندهم من هذه الصنائع .»⁽⁴⁾

ويمكن القول بأن عهد السلطان محمد بن عبد الله لم يعرف في مجال التحديث أكثر من انقلاب في معايير تحصين الموانئ المغربىة وتطوير تجهيزاتها وإنشاء موانئ جديدة كميناء الصويرة مثلا، فالسلطان كان يريد من جهة توجيه التجارة المغربىة الى الشواطئ، ومن جهة أخرى، الانتقال بالبحرية المغربىة من حالة القرصنة إلى وضع يشد أوروبا في نطاق تعاقدى يعطيه مجالا ووقتا لإنشاء أسطول حربى على النمط الغربى .

2- فترة انغلاق وانزواء

بعد موت السلطان محمد بن عبد الله سنة 1790، تفاقمت تحرشات إسبانيا ضد شمال المغرب كوقاية لكل تطلع إلى تحرير مدينة سبتة، مما جعل الأمير اليزيد يعطل جميع إنجازات والده ليخوض مغامرات لم تكن المملكة مهيئة لخوضها:

(4) الهاشمى الفيلاي (دروس في تاريخ المغرب ص 213).

منها اقدمه على اشهار حرب على اسبانيا لاسترجاع مدينة سبتة، الشيء الذي أعطى ذريعة لاسبانيا للتدخل في الخلافات القبلية القائمة بين أنصار الأمير اليزيد وأنصار أخيه هشام، وبالتالي إغراق المغرب في فوضى ناجمة عن مسألة الخلافة على العرش، فوضى أذكأها زعماء القبائل ورؤساء الزوايا من جهة، وعسكر البواخر من جهة أخرى، بحيث أصبحت البلاد على جانب من الضعف لم يترك للسلطان مولاي سليمان الذي انتهى إليه امر الخلافة (1792-1822)، سبيلا لمتابعة سياسة المعاهدات التجارية الخارجية التي دشنها والده السلطان محمد بن عبد الله، تلك السياسية التي كان من شأنها لو استمرت وتعززت بالاستقرار الداخلي وبتقوية اقتصاد الدولة وآلياتها العسكرية برا وبحرا، أن توفر الفرص للمغاربة للاطلاع الكافي على أحداث التطور الحضري في الخارج ومحاولة فهمها والاستفادة منها لتحقيق الإصلاح المنشود في الداخل. فحالة الفوضى لم تكن في الحقيقة ترضي زعماء القبائل الثائرة مثل آيت أومالو، وزايان، ورؤساء الزوايا المعارضة مثل الزاوية الشراعية، بسبب الحنين إلى الجهاد عن طريق القرصنة البحرية، وأيضا بسبب أطماع فئة التجار في التعامل مباشرة خارج التقنيات المخزنية مع المتاجرين الأوربيين في الموارد المغربية.

ويمكن القول بأن ما عاناه السلطان الصالح مولاي سليمان من تمرد بعض القبائل وتنقطعها قد تجاوز الحدود. فرغم الجهود العظيمة التي كان يبذلها لترضية القبائل وتوحيدها حول عرشه، فإن استقرار الوضع ظل يخضع للمد والجزر بسبب الاحتداد التاريخي العرقي بين القبائل القوية في البلاد من جهة، وبين المواقف التي كان يتخذها السلطان لاختام الفتن أو للتهدة السلمية من جهة أخرى.

فعندما كان السلطان يستميل هاته المجموعة أو تلك من القبائل كانت المجموعات الأخرى تعلن عصيانها (المسلح في بعض الأحيان مثل قبائل زايان)، مستنجدة أقطاب الزوايا لمحاولة خلع السلطان. وما حركة العصيان التي قام بها في شمال المغرب مولاي ابراهيم ضد أخيه مولاي سليمان بمؤازرة زاوية وزان والشرفاء العلميين، إلا مثال ساطع على الاضطرابات التي عمت البلاد خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر.

ففي هذه الفترة برزت الصوفية من جديد بطرائقها وزواياها وبمظهرها «الثوري» المتحدي للسلطة المركزية، متجاوزة نطاق المعارضة للخوض مباشرة في مسؤوليات

الحكم، تستصدر من العلماء الفتاوى الفقهية لجمع شمل القبائل وتنظيم جيش «ثورى» لمطاردة المسيحية الجاتمة في عدة موانئ مغربية، متحدية بذلك «المحلات السلطانية» (الجيش)، لدرجة أن الزاوية الشراذية جرؤت في صيف 1822، قبيل وفاة مولاي سليمان، على مواجهة مسلحة ضد جيوش السلطان وكبدتها هزيمة نكراء بضواحي مراكش.

ويمكن القول بأن هذه الفترة عرفت تشتت الأسطول المغربى والعدول عن الجهاد بحرا، وكان في هذا تقويض لشوكة المغرب الدفاعية على الصعيد الرسمى، الشيء الذى أضعف من قوة السلطة المركزية وسجع رؤساء قبائل عبدة ودكالة على الاتجار مع أوروبا لمصلحتهم الخاصة وعلى حساب بيت المال باستحواذهم على ربح الحقوق الجمركية الناتجة عن عمليات التصدير. وكان المستفيد من ذلك سياسيا هما فرنسا وإسبانيا حيث تمكنتا من توريد القمح بموجب رسوم جمركية نجد زهيدة. وفي ذلك تحدى سافر للسلطة المركزية.

يذكر الأستاذ الهاشمى الفيلالى في مؤلفه عن تاريخ المغرب أن المولى سليمان شاهد تطور أوروبا العلمى والصناعى، وتقدم قواتها البرية والبحرية، ورأى بوادر تطلعها للسيطرة والاستيلاء التى ظهرت طلائعها باستيلاء نابليون على مصر، وبدلا من أن يسعى إلى تطوير البلاد جريا على ما يقتضيه تطور العالم والاستفادة من الخارج ثقافيا واقتصاديا مع الاحتراس والحذر مما كان يخشاه من الوقوع في شرك أوروبا، فقد سلك طريقا سلبيا سلميا رغبة منه في النجاة، فمنع التجار المغاربة من الاتجار بأوروبا إلا برخص خصوصية، وألزم الأوربيين الذين كانوا يتمتعون بحرية العمل والجولان داخل البلاد بالإقامة في الموانئ فقط، وجعل طنجة وحدها مقر القناصل. (*) ولم

(*) يقول الدكتور التمساني (مجلة دار النيابة - العدد الأول - يناير 1984) انه في اطار الحد من التسرب الأوربي إلى المغرب، انشأ المخزن في القرن الماضي (19) ما يسمى بدار النيابة بطنجة لتكون واسطة بينه وبين ممثلي الدول الاجنبية. وهذا الحد من التسرب يهدف إلى حصر مقر النواب الأجانب في نقطة ساحلية بعيدة عن العاصمتين فاس ومراكش، وتأخير وصول رسائلهم لربح الوقت. غير أن هذا الاجراء جاء بنتيجة معاكسة، ذلك ان الهيئة الدبلوماسية التي تحولت إلى سلطة مستبدة منذ هزيمتي ايسلي وتطوان، اصبحت قادرة على فرض ارادتها على النائب السلطاني بالمدينة، وبالتالي انتزاع الإمتيازات المختلفة منه، دون اشعار المخزن، وثمة نتيجة خطيرة اخرى وهي خلق مواقع ارتكاز لتدويل القضية المغربية.

يقف المولى سليمان عند هذا الحد السلبي، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك، فأوقف في سنة 1233 (1818) عمل الأسطول المغربي في البحر تجنباً لحدوث مشاكل دولية. . كل ذلك عله يحتفظ للمغرب باستقلاله.⁽⁵⁾

ومن المحقق أن همة المولى سليمان كانت منصرفة إلى الإصلاح الديني اعتقاداً خالصاً منه بإصلاح أحوال الدين تصلح أحوال الدنيا ولذا كانت علاقته بالمصلح عبد الله الوهابي تأخذ منه الحيز الأوفر، فلقد تبودلت بينهما مراسلة في شأن الدعوة الدينية الإصلاحية التي نهض بها الشيخ عبد الله الوهابي في الحجاز. وكان المولى سليمان متحدداً معه في كثير من وجهة نظره الإصلاحية كما هو معروف عنه في خطبه ورسائله المتعددة ومشاريعه الإصلاحية التي منها منعه لبدعة المواسيم المغربية.

ورغم أن المولى عبد الرحمان أمر بإعادة نشاط الأسطول المغربي وبترميم قطعه التي أفسدها التعطيل، وجمع مفترقه، وإنشاء قطع جديدة لتقويته. . . إلا أن أساطيل أوربا بطبيعة التطور والتفوق أصبحت تسيطر على البحار وتفرض قوانينها ونظمها الدولية على غيرها، مما جعل الأسطول المغربي لا يستطيع مسايرتها، وفي الوقت نفسه يظل معرضاً للاشتباكات التي تحدث مع أساطيل أوربا المتحفزة للسيطرة والاستيلاء.

ذلك أن فترة المهادنة البحرية التي عرفتها أساطيل أوربا في تعاملها مع الأسطول المغربي بحكم المعاهدات التجارية التي أبرمت مع أوربا على عهد السلطان محمد بن عبد الله، لم تدم طويلاً بسبب الحنين الأوربي إلى أعمال القرصنة المربحة للصناعات الغربية، وهو ما جعل أوربا تقف في وجه المغرب لتحويل دون تواجد أي أسطول مغربي عصري قادر على مواجهة الأساطيل الغربية القوية وصد هجماتها القرصنية التي كانت تتضمن لمصانع أوربا تزويدها بما تحتاج إليه من موارد مغربية إن لم يتعد الأمر إلى غارات في عمق البلاد.

(5) ظهرت أخيراً أطروحة قدمها الباحث عبد الحفيظ حمان حول موضوع «المغرب والثورة الفرنسية» عالج فيها علاقات أوربا بالسلطان مولاي سليمان الذي تزامن عهده مع الثورة الفرنسية، وقد دحض أطروحة «سياسة العزلة» التي استعملتها كثير من البحوث التاريخية في وصف فترة السلطان سليمان قائلاً إن مجموعة من المستندات والوثائق التاريخية مكنته من الخروج باستنتاج مفاده أن هذا السلطان يمكن اعتباره من مؤسسي السياسة المتوسطة المغربية. وأن المغرب لم يكن في تلك الفترة منعزلاً عن الأحداث الأوربية أو جاهلاً لها. (العلم الثقافي - 7 أبريل 2001).

وبدبىهى أن حركة الانفتاح على العالم الخارجى المتقدم التى دشنها السلطان سىدى محمد بن عبد الله، لم تعد تلقى اذنا صاغية أو محيطا مواتيا فى ظل الاضطرابات التى كانت تسود البلاد التى يطبعها طابع الانفصام بين سلطة ضعيفة وشرائع مجتمعية متفككة. وفى غياب أى تماسك أو تلاحم بين اجسام الدولة المغربىة لم يكن من المفكر فى تزويد البلاد بالمؤسسات الإصلاحىة التى ظلت فى حاجة إليها. وكل يوم يمر كان المغرب يتخلف فىه عن الركب الحضارى المتواصل فى أوربا.

هكذا إذن ظل المغرب يعيش لأجيال تحت تأثير محاولات الغارات الأوربىة وردود الفعل لصد الهجمات دفاعا عن أرض الإسلام وعن شواطئ البلاد وحدودها الطبىعية وسيظل هذا هو هاجس دولة المخزن ما ظلت الثغور المغربىة مستهدفة للغارات الأوربىة خاصة فرنسا وإسبانيا والبرتغال. فإذا كان هذا التهديد المستمر لم يفقد الملوك العلويين حصافتهم السىاسىة ولم ينل من الروح الدفاعىة المغربىة فإنه أصرف المغرب كدولة عن القيام بالعمل الميدانى لتطوير البلاد والدفع بها للالتحاق بالركب الحضارى العصرى.

وهذه الحقىقة ستلازما فى تتبعنا للأحداث التاريخىة اللاحقة وفى تعقبنا للفرص التى حاول السلطان الحسن الأول وخلفاه عبد العزيز وعبد الحفيظ، استغلالها من اجل تحقيق الإصلاح المنشود، لكن كل المحاولات باءت بالفشل بسبب إصرار المستعمر على بلوغ الهدف مهما كلفه الامر من ثمن، من جهة، ثم من جهة أخرى بفاعل تعنت أصحاب «الحل والعقد» فى البلاد وعدم استعداد الراى العام فى شموله - لم يحن بعد عهد نخبة لسان العرب - لاحتضان أى مشروع إصلاحى.

3- العبرة من الهزيمة ضالة الحسن الأول

لقد تميز عهد السلطانين عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) ومحمد بن عبد الرحمان (1859-1873) بأحداث ومشاكل جديدة نجمت عن علاقات المغرب ببعض دول أوربا، وحل فيها الصدام المباشرة والمواجهة العسكرىة محل التهادن والتفاوض، وأصبح المغرب يسير من خلالها نحو أزمة ستؤثر على مكانة الدولة فى الداخل وسمعتها فى الخارج.

ذلك أنه خلال منتصف القرن التاسع عشر، عندما تفاقمت الأطماع الاستعمارية في احتلال الأراضي الإفريقية وسادت أقطار المغرب العربي أعمال التدخلات الأجنبية خاصة احتلال القطر الجزائري، كان من أوجب الواجبات على الجار المغربي أن يساند مقاومة الشعب الشقيق في شخص الأمير عبد القادر، مما أدى إلى هزيمة الجيش المغربي في معركة إيسلي سنة 1844، وهي هزيمة لم يسبق لها مثل في تاريخ المغرب.

ومن جهة أخرى كانت مطامع إسبانيا في توسيع ضاحية سبتة وتحركاتها لبناء تحصينات جديدة على أرض قبيلة انجرة، مثارا لهذه القبيلة في تحطيم أحد المعازل وتلوين الراية الإسبانية، فكانت العاقبة أن اشتعلت حرب بين الجانبين انهزم فيها الجيش المغربي مرة أخرى سنة 1860 وأدى الأمر إلى احتلال مدينة تطوان، وفرض شروط قاسية على الدولة المغربية لإخلاء المدينة كما هو معلوم.

لقد كانت معركة إيسلي بحق امتحانا عظيما للجيش المغربي، فقد كان يبدو هذا الجيش في قلة نظامه وبلى عتاده صورة عن تخلف البلاد وتأخرها في العلوم والتقنيات الحديثة. فلم تكن إلا بضع ساعات من يوم 13 غشت 1844 تجابه فيها اربعون الف مقاتل مغربي ضد أحد عشر ألفا من العسكر الفرنسي المجهزين تجهيزا فتاكا حتى انهزم فيها الجيش المغربي «فكانت النتيجة بالطبع انتصار التطور على الجمود، والحديث على القديم، والعلم على الجهل»⁽⁶⁾

وإذا كانت معركة إيسلي رغم نتائجها المؤلمة، دليلا آخر على الشهامة المغربية وعلى الروح الإسلامية التي ما فتئت تحرك القومية المغربية دولة وشعبا في حفاضها على حصانة الأراضي المغاربية ووحدها كإطار لمغرب كبير، فإن الهزيمة التي مني بها الجيش المغربي أعطت للدولة المغربية (الهشة) درسا قاسيا بإشعارها أن عليها أن تتجنب استقبالا كل مواجهة مسلحة مع الدول الأوروبية، وأن الإمبراطورية الشريفة تسير نحو أزمة محتومة تبلورها إخفاق الدولة على الصعيد الخارجي وإفلاسها على الصعيد الداخلي. وبانتكاسة إيسلي تؤكد لدى الأوربيين انتهاء عهد العزلة المغربية ودخول المغرب في عالم المنافسات المتوسطة وافتتاح أبوابه على اقتبال شتى أشكال

(6) الهاشمي الفلالي - م.س. - ص 235.

التوغلات الاستعمارية: حرية الاتجار من واردات ومصدرات، حرية المضاربات العقارية، حرية التجول داخل مناطق المملكة.

وفي نفس السياق يمكن التأكيد أن هزيمة تطوان التي جاءت بعد هزيمة إيسلي (1860) أحدثت هي الأخرى هزة في كيان الأيالة الشريفة وكشفت عن ضعفها على المستويين السياسي والاقتصادي إذ بسبب ما نالته منها عوامل الحرب لم تعد تقوى عن انتشار نفسها من الأزمة المالية الخطيرة التي استغرقت جميع مظاهر حياتها وذلك بسبب التعويض الحربى المرهق (مائة مليون فرنكا ذهبيا بإضافة الفوائد) الذي فرضته إسبانيا في مقابل السلام مما كاد يؤدي بالخزينة المغربية إلى الإفلاس لولا الالتجاء لبعض القروض على الأمد البعيد خاصة القرض الإنجليزى الذي ساعد على حل الأزمة شيئا ما.

ومهما يكن من أمر فإن الهزيمتين كان لهما انعكاس على الروح القومية والدينية والوطنية في قاضبة المغاربة، انعكاس تمثل في استفاقة ثلة من العلماء الذين قاموا يؤلفون ويخطبون بحضرة السلطان وكان المجال الذي أخذ باهتمام الدولة والنخبة معا هو مجال إنشاء جيش نظامى بجميع ما يتطلبه من اطارات وتجهيزات وأسلحة متطورة، وكان من بين المهتمين والمنظرين في الميدان العسكرى جملة مؤلفين وعلماء حملتهم الحمية الدينية على بث افكار يقضة في مؤلفاتهم، أمثال الكردودى في كتابه «كشف الغمة» وأبو الحسن التسولى في مؤلفه «البيسط» والمهدي بنسودة ضمن «فتاويه» حول مشروعية تطوير الجيش والسلاح التي قدمها هؤلاء للسلطان محمد بن عبد الرحمان بطلب من هذا الأخير عقب هزيمة إيسلي، وكلهم الحوا على اعادة النظر في نظام الجيش المغربى لتقويته وتزويده بالتقنيات القتالية والآليات الخفيفة لنقل السلاح والجرحى.

على أن الانشغال بتقوية الجيش لم يعق محمد الرابع (محمد بن عبد الرحمان) عن توجيه العناية للإصلاح الاقتصادى والعمرانى: «من ذلك اهتمامه بالرى اهتماما كبيرا حيث أجرى كثيرا من الأنهار بإحياء عيونها لتمد الفلاحين بالماء، وتلك خطة فى الإصلاح الزراعى فى العرف الحديث، ومن أهم إنجازاته الاقتصادية معمل السكر ومعمل التزديج بالبارود، وكذلك مشاريعه العمرانية المتمثلة فى تحصين الثغور وبناء وتجديد عدة مساجد عظمى. وبذلك ازدهرت الحياة العامة وتحسنت الحالة الاقتصادية

وظهر تأثر الناس بالحضارة الغربية . . وكثر عدد الأجانب بالمغرب»⁽⁷⁾

لكن على الصعيد الخارجي والداخلي كان من النتائج المباشرة لهزيمتي إسلي وتطوان أن فقد المغرب مركزه الدولي وانتهى الاعتقاد بمناعة الجانب المغربي، وأصبح من المؤكد لدى الرأي العام في الداخل والخارج هشاشة جيشه وترسانته الحربية، وهو ما أدى إلى اضطرابات داخلية وإلى فتح السوق المغربية على مصراعيها للتجارة الأجنبية نالت منها انجلترا عن طريق الضغط والتهديد بشن هجوم على الموانئ المغربية، حظ الأسد وذلك بمقتضى معاهدة دجمبر 1856 التي حددت في عشرة بالمائة حقوق الجمر ك على المنتوجات المستوردة، وهو ما فسح المجال لكل من اسبانيا وفرنسا للحصول على نفس الامتياز.

وهذه الحقائق كان السلطان مولاي الحسن الأول الذي اعتلى العرش في العام 1873، يدركها حق الإدراك ومن أجلها انتهج سياسة مرنة تجنبت المجابهة كلما أمكن ذلك: فعلى الصعيد الداخلي لم يكن يجند جيشاً أو يحتشد (حركة) إلا عند الضرورة القصوى، فكان يمضي أكثر أوقاته في التجول عبر المملكة، ينزل بجيشه بين القبائل الهائجة ويستعمل أساليب الوقاية أكثر مما كان يلجأ للمجابهة المسلحة، فكان عرشه على جواده كما يقال، وكان في ذات الوقت ينجح في الحصول على الموارد المالية برسم انواع الضرائب المفروضة على القبائل، وذلك بفضل سياسة داخلية مرنة وحكيمة كانت تركز تارة على المهادنة والمثابرة على وسائل النصح والوقاية، وتارة على التهديد وإشهار مظاهر القوة العسكرية التي لا يأمر باحتشادها إلا عند ظهور ما يراه مخلاً بالطاعة والانضباط.

مثل هذه السياسة في مهارتها ولياقتها والمثابرة على انقاد ما يمكن انقاده، كان الحسن الأول يأخذ بها على الصعيد الخارجي: فقد عرفت الدبلوماسية المغربية على عهده بحصافتها ازاء تضارب مصالح الدول الغربية في تشوفها إلى نيل حظوات متفاوتة لدى السلطان، لكن عندما تتكتل حول مطالبها لم يسع السلطان إلا الجلوس للتفاوض معها. وهذا ما حدث بالفعل بشأن مسألة حمايات والقضاء القنصلي. وحتى في أشد الأزمان لم يكن المولى الحسن ليثير عداء الدول العظمى ضده،

(7) الهاشمي الفلاحي - مرجع سابق.

ادراكا منه بسوء الأحوال الداخلىة، وهذا ما أجبره فى آخر المطاف على القبول بمعاهدة مدريد (يلبوز 1880) التى وسعت نطاق النظام الاحتمائى المخول سابقا لفرنسا وانجلترا واسبانيا، إلى كل من ألمانيا والنمسا وبلجيكا والدنمارك وإيطاليا وهولندا والسويد والنرويج والولايات المتحدة.

ويمكن القول أن المغرب دخل فى منعطف جديد ابتداء من الربع الأخير للقرن التاسع عشر، إذ أن اعتلاء الحسن الأول على عرش المملكة كان حافزا له على تحقيق اقتناعاته بضرورة إصلاح الأوضاع، فكان أول ما اتجهت إليه إرادته السياسية هو إحداث وزارة لمالية الدولة، كما انصرف اهتمامه إلى تجهيز جيش نظامى وتقوية آلياته وتطوير أطره. وفى هذا الصدد وجه الاهتمام لإعادة هيكلة مدرسة الهندسة العسكرية بفاس الجديد المحدثه عهد والده محمد الرابع، فكانت نخبة تلاميذها تسهم فى معظم البعثات العسكرية لبلدان أوروبا، وخاصة لإيطاليا إذ فى سنة 1896 تخرج من مدرسة تورينو (TORINO) مجموعة هائلة من الضباط التقنيين ممن تقلدوا مناصبهم بحصون الموانئ المغربية وبمصنع السلاح بباب المكينة بفاس الذى أحدثه الحسن الأول سنة 1880. كما أن المدارس الحربية الألمانية اقتبلت عددا من ضباط الجيش المغربى لتلقى التدريبات العسكرية. ومن هذه المدارس تخرج الوزير محمد الكباش الذى شغل منصب وزير الحرب وكان مفاوضا متمرسا فى الشؤون البحرية والحربية على عهد السلطان الحسن الأول.

ومن جهة أخرى اتجهت إرادة الحسن الأول إلى مواصلة العمل الجدى من أجل إعادة بناء الأسطول المغربى المتفكك الأوصال إذ وجود أسطول منظم وقوى من شأنه أن يعيد إلى الدولة مكانتها التجارية سواء بالنسبة لمعاملاتها مع دول أوروبا أو لتزويد المناطق النائية للمملكة بما تحتاج إليه من حبوب ولحوم. ولغاية تقوية هذا الأسطول انصرف اهتمام السلطان إلى فتح مفاوضات مع بعض دول أوروبا، خاصة إيطاليا بهدف تزويد المغرب بزوارق مسلحة بالمدفعية (CANONNIERES) ذات تقنية حديثة، وإنجلترا من أجل اقتناء حراقات (CORVETTES) تستخدم فى ذات الوقت كسفن مدرسية، وكذا جلب سفينة كبيرة مزدوجة الاستعمال فى الحرب والنقل أطلق عليها اسم «الحسن» وأخرين دونها حملتا اسم «التركي» و«البشير». ورغبة فى تكوين الأطر البحرية توجهت بعثة من البحارة الشباب لتلقى دروس التكوين فى المعاهد البحرية

الإنجليزية والإيطالية، ولدى تخرجهم اتخذت لهم بدلة بحرية خاصة على النمط العصري.⁽⁸⁾

ومن الأعمال النظامية الأخرى للمولى الحسن الأول تنظيم الجبايات لجعل سجلات لها والحرص على استخلاصها، ثم ضرب السكة الحسنية وإعادة النظر في تنظيم الجمارك وترتيب البريد، وإصلاح النظام الإداري والتعليم والقضاء، إلا أن كل هذه المحاولات الإصلاحية ظلت محدودة الأفق، لم تعط للمغرب ما كان يحتاج إليه من تغيير في الأوضاع وعصرنة في الهياكل.

وفي المجالات الأخرى لمحاولات الإصلاح، خاصة مجال التعليم والتكوين المهني والتقني، فإن الباحث يقف مكتوف الأيدي أمام قلة المصادر المطبوعة، وأهم ما نملكه في هذا الباب هو ما جاء في كتاب الاستقصا للناصرى من النفت والإشارات. فرغم ان عدة بعثات تعاقبت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على مصر ثم على بعض الدول الأوربية وقد بلغ عدد أعضائها ما يقرب من أربعمئة فلم يحتفظ لنا التاريخ إلا بالنزر الضئيل من المعلومات حول مصيرها ومدى تأثيرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد. أما الأشخاص الذين شاركوا فيها فإن المصادر القليلة التي بوفرننا لا تفيدنا إلا عن بعض الأسماء، منها أحمد شهبون كخرايطي، ومحمد بنكيران الذي تخرج في الرياضيات، وعبد السلام العلمي في الطب، وذلك أن أغلب المبعوثين كانوا يلجون المدارس العسكرية والمعاهد الحربية ولهذا فمعظم المتخرجين ممن تألفت منهم البعثات «المحمدية والحسنية» كانوا ممن احرزوا على كفاءات عسكرية قتالية وفي تقنيات أنواع الأسلحة.

ورغبة من الحسن الأول في عصرنة الهياكل الإدارية للمملكة «وجهت بين 1874 و1888 ثمان بعثات وزعت بين أهم الأقطار الأوربية، لكن بعض البعثات الأولى واجهت صعوبات كثيرة بسبب سوء اختيار أفرادها للتأقلم مع نمط الحياة الغربية لدرجة أن عددا منهم لم يحصل على نتيجة رغم قضاء اثنتي عشرة سنة، لذا صدر أمر السلطان بأن لا تتعدى إقامة المبعوثين سنتين أو ثلاث سنوات لتلقي تعليما تطبيقيا لا

(8) يذكر عبد القادر تيمول في كتابه (م س) ص 285 أن يموت السلطان الحسن الأول تفككت أوصال الأسطول المغربي من جديد بسبب الاضطرابات التي سادت البلاد، وخاصة نتيجة انهيار مالية الدولة، ولم يقدر للقطع البحرية المغربية أن تحتفظ بوجودها الرمزي لولا أن قيادتها أسندت لضباط بحرين أجانب من إنجليز ودمارك وألمان.

غير. وقد تم تقليد بعض المتخرجين لمناصب إدارية وتقنية خاصة بالمنشآت العسكرية، لكن أعضاء المخزن التقليديين لم يحيطوا هؤلاء الإداريين الجدد بأي ود أو تعاطف، بل لقد احتقروهم وكادوا يقاطعون كل تعامل معهم»⁽⁹⁾.

والجدير بالذكر أن البعثات السلطانية في عهد محمد الرابع والحسن الأول لم تكن فحسب إلى البلاد الغربية بل كانت أيضا إلى المشرق العربي، خاصة إلى مصر، وقد أعطت ثمرات أجود مما خلفته آثار البعثات إلى الغرب، وذلك بفعل اقبال النخب التعليمية المغربية على النشاطات الفكرية النهضة التي كانت تروج في المحافل العلمية والمجالات الأدبية، مما أمد الفكر النهضوي المغربي بعناصر تفاعلاته مع الشعور بالحاجة إلى الإصلاح والطموح إلى الإلتحاق بركب التقدم والعصرنة. ومن خلال هذا التوجه بالإصلاح نحو تجربة المشرق العربي يمكن وضع حادث ظهور المطبعة في سياقها التاريخي.

ويبقى من المؤسف له هذا التبرم الذي كان يبديه أهل الحل والعقد من التقنيات ومن المحصلين على الإجازات من معاهد أوربا لدرجة أنهم كانوا ينظرون إلى اجراء التلغراف والقطار بالمغرب - وكان هذا الاجراء من رغبات السلطان - نظرة استخفاف بكل تحديث يقترحه الطرف الأوربي لدرجة معاداة فكرة الإصلاح نفسها، وذلك بدعوى الحذر من إعطاء الفرصة للأجانب للإستحواذ على التجارة داخل البلاد لما قد يمكنهم ذلك من إشراف على تسيير المؤسسات المحدثه على يدهم. ولعمري أن تصورا كهذا الذي اعطى الفرصة للجانب الأوربي لاتهم نظام المخزن «بالرجعية المؤسسة على التعصب الديني» لهو تصور وتفكير طالما شجبتة النخبة المتنورة التي برزت في بداية القرن العشرين، واعتبرته في آخر خانات عوائل الإصلاح، وذلك باعتبار أن اقرار الإصلاح كان سيوهي تبريرات التواجد الأجنبي فوق أرضنا والقائمة على شعار «الرسالة التمدنية» لإدارة الحماية.

4 - ظهور المطبعة بالمغرب

رغم أن ظهور المطبعة بالمغرب جاء متأخرا فليس في استطاعة الباحث تحديد تاريخ وظروف هذا الحدث الذي ظل غير ملتفت إليه حتى من لدن المؤرخين

(9) عبد الله العروى (Le Memorial du Maroc) الترجمة عن الفرنسية للمؤلف.

المعاصرين له مثل اكنسوس والناصرى. فكل ما كانت تتناقله الرواية الشفهية في الموضوع هو وجود مطبعة حجرية بفاس وأن إدخالها للمغرب يرجع إلى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، مما يفيد لا أقل ولا أكثر أن المطبعة ظهرت لأول مرة بالمغرب عند اوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر (ما بين 1859 و1873).

إلا أن مجموعة البحوث التي أجريت في الموضوع على يد بعض المستشرقين، خاصة ج. ديلفان وج. سالمون، في العقد الأخير للقرن، أفادت أن المطبعة جلبت من مصر سنة 1864 بمبادرة من السلطان محمد الرابع وبواسطة أحد أعيان مدينة تارودانت محمد بن الطيب الروداني الذي تعاقد مع المصري محمد القباني على اجراء مطبعة بالمغرب وضبط تقنياتها، وهكذا وصلت المطبعة بجميع تجهيزاتها رفقة التقني المصري ووقع الشروع في استعمالها بمدينة الصويرة على ما يظهر.⁽¹⁰⁾

وقد استغلت المطبعة في البداية لفائدة الشؤون المخزنية قبل أن يتولاها بعض الخواص حيث أنشأت لهذه الغاية ثلاث محترفات، خاصة محترف الحاج الطيب الأزرق المؤسس بدرب الحمام بفاس، وكان ما أنجز طبعة تصانيف الخرشى وميارة والتاودي، ثم المرتضى على احياء علوم الدين للإمام الغزالي.

وفي كتاب «اتحاف اعلام الناس» اكد عبد الرحمان بن زيدان هذه المعلومات وأضاف بعض التدقيقات حيث أخبر بأن تأسيس أول مطبعة بالمغرب وقع سنة 1284هـ (1867) وأن الانتهاء من طبع الجزء السادس من تصنيف الخرشى كان يوم 8 حجة 1287 (فاتح مارس 1871)، وقد عزز هذه المعلومات جيرمان عياش في كتابه «دراسات في التاريخ المغربي» بفضل خبرته الواسعة في التعامل مع مثل هذه الأحداث التاريخية على ضوء الوثائق المخزنية، مشيرا إلى الوثوق بخلاصات عبد الرحمان بن زيدان في فروع الثقافة المغربية لما اشتهر به المؤلف المغربي من تمرس وحنكة في هذا المجال. كما أشار إلى أن الموضوع أخذ كذلك من اهتمام مؤرخ المملكة الحالي السيد عبد الوهاب بنمنصور الذي أتى بتحقيقات إضافية حول ظروف وتواريخ طبع المصنفات الأنفة الذكر، خاصة ما تعلق بطبع الشمانل المحمدية للترميذي بمطبعة مكناس سنة 1282 (1865)، مما يؤخذ منه أن المطبعة كان لها أيضا محترف بمدينة مكناس.

(10) جيرمان عياش - دراسات في التاريخ المغربي.

5- مشروع «الإصلاح» فى مواجهة المد الاستعمارى

بموت السلطان الحكيم مولاي الحسن وبروز الاضطرابات التى طبعت خلافته، انجلى حقيقة المشاكل التى كانت الايالة تتخبط فيها على أكثر من واجهة، وزادت المعارضة الذاتية ضد السماح بإدخال الإصلاحات من حدة تألب الأجنبى على المملكة وخاصة أطماع فرنسا واسبانيا فى احتلال أجزاء منها. وفى خضم هذا الوضع المتناقض سياسيا وماليا وعسكريا، ساد الاعتقاد بما أصبح الغربيون يسمونه «المسألة المغربية» (La question Marocaine) وقد اتخذت هذه المسألة أوجهها متناقضة ومتباينة بين كتل الدول الأوروبية بالنظر إلى درجة قوتها ونوعية تفاعلاتها تجاه المصالح الاستعمارية التى كانت تحركها، فكل كتلة استعمارية كانت تستعمل «المسألة المغربية» لابعاد الأخرى أو الحصول على مقايضة لفائدتها على المسرح الإفريقى.

لقد تمكن الحاجب الملكى أحمد بن موسى المدعو بأحمداد من فرض وصايته على العرش المغربى (1894-1899) بعد ان استطاع الحصول على بىعة الأمير عبد العزيز رغم صغر سنه (11 سنة) ومن اقضاء منافسيه من الشخصيات والوزراء على عهد السلطان الحسن الأول، وخاصة الصدر الأعظم الحاج المعطى الجامعى وأخوه محمد وزير الحربى، فشكل حكومة تعمل لتحقيق الأهداف التى رسمها لسياسته وهى الاحتفاظ باستقلال المغرب، وكان لا هم له سوى الحفاظ على «واجهة» من السلطة والمهابة لقطع الطريق عن كل من يحاول إثارة الفتنة فى الداخل، كما حاول كل ما أمكنه ابعاد الزحف الاستعمارى عن البلاد بالمحافظة على الآليات الدبلوماسية الموروثة عن المولى الحسن الأول إلى أن تسلم المولى عبد العزيز مقاليد الأمور «ففتح الباب على مصراعيه لكل من كانت موصدة فى وجهه من المشكوك فى اخلاصهم وكفائتهم ونزاهتهم... ونتج عن ذلك أن انتشرت الفوضى فى أصقاع البلاد وأصبح السلطان واقفا موقف العجز، لا ناصح أمين يستنصحه⁽¹¹⁾ ولا شعب

(11) الهاشمى الفيلايلى. م. س. ص 255-256 - عن مسألة إسداء النصح للسلطان ينبغى أن لا يغيب عن الأذهان ما أسداه الفقيه الحجوى من نصح شامل أمين للسلطان عبد العزيز ضمن مذكرته المشهورة «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره» - مخطوط فى الخزنة العامة بالرباط - رقم ج/ 123- وكذا ما جاء فى ملحقات المذكرة ونعنى الكتابين المفتوحين للسلطان عبد الحفيظ الحاملين لتحليل سياسى وادارى واجتماعى لأحوال البلاد المشرفة على السقوط فى قبضة الاستعمار، وقد تضمن الكتابان عدة اقتراحات اصلاحية شملت الميادين الحساسة - المؤلف).

يطمئن إليه فيساعده بالامتثال ويعينه بالنصيحة... فوجد الدخلاء وصنائعهم الميدان واسعا أمامهم لمكائدهم ودسائسهم على اختلاف أنواعها، وتجاوز ذلك إلى إيقاد نار الفتن على الدولة ليبدروا ثروتها ويقضوا على رجالها ويشغلوها بنفسها، وكان في طليعة هؤلاء الفتانين: الجيلالي بوحمارة... فقد كلفت ثورته الدولة نفقات أفقرتها من الرجال والمال حتى أرغم المولى عبد العزيز على أن يقترض من الحكومة الفرنسية 62 مليوناً من الفرنك».

على أن هذا الوضع ساهم في إعطاء نفس متجدد للتفكير في إدخال إصلاحات على هياكل المملكة وقد تجلت هذه الرغبة في الإصلاح في مطلع عدة شخصيات جديدة للتقرب من السلطان الشاب لمساعدته ونيل ثقته، خاصة منهم المهدي المنبهي وابن سليمان والفقير محمد الحجوي. فقد تولى المنبهي بالتعاقب وزارة المال ووزارة الحرب ووزارة البحر، وهذه الوزارة الأخيرة سرعان ما اتخذت اسم وزارة الخارجية وتولاها الفقير ابن سليمان، وفيما كان المنبهي وابن سليمان يركزان على إجراء الإصلاحات بمعونة الدول الأوربية العظمى، كان الفقير الحجوي، انطلاقاً من مركزه بمدينة وجدة كعلاف للجيش بالحدود المغربية الجزائرية (أي مسؤول عن تمويل الجيش وضبط الأمن العسكري) يجهر بمظاهر الفساد الإداري والأمني وينادي بضرورة الإصلاح ويناشد المولى عبد العزيز ثم خلفه المولى عبد الحفيظ بالقبض على زمام الأمور بيد لا تترك مجالاً للتلاعب بشؤون الدولة.⁽¹²⁾

ولا شك أنه كان لرجالات الدولة المتطلعين إلى الإصلاح برامج وتصميمات كانوا يقدمونها للسلطان، لكنه وحسب ما يتجلى من أرشيف تلك الفترة فإن نوعاً من التسابق كان يحد وكلا من فرنسا (ورقة المنبهي) وألمانيا (ورقة ابن سليمان) للفوز بقبول السلطان لللائحة الإصلاحات المقترحة ادخالها على هياكل الدولة المغربية، لكن مهما كان الأمر ففرنسا هي التي كانت سباقة إلى توجيه بعثة لها في مايو 1904 لعاصمة فاس بهدف التفاوض بشأن شروط القرض الذي تعاقدت بشأنه الخزينة المغربية، وتلى ذلك بعثة أخرى في مطلع 1905 قادها ممثل فرنسا «سان روني طايلاندي» بهدف تقديم برنامج واسع للإصلاحات وعرضه على أنظار السلطان عبد العزيز، وقد أثار

(12) سنفرد حيزاً خاصاً لمذكرات الفقير الحجوي للسلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ بشأن الإصلاحات.

هذه المبادرات الفرنسية حفيظة ألمانيا مما أدى إلى نزول الامبراطور غليوم الثانى بمدينة طنجة يوم 31 مارس 1905 وإلقاء خطابه التاريخى المناوئ للسياسة الفرنسية بالمغرب أملا فى نيل نصيب من الأراضى المغربية لا دفاعا حقا عن المغرب. ومع ذلك فقد كانت لكلمات العاهل الألمانى المشيدة بسيادة السلطان وحرية المغرب فى تدبير شؤون تجارته مع دول اوربا على قدم المساواة وقع على سيرورة المنحى السياسى لمسألة الإصلاحات، إذ أن السلطان لم يلبث أن رفض البرنامج الفرنسى للإصلاح، واقترح بايعاز من ألمانيا عقد مؤتمر دولى للتداول بشأن خطة الإصلاح.

ومن دون أن ندخل فى تفاصيل الجوانب التاريخية لمؤامرات الدول الاستعمارية ضد استقلال المغرب، يمكن أن نلخص الامر فى أن انجلترا، لما لها من حضور متوسطى بحكم موقع جبل طارق، لم تكن لتسمح لعدوتها الرئيسية ألمانيا بالتمركز بالشواطئ المغربية. ومن جهة أخرى فإنه اثر المصالحة الفرنسية الانجليزية بدأ التقارب بين الدولتين لمجابهة التوسع الألمانى، وذلك بالتوقيع على اتفاقية 1904 التى تطلق اليد للانجليز فى مصر مقابل السماح لفرنسا واسبانيا لتحديد فيما بينهما منطقة نفوذهما فى المغرب. ولم تجد ألمانيا من وسيلة لانتقامها من التحالف الثلاثى ضدها، إلا التظاهر بأخذ المبادرة فى الدفاع عن استقلال المغرب وسيادة سلطانه، وذلك بالقول بأن المغرب لا بد أن يظل الباب المفتوح للجميع من دون تمييز، وأن الإصلاحات المزمع ادخالها على الايالة الشريفة ينبغى أن تتم نتيجة مؤتمر يعقد بطنجة بقرار من المغرب، وتشارك فيه جميع الدول التى تربطها علاقة تجارية ودبلوماسية بالمغرب. وفى رأى المؤرخين أن ما كان يحدو العاهل الألمانى هو الأمل فى نيل نصيب من الأراضى المغربية لا الدفاع الحق عن المغرب.

وفى الوقت الذى كانت فيه الدول المعنية تتشاور بشأن الاقتراح الألمانى، كانت فرنسا تضاعف من غاراتها على الحدود الجزائرية المغربية كوسيلة ضغط على السلطان لحمله على القبول بالمخطط الإصلاحى الفرنسى على انفراد، لكن مجلس الأعيان المجتمع بفاس بأمر من مولاي عبد العزيز أصر على أن الإصلاحات ستكون شأن الدول الأثني عشرة الموقعة على معاهدة مدريد لسنة 1880. (13)

(13) يقول عبد الهادى بوطالب فى كتابه «النظم السياسية العالمية المعاصرة» ص 154: «ففى الفترة الأخيرة من عهد السلطان عبد العزيز الذى اعتلى العرش سنة 1894 استجاب بعد تحرره من تحجير =

ورغم المعارضة التي كانت تبديها الدول الثلاث: إنجلترا وفرنسا وإسبانيا، فقد استطاعت ألمانيا الحصول على موافقة الجانب المغربي في انعقاد المؤتمر الدولي المقترح، إلا أن فرنسا عارضت بشدة في انعقاده بطنجة، وهو ما جعل المؤتمر ينعقد بالجزيرات واستمرت أشغاله من 16 يناير إلى 7 أبريل 1906. وهي خطة كان يتوجب على الجانب المغربي الوقوف في وجهها دفاعا عن كرامته السياسية والقومية، ولكن الموقف المغربي كان أضعف ما يكون إزاء العملاق الفرنسي الذي «يعسكر» على الحدود المغربية ويحتل فعليا عدة مناطق من المملكة الشريفة.

وأثناء انعقاد المؤتمر كان الوفد المغربي برئاسة الشيخ امحمد الطريس، يحمل ورقة عمل لإقرار اصلاحات تتلخص في خمس نقاط ذكرها عبد الله العروي في *Memorial du Maroc*.

وهي:

- (1) تنظيم الشرطة في جميع أرجاء المملكة. . .
- (2) ادخال اصلاحات على التنظيم المالي مع مد يد المساعدة لتحصيل الضريبة المفروضة سواء على الرعايا المغاربة أو على المحتمين، طبق نظام معين.
- (3) البحث عن موارد جديدة للخزينة وعن قواعد لانشاء وتسيير بنك مخزني.
- (4) تدارس الطرائق والوسائل الكفيلة بالقضاء على ظاهرة التهريب بصورة عامة مع مراقبة استيراد أنواع الأسلحة بصفة خاصة.
- (5) البحث عن إيجاد أنجع الطرق وأنفعها للمخزن الشريف من أجل إدخال تحسينات على المنشآت العمومية داخل الموانئ المغربية وخارجها رغبة في حماية حرية واستقلال المغرب.

= وزيره أحمد بن موسى المعروف «بإحماد» لرغبة الشعب في تأسيس مجلس الأعيان حيث أنشأ فعلا سنة 1905 وكان مؤلفا من ممثلي القبائل والجهات الذين انتدبوا للعمل بجانب السلطان وخاصة للنظر فيما عرضته عليه فرنسا من مشروع الإصلاحات التي كانت تقترح ادخالها على المغرب تمهيدا لفرض السيطرة عليه. وقد استمرت أعمال هذا المجلس بجانب الحكومة المغربية وانتهت برفض المشروع الفرنسي. وكان من بين ما أسفرت عنه أشغال المجلس والحكومة استدعاء مؤتمر دولي للنظر في الإصلاحات الحقيقية التي ينبغي تحقيقها في إطار الوحدة الترابية والاستقلال الوطني.

وكانت النتيجة أن قرر المؤتمر إحداث فيلق للشرطة من 2000 إلى 2500 رجل بقيادة ضباط فرنسيين واسبان مدة خمس سنوات تحت رئاسة ضابط عام سوسرى، واقتصر في مادة مراقبة تهريب الاسلحة على اجرائها في المغرب الشرقى ومنطقة الريف بتعاون بين السلطة المغربية وكل من فرنسا واسبانيا، كما تقرر إحداث بنك مخزنى يسيره مجلس إدارى مؤلف من مندوب مخزنى وممثل لكل دولة من الدول الإثنى عشرة المشاركة في مؤتمر مدريد، وكذا ممثل عن كتلة البنوك المانحة لقرض مائة مليون فرنك سنة 1904. كما أن المؤتمر الزم الأجانب المقيمين بالمغرب بأداء الضريبة العقارية، وفي مقابل ذلك اعترف لهم بحق امتلاك العقارات بمحيطات الموانئ⁽¹⁴⁾.

وقد اتخذ المؤتمر عدة قرارات وتوصيات لا مجال للدخول في تفاصيلها. وأهمها يخص التأكيد على سيادة السلطان واستقلال المغرب ووحدة أراضيه، وفي نفس الوقت التذكير بمبدأ الحرية الاقتصادية للبلاد وانفتاحها في وجه جميع الدول على قدم المساواة.

ورغما عن الانتقادات الموجهة لمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، فقد شكل القراران المتعلقان بالوحدة الترابية والاستقلال عنصريين هامين استطاع المغرب الاستفادة منهما في فترة الحماية للحد شيئاً ما من شطط المستعمرين، ثم عندما اتجهت القوى الوطنية إلى المطالبة باستقلال البلاد.

6- الإنعكاس السلبى لعقد الجزيرات على فكرة الإصلاح

«رغم أن الصيغة النهائية لعقد الجزيرات قد أقرت مبدئياً سيادة السلطان ووحدة أراضيه، فإن العقد كان في الواقع يؤسس لحماية فرنسية - اسبانية على المغرب مع تنصيب مبهم على مراقبة دولية، بحيث احتوى ذلك العقد على مقتضيات اكتست خطورة بالغة، خاصة تلك التي تترك المخزن وجها لوجه مع فرنسا واسبانيا بالمناطق التي تتأصل منها كل المشاكل»⁽¹⁵⁾.

(14) لم يعق كل ذلك المستعمرين عن تنفيذ سياسة التملك لجميع أنواع الأراضي المغربية باستعمال التواطؤات والتحايلات التشريعية، مثل قاعدة بيع الصفقة لحمل المالكين بالمشاع على تفويت أراضيهم بأثمان مغرية، حتى أن مساحة هذه الأراضي بلغت في العام 1932 ستمائة ألف هكتار من أجود الأراضي الزراعية المخصصة «للمعمرين» (Colons) الفرنسيين.

(15) عبد الله العروى مرجع سابق ص 283.

لذا لم يكتب لمقتضيات عقد الجزيرات الدخول في حيز التنفيذ لأن النية الاستعمارية المبيتة ضد المغرب من جهة، والرفض الشعبي المشوب بحذر المخزن من جهة أخرى، أفقد العقد كل مصداقية وأمل في جدية التطبيق، مما حدا بتمثل المغرب في المؤتمر الشيخ امحمد الطريس بالإمتناع عن التوقيع على صيغته، كما أن السلطان عبد العزيز تصلب في المصادقة على تطبيقه، ولم يجراً على اتخاذ موقف حاسم سواء للحد من التشدد الذي طبع شروط الدول الأوربية أو من تشددات العلماء الذين كانوا يرون في كل حضور أوربي تحت غطاء الإصلاحات ذريعة للاحتلال الفعلي، ومطية للقضاء على الروح الإسلامية في البلاد.

وقد زاد من تأزم الوضع التحرشات الفرنسية على الحدود مع الجزائر، بل أدى الأمر إلى احتلال وجدة يوم 29 مارس 1907. ويقدر ما كانت هذه التحرشات تمتد داخل البلاد (حوادث بمراكش وأخرى بالدار البيضاء) بقدر ما كانت المقاومة ضد التوغل الفرنسي، خاصة اثر نزول الجيش بالدار البيضاء وقصف المدينة، تنزع إلى اتخاذ شكل معاد للمولى عبد العزيز، أضف إلى ذلك أن المغرب كان عليه أن يحارب على الواجهة الداخلية لإخماد ثورة «بوحمارة» الذي استطاع لمدة زعزعة شرعية الدولتين العزيرية والحفيفية إلى أن تم القضاء على هذا الثائر واعدامه سنة 1909 كما هو معلوم.

ولم يكن المغاربة أثناء هذه الفترة العصبية ليرضوا عن برامج الإصلاحات المنبثقة عن عقد الجزيرات وذلك بالنظر إلى السماح للأجانب بمراقبة الجمرك المغربي، فقد أثار حفيظتهم ما أصبحوا يواجهونه من تواجد جيش عرمرم من الأعوان الفرنسيين والإسبان داخل الموانئ المغربية، وهذا ما أكد للنخبة والشعب أن عقد الجزيرات، بتحويله لفرنسا واسبانيا حق تنظيم شرطة الموانئ ومراقبة ريع الجمرك، قد مهد السبيل لاحتلال المملكة المغربية.

وكان من الطبيعي أن تتأجج روح المقاومة في نفوس المغاربة، فأخذوا يعدون العدة لمواجهة الإحتلال بما لديهم من وسائل وما يحركهم من بطولة عرفوا بها على مدى التاريخ، إلا أن المؤسسة العسكرية للمغرب بلغت في تلك الفترة الحاسمة درجة مخجلة من التردّي. ذلك أنه عندما نزلت فيالق الإحتلال الفرنسية والإسبانية (Corps Expéditionnaires) بشاطئ الدار البيضاء يوم 12 غشت 1907 وكان عددها يناهز 30.000 جندي مدججين بأحدث الأسلحة (بندقيات لوبييل الخفيفة اللادخانية

ومدافع 75 الفتاكة) تحميهم البوارج الحربية (Escadrons) وسفن باكي «التجارية» نقول: فبالرغم من أن التوغل الاستعماري بأرض الشاوية واجه ضراوة المقاومة المغربية من طرف أمهر الرماة من أبناء الشاوية الاشاوش الذين ابلوا البلاء الحسن في مقاومة العدو، فإن السلاح الذي كان بيدهم لم يكن لينهض دفاعا فعالا، وذلك لكون كلائط «بوشفر» من صناعة 1800 المستعملة لرد الهجوم على أرض الشاوية، هي نفسها التي استعملت في معركتي ايسلي وتطوان وتكببت الهزيمة النكراء.

وهكذا فباستفحال الضغوط الاستعمارية على المملكة، وتقلص امكانيات الخزينة، صار من العسير ان لم نقل من المستحيل مواصلة السياسة الإصلاحية التي كان الحسن الأول يطمح إليها. ومن جهة أخرى فهاجس الحذر من السقوط في أحضان «الأوربي النصراني» المعول عليه في تطبيق الإصلاح وإدارة جهازاته، لم يكن ليحمل على اعتناق ما يلح عليه الجانب الأوربي من تزويد المملكة المغربية بالإصلاحات الكفيلة بفسح المجال لمشروعاته التجارية. فالتكتل الأوربي حول فكرة «الإصلاحات المستعجلة» لم يكن له من مسعى سوى النيل من السيادة المغربية، ومختلف المتاجرين المنتمين لتلك التكتلات لم يكونوا ليقبلوا بأداء ثمن عصنة الإدارة المغربية داخل إطار استقلالها واستمرار سيادتها، لأنهم يفضلون التعامل (المريح) مع مغرب ضعيف لا مغرب ناهض. وفي كتاب مفتوح للسلطان عبد الحفيظ تصدى الفقيه الحجوي ليلح على «ضرورة تزويد البلاد بالمؤسسات العصرية الضرورية والتعجيل بالشروع في ادخال التنظيمات على الجهاز الوزاري والمصالح الإدارية وذلك بتنظيم أقسامها واحترام الحقوق، وضبط الأموال، وتدريب الجيوش، ونشر العلوم والمعارف حتى إذا جاء المستعمر فإنه يجد البلاد ذات مؤسسات فيضطر إلى الحفاظ عليها، أما إذا وجد أمامه فراغا شد عليه بالنواجذ لأجل تحقيق مشروعه الاستعماري». (ملحق مذكرة انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره).

لكن بالرغم من محاولات السلطان عبد العزيز لاقتناع النخبة بإعطاء الضوء الأخضر لإدخال مخططات «الإصلاح» المقترحة عليه من لدن قناصل الدول الأوربية حيز التطبيق، فإن المعارضة الميدانية كانت تزداد بسبب ما شاع لدى الرأي العام من حدوث تدن ومسوخ لفكرة الإصلاح، تلك الفكرة التي أضحيت تتمظهر في امتلاء البلاط السلطاني بأصناف اللعب والآلات ذات الصنع الأوربي، مما اعتبرته النخبة تعبيرا سخيفا عن فكرة الإصلاح التي كان من المنتظر أن تتجسد في انعكاسات إيجابية

ذات طابع قومي محظ على التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للبلاد. أما عموم الشعب فلم يوجد فيهم من يشاطر نظرية «الإصلاحات» ما داموا يسمعون أن للأجنبي الفرنسي والإسباني وجودا في أنحاء البلاد وفي البلاط السلطاني نفسه، بحيث لم يوجد فيهم من لا يود من صميم قلبه التخلص العاجل من هذا التواجد الأجنبي بين ظهرانهم.

لكن القوى الاستعمارية، عن طريق قناصلها وتجارها ومحبيها المغاربة من مسلمين ويهود، ما فتئت تشد الخناق وتراوغ وتهدد حتى تنال أوطارها من التنازلات التي كانت تصدر عن المخزن العزيمي، ولدرجة أصبح معها تنفيذ المشاريع الإصلاحية المتفق عليها بعقد الخزيرات، رهينا بالتدخل الأجنبي التدريجي في شؤون الإيالة الشريفة ليصب في النهاية الحتمية، أي فقدان السيادة.

وهذه المواقف اللاتبصرية، المتناقضة والمتنافية لهيئة الدولة ولشان السيادة، عبر عنها الفقيه الحجوي وبتحسر، قائلا:

«إذا تأملنا الاوفاق علمنا قيها غايات الأجانب في القطر المغربي، ووقفنا على مهارتهم في سياسة التدحرج التي يتوصلون بها إلى المقاصد العظمى، وعلمنا أننا نقدم على الدخول معهم في ميدان المعاهدات، وملتزم الالتزامات التي لا نتأمل عواقبها، وإنما تكررنا عليها وقائع الحال، مع علمنا بعدم جدوى القيام بها. ولكن مقصدنا أن نطعمهم ليسكتوا عنا لنستريح يوما هذا والغد وقت آخر أما هم، فيعقدون الخناق على تلك العقد ويجعلونها حلقات من نوع الكاوتشو، فيضيقون ما شاءوا تضيقه، ويوسعون ما شاءوا توسيعه. ومهما مضى الوقت ونحن نائمون، قاموا ينددون بنا وبعدم وفائنا بالعهد فيتوصلوا إلى الأغراض...»⁽¹⁶⁾

يلقى عبد الله بلقزيز على هذا النص ضمن استنتاج بليغ فيقول «أن موطن العطب في ما جرى هو سياسة التنازل التي سار فيها المخزن، على عهد عبد العزيز بخاصة، والتي مكنت سياسة الاستدراج الاستعمارية من النجاح في إيصال المخزن إلى تقديم تعهدات تمس سيادته، والحجوي في هذا التعيين الدقيق لموطن العطب يعقد مقارنة بين ثقافتين سياسيتين: ثقافة ارتجالية قصيرة النفس، لا تطلب أكثر من رفع الضغط وتوفير النفس في الحال، معرضة عن النظر في ما يمكن أن يرتب التنازل عن حوزة

(16) كتاب مفتوح ص. 114 - في ملك أسرة المؤلف.

السيادة من مآل، وهى التى عبر عنها سلوك المخزن فى إدارة الصراع مع الدول الأجنبية، خاصة فى العهد العزىزى، وثقافة سياسية محسوبة وطويلة النفس، تتقن كيفية استدرار تنازلات المخزن وانضاج شروط استسلامه والانقضاض على سيادة البلاد، وهى التى سلكتها الدول الأوروبية، وفرنسا بوجه خاص.⁽¹⁷⁾

وباستفحال كل هذه المظاهر الشادة فى شكلها، والخطيرة فى عمقها، والمنذرة بوقوف البلاد على أجرف الاحتلال، ستقلب المعارضة بغتة ضد مخططات «الإصلاح» إلى مقاومة تجلت فى العزم على إبعاد السلطان عبد العزىز وعقد البيعة لأخيه عبد الحفظ المتواجد بمراكش، لتكون بيعة مشروطة بشروط معينة سيأتى الكلام عنها فى غير هذا المقام.

وكما سبق القول فإن المغاربة فى سوادهم الاعظم، كانوا غير راضين عن برامج الإصلاحات المنبثقة عن مؤتمر الجزىرات لما تحمله فى طياتها من اهانة لسيادة المملكة، والفرنسيون لم يغفروا للمولى عبد العزىز مراوغته فى المصادقة رسميا على مجموع بنود العقد، الشىء الذى ادى ثمنه عبد العزىز من جهة: بإجماع منظم من لدن ثلة من العلماء على عزله، ومن جهة أخرى بتحريض ضمني على صيغة «لم أمر بها ولم تسؤنى» من لدن غالبية دول مؤتمر الجزىرات باستثناء ألمانيا، على إبعاد عبد العزىز املا فى الحصول على المصادقة التامة على أوافق المؤتمر من لدن السلطان الجديد.

وبانهزام عساكر مولاي عبد العزىز والتجائه إلى الشاوية، تمت البيعة لمولاي حفىظ ودخل عاصمة فاس ليجلس على العرش الذى غادره أخوه (7 يونيه 1908) وأعلنت الدول الموقعة على عقد الجزىرات انهم لن يبدوا أى معارضة إن لم يظهر عبد الحفىظ أى تردد فى قبول التعهدات المطلوبة من أخيه، وهذا ما حدث بالفعل. وبذلك وقع الإعلان بالاعتراف بالمولى حفىظ كبديل لأخيه على عرش المغرب بعد تعهده باحترام المعاهدات والافواق المنبثقة عن عقد الجزىرات.

تمت البيعة للمولى حفىظ والبلاد محتلة من الحدود الجزائرية إلى وادي ملوية، وغربا من الشاوية إلى تادلة من لدن الجيوش الفرنسية، هذا بقطع النظر عن احتلال مدينتي سبتة ومليلية وأحوازهما من طرف الجيوش الإسبانية. وفى هذه الظروف الحرجة كانت ميزانية الدولة مثقلة بالديون، ومداخلها تحت المراقبة الأجنبية وقد

(17) الخطاب الإصلاحى فى المغرب. ص. 174 - 175.

سبقت الإشارة إلى ذلك . وزاد من حدة الديون المتراكمة ما أقدم عليه السلطان الجديد من اقتراض مائة مليون فرنك فرنسي «لمساعدته» على القضاء على مثيري الفتنة، خصوصا الثائر (بوحمارة) الذي ألقى عليه القبض في 5 شعبان 1327 (1909) و ثم اعدامه كما هو معلوم .

لكن الحالة الداخلية كانت تزداد تفاقما سياسيا وعسكريا بسبب تحرك الجيوش الفرنسية لتوسيع رقعة الاحتلال، خاصة بعد توقيع اتفاقية 1911 بين فرنسا وألمانيا بتخلي هذه الأخيرة عن مطالبها في المغرب، أضف إلى ذلك إفلاس الخزينة المغربية واثقال كاهل الدولة بالديون الأجنبية مما رهن مداخل الجمرک وجعلها تحت مراقبة الأطراف الدائنة، كل هذا لم يساعد السلطان عبد الحفيظ على انجاز ما قيده به بيعته المشروطة . فانعدام وسائله المالية، ومخادعة المتولين من أهل الحل والعقد وذوي المصالح الخاصة وزمرة الإقطاعيين ملاكي الأراضي، ونكوص هؤلاء واولائك عن الوقوف بجانب السلطان في تحقيق مطامح الشعب، كل هذا لم يساعد المولى عبد الحفيظ على الوفاء بما أُلزم بالتعهد به .

تلك هي الأسباب التي جعلت مولاي حفيظ، رغم ذكائه ودهائه، عاجزا عن القيام باعباء الملك وخوض غمار الجهاد الموعود . أضف إلى ذلك المواجهة بينه وبين الزعيم الكتاني في شؤون الدين والمعارضة السياسية القائمة ضده والمعززة بالأسلحة وبالمناورات الاستعمارية، كل ذلك يفسر عدم اكترات السلطان بالبرنامج الإصلاحی الذي عرضته عليه النخبة المتنورة من واضعي دستور 1908 والذي كان مصيره الغرق في خضم التوسع الفرنسي - الإسباني القوي في احتلال أطراف البلاد .

هكذا إذن ظل إدخال أي إصلاح على هياكل الدولة مستحيل الإنجاز دون ما التجاء إلى العنصر الأوربي . والجدير بالإشارة أن الاندفاع نحو الخروج من الأزمة تبلورت لدى عامة الشعب المغربي حول فكرة طرد الأجنبي «الكافر» التي كان يجسدها السلطان عبد الحفيظ، أكثر مما ساندت التعبئة من أجل الإصلاح والعصرنة التي كان ينزع إليها السلطان عبد العزيز من غير ادراكه - عفويا أو إراديا - لقيود البيعة التي لم يستطع حتى مولاي الحسن القوي الانسلاخ ولو عن جزء منها، لينقلب إلى مصلح «مستبد» على غرار محمد علي المصري . لكن الامتثالية العفوية هي التي أدت إلى تأخر البلاد ثم احتلالها .

الفصل الثالث

تجليات التيارات الإصلاحية في المغرب

1- حركة إصلاح المجتمع باسم السلفية

شاهد المغرب في أواخر القرن التاسع عشر وعلى غرار المشرق العربي انتشار حركة تعزرو أسباب تخلف الشرق بالنسبة للغرب إلى التخلي عن المبادئ الأساسية التي جاء بها القرآن والسنة. ففي الميدان الديني الصرف ينسب هذا التخلف إلى عدد من الإنحرافات أساسها تجسيم بعض الطقوس الدينية وألوهية القوات الخفية. . وعلى البساط الزمني، إلى حالة الفوضى والاستبداد التي توجد عليها أغلبية الدول الإسلامية والتي تشكل العامل الأساسي في خضوعهم المتزايد للبلاد الغربية. وكانت «الارثودوكسية» المالكية بالمغرب العربي تمنح جوا ملائما لانتشار هذه الحركة التي يرجع أصلها إلى النظريات التي كان يدافع عنها في القرن الرابع عشر الامام ابن تيمية الدمشقي، والتي كانت أساس الدعوى الوهابية التي قام بها محمد ابن عبد الوهاب الحجازي في القرن الثامن عشر. وقد وصلت إلى المغرب العربي تحت مظلة الطوائف الطرقية مثل السنوسية والباديسية والقادرية وغيرها.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ساهم تأثير جمال الدين الأفغاني بقسط وافر في إثارة اهتمام الرأي العام بثرات الأصولية الإسلامية. إلا أن الشيخ محمد عبده هو الذي كان عليه أن يضع أسس برنامج الحركة الإصلاحية التي عينها باسم السلفية لكونها تدعو إلى تعاليم السلف الصالح، وحدد برنامجها في أربعة اقتراحات أساسية تلخص في:

- تنقية الدين الاسلامى من الشوائب التى طرأت عليه .
- إصلاح التعليم العالى الاسلامى .
- تحديد جديد للعقيدة الاسلامية على ضوء الفكر الحديث .
- حماية الاسلام من التأثيرات الاوربية والتهجمات المسيحية .⁽¹⁾

وبما أن السلفية تقتضى العودة إلى الأصول، أي الرجوع إلى الماضى، فلقائق أن يتسائل هل لا فى شطر من هذه النظرة نوع من الماضوية والخروج عن التاريخ؟ كلا، يقول الباحثون فى تاريخ الأفكار: فان من شأن كل عودة إلى الماضى نزوعا إلى الأمامية لا ركونا إلى التراجع والتقهقر إلى الوراء، فالذى ينظر فى تاريخ الحركات العامة فى الدنيا يجد أنه لم تقم ثورة مفيدة فى بلد ما إلا سبقتها دعوة للرجوع للماضى البعيد، ذلك أن هذا الرجوع الذى يظهر فى شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة.⁽²⁾

لقد كانت الدعوة السلفية عند المغاربة فى السنين العشر الأواخر من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين تتمظهر لدى غالبية أقطابها فى تبني الطراز المشرقى، أي فى إشهار حرب فكرية ضد الإبتداع ومختلف تجلياته واعتقاداته (الطوائف الصوفية - الزوايا بانتماءاتها المتعددة والمتنوعة - أضرحة الصلحاء) وذلك بحسبانها تجسيدا للاجتهد فى التذكير بالعودة إلى الأصول والتحرر من المستحدثات المتناقضة لتلك الأصول، فكان أول ما التفتت إليه أنظار الداعية السلفية فى المغرب هو مقاومة البدع ومواجهة الزوايا بكونها مؤسسات للبدعة تؤدى الفعل الدينى الأصيل حسب طقوس رأى فيها السلفيون مكمن استهجان واستنكار بمن فيهم السلاطين الذين تطلعوا إلى تحرير العقيدة من الشوائب التى ألحقت بها فى حقبة الانحطاط⁽³⁾ وذلك «بفعل الانتقال التاريخى من التصوف إلى الطريقة».⁽⁴⁾

(1) عن نشرة جمعية تاريخ المغرب - العدد الثانى 1969 .

(2) علال الفاسى - الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ص 156 .

(3) مثلا السلطان مولاي سليمان الذى ألف كتابا فى الموضوع تحت عنوان «امتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع» . ورسالة السلطان عبد الحفيظ فى الرد على طرقي الزاوية التجانية وادعاء المشيخة .

(4) الفقيه الحجوي - الفكر السامى ج / 2 ص 59 .

وما استبشعه السلفيون وعدوه من قبل البدع هو ذلك «التعبير الذيني الطرقي في الأوراد التي تتم بواسطة السماع والطرب، والمنطوية على "الاسرار" التي يعتبر مريدو الطريقة ان الإتصال الروحي بالعالم الالهي يتحقق فيها. كما عدوا المواسم المنعقدة على الصلحاء، وما يقع فيها من بدع النذر والتوسل خروجاً عن الملة وانحرافاً عن جادتها المقررة، وقد قدمت النخبة المغربية منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين نصوصاً ضمنيتها تصوراتها السلفية المجردة عن ثرات الابتداع الطائفي مدعوة من المخزن ومحاولاته الإصلاحية في مجال الاجتماع المغربي الحديث».⁽⁵⁾

في هذا الإطار ظهرت نصوص زاخرة بالنقد والتقصص «للابتداع» المنافي للأصول في مختلف اشكاله وتمظهراته، ومن تلك النصوص «الزجر والاقماع» لمحمد بن المدني كنون، و«الفكر السامي» ثم «صفاء المورد» للفقهاء الحجوي و«حجة المنذرين» لأحمد ابن المواز، و«تعظيم المنة» ثم «الاستقصا» لأحمد بن خالد الناصري - وكلهم استهجنوا الآثار التضليلية للطرقية بإحداثها الفرقة في وحدة الجماعة الإسلامية واستلاب جموع المنخرطين باستغلال جهلهم استغلالاً «شيطانياً».

وفي هذا السياق يقول الفقيه الحجوي وهو يدافع عن الصوفية بوصفها منهلاً للطرقية " إذ صار القصد عندهم (يقصد الطرق) هو هذه الأمور التكميلية وقصروا في المقصد فصار كشفهم ظلمانيا ووجدانهم شيطانيا مع كثرة الطرق وتشعبها. . . خرجوا عن المقصود إلى ما ليس بمقصود. . . وتركوا الأصول والفروض الدينية إلى كثرة النوافل، والتظاهر بالزهد مع الحرص الباطني على الدنيا. . . حتى صار الأمر إلى طرق صورية لا صوفية، لها رقص وغناء ولهو وشطحات وتواجد اللسان وجمود الجنان (الفكر السامي - ج/2 ص 61-62)⁽⁶⁾

وما يميز الفقيه الحجوي عن باقي السلفيين المذكورين وبحسبانهم دعاة للفكر

(5) عبد الاله بلقزيز . م.س . ص 144

(6) في هذا المعنى يقول الناصري: إنك لترى كثيرا ممن يتصدون لتربية المريدين من العوام الاجلاف بالباسم الخرقه وتمكينهم من السبحة والعصا وارسالهم يطوفون في البلاد تاركين عيالهم وحرقتهم بعد أن يدخلوا هذا الطريق (الزاوية) ليأكلوا فيها الدنيا بالدين (تعظيم المنة ص 255) أورده بلقزيز (م.س . ص . 151).

السلفى المجرّد، هو أن الدعوة السلفية عند الحجوى - بالاضافة إلى الاجتهاد المعرفى فى الأصول - تتجلى فى مقاومة فكرىة تعبيرىة ضد التقليد والجهل والركودىة المتمثلة فى تصنيف الحواشى والشروح على النصوص الأصيلة والمختصرات التى اثقلت القواعد أكثر مما أبرزتها. وهذا هو مكن الفكر التنويرى عند الحجوى بما كان يهدف إليه من إصلاح - على غرار محمد عبده - ومن جعل الاجتهاد فى الأصول وسيلة لتبرير ضرورىات التحديث.

أما الفقيه أحمد ابن المواز⁷ فكان موقفه من العادات الجديدة المرذولة يضطرب ويتدربين قبول ما عرض له عبد الحى الكتانى فى كتابه «تبيلغ الأمانة» من استهجان الاسراف فى النفقات فى الولائم والجنائز معا واسراف النساء فى التبرج والابتعاد عن الآداب الاجتماعىة الضرورىة فى الأماكن العمومىة مثل الطرقات والحمامات العمومىة الخ. . وبين اقرار ما ينكره - أى الكتانى - فى فصول أخرى من نفس الممتن كاستهجان الفوتوغراف، وانكار المستحدثات التقنىة، بل أن ابن المواز ذهب فى ذلك إلى حدود قصوى لا نعرفها فى معاصريه إلا عند الحجوى.⁽⁷⁾

فمن مظاهر تفشى المعتقدات الخرافىة وتأثر المغاربة فى فترة ما بين انتهاء القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالطرقىة بمختلف مشايخها، تجدر الإشارة إلى أن انفلات الذهنىة المغربىة عن القيود الدينىة لم يعد محصورا فى جمهور العوام ومن يأطرحهم من دعاة الطرقىة، بل كان أيضا مظهرا متجليا فى فئة من العلماء المعتبرين من أهل السنة والجهاد مثل محمد بن جعفر الكتانى الذى يشيد فى تأليفه - سلوة الانفاس - بـ «كرامات الأولياء ووجود البركة بالأرض على أيديهم، وكثرة النفع، وادرار الرزق إذ لولا هم ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها، ولصب البلاء على أهل الأرض صبا.» - وهنا يصيح الفقيه الحجوى فى وجه هذا الانفلات: «والطامة الكبرى هى أن جل من ينتسب للعلم من أهل زماننا يتسابقون للأخذ عن تلك الطرق البدعىة، ويتحزبون لها، ويعضدونها».⁽⁸⁾ ومن ثمة «سندرك مقدار الصعوبة التى كان يلقاها المثقف السلفى فى مقاومة تضخم معتقدات الابتداع بعد أن حصنت نفسها بدروع قوىة هى العلماء أنفسهم، وندرك - بالتالى - حدة الشعور لديه بأن معركة

(7) سعيد بنسعيد العلوى - الاجتهاد والتحديث ص 54.

(8) الفكر السامى - ج / 2 ص 63.

السلفية مع البدع والذهنية المتبدعة ستكون معركة طويلة المدى والنفس.⁽⁹⁾

2- اليقظة السياسية والفكرية في مطلع القرن العشرين

لقد تسائل كثير من المهتمين عما إذا كان المغرب قد أنجب قبل تمركز نظام الحماية بالمغرب نخبة اصلاحيين يمكن اعتبارهم حركة «فتيان المغرب» على غرار حركة «تركيا الفتاة» وحركة «تونس الفتاة» اللتين نعرف عنها الشيء الكثير. وإذا كان بعض المؤلفين القلائل لم يشيروا إلى وجود هذه الحركة إلا ابتداء من الثلاثينات عندما تأكد لديهم ما يبيته نظام الحماية من معاداة ومحاولات لطمس الهوية المغربية، فإن الوعي بالخطر الاستعماري الذي أضحى يتهدد ثقافة البلاد وشخصيتها كانت تحتزن مكانه نخبة من العلماء والمثقفين والبورجوازيين والزعماء الأطلسيين خلال السنين التي سبقت مباشرة قيام نظام الحماية بالمغرب، مما يصح معه التأكيد بأن تيارا اصلاحيًا مجددًا كان يحرك قسما لا يستهان به من سكان المغرب في مطلع القرن العشرين.

وقد كان ممثلوا هذا التيار الذي لا مانع من تسميته منذ ذلك الحين بحركة «فتيان المغرب»، واعين بما يهدد وطنهم وملتهم من الأخطار، ومقتنعين عن اعتقاد وايمان، بأن أفضل وسيلة لمقاومة التغلغل الأجنبي والمحافظة على استقلال البلاد هو اصلاح الأوضاع المتردية والحد من مظاهر الفساد والانحطاط التي كانت تنخر هياكل الدولة والثقافة وروح المواطنة بل وحتى مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. ولتحقيق هذه الرغبة الملحة كان لزاما على الحركة الإصلاحية الاخذ بوسيلتين أولهما الرجوع إلى أصول الدين الصحيحة، والثانية العمل على تجديد أجهزة الدولة في قالب ديمقراطي تراعى فيه كافة الإصلاحات والاقتباسات التي من شأنها إضفاء العصرية على هياكل الدولة.

ولقد كانت الرغبة في تنفيذ سياسة الإصلاح ناشئة عن الإرادة التي كان يتحلى بها كل مغربي ونعني المحافظة على استقلال البلاد ورفض التغلغل الأجنبي ممن لا ينتسب لدار الإسلام. يدل على ذلك الاستفتاء الذي وجهه سكان فاس إلى علمائهم في تاريخ 30 دجنبر 1907 بشأن مشروعية خلع السلطان عبد العزيز الذي كانت توجه

(9) الخطاب الاصلاحى في المغرب. م. س. ص. 153.

إليه انتقادات كثيرة خاصة مؤاخذته «بإبرام اتفاقيات تعرض البلاد للخطر» وذلك بسبب سلوك سياسة ملئها - على حد قولهم - التناقض، كاقتراض الدولة المغربية لأموال خارجية استعملت في اشباع رغبات شخصية بدل تحسين أحوال المملكة، وكسيطرة حاشية السلطان لجعل الميول الإصلاحية تهافتا رخيصا على كل ما هو أوربى ومبتذل من الصناعات وادوات التسلية التي تنتجها اوربا.

وقد أدى كل هذا إلى افلاس الخزينة العامة مما دفع السلطان إلى إحداث ضرائب جديدة (المكس) مست بالتشريعات الزراعية والتقاليد القروية، فقاومها العلماء وأصحاب النفوذ واتهموا السلطان بالانحراف عن الشرع والعدل وكان قرار العلماء هو خلع السلطان لكونه لم يعد قادرا على الدفاع عن المسلمين ولم يقم بأية مقاومة لدفع الغارات التي كانت تشنها فرنسا واسبانيا على البلاد خاصة حينما وقع الهجوم على الدار البيضاء بواسطة السرية(*) الفرنسية النازلة من السفينة بشاطئ الدار البيضاء في صيف 1907.

ففي البيعة الحفيفية المؤرخة بخامس يناير 1908 نرى العلماء بعد أن أعلنوا عن خلع المولى عبد العزيز قد قيدوا مبايعتهم للمولى عبد الحفيظ فيما اوجزه الاستاذ عبد الهادي بوطالب في كتابه «النظم السياسية العالمية المعاصرة» بنوع من التعاقد السياسي بين السلطان المبايع والطبقة المتنورة آنذاك من العلماء والشرفاء والأعيان، فيقول: «وحتى لا يجد الفرنسيون مجالا للضغط على شخص السلطان الجديد للتسليم بواقع احتلالهم وحتى يظل مقيدا بالرجوع إلى الأمة قبل أن يبرم باسمها أي تعهد أو التزام، جاءت بيعته من ممثلي الأمة في شكل وثيقة تعاقدية بين الملك والشعب وتضمنت الشروط الأساسية التالية:

- في ميدان السياسة الخارجية: يعمل السلطان على إلغاء معاهدة الجزيرة التي وافق عليها أخوه، يسترجع الأراضي المحتلة من الفرنسيين، ويلغى الامتيازات الأجنبية، ويقطع المفاوضات مع الأجانب، ويضع حدا نهائيا لاستشارتهم، ولا يبرم مع الأجانب أي التزام إلا بعد الرجوع إلى الأمة وموافقتها.

(*) السرية هي قطعة الجيش في النظام الفرنسي.

- وفي الميدان الداخلي نصت البيعة على الفصل بين السلطة الإدارية المتمثلة في العمال والولاية وبين السلطة القضائية.

وتعتبر هذه البيعة بالشروط التي تضمنتها نواة لنظام ملكية دستورية مقيدة، وقد جاءت في وقت كانت فيه نخبة من متنوري الأمة لم تكشف عن هويتها تدعو لحركة دستورية امتدت جذورها عبر البلاد. ومما لا شك فيه أن هذه الحركة تأثرت بفلسفة الحركة الدستورية العالمية وخاصة ما جد منها في مناطق النفوذ العثماني وبصفة أخص بحركة «الاتحاد والترقي» التي امتدت إلى تونس، إذ أن مشروع دستور سنة 1908 يعكس في ذلك اختياراته وبعض مصطلحاته» انتهى كلام عبد الهادي بوطالب.

وهكذا تجلت الرغبة الملحة في الإصلاح بوضوح تام في بيعة يناير 1908 وبهذا يمكن اعتبار هذه الرغبة كإحدى أسس «فتيان المغرب». فالمنطلق لدراسة هذه الحركة التمهيدية واستكناه الأسباب والمبررات التي دفعت بالمغرب إلى العزم على تبني الإصلاحات التي تفرضها متطلبات القرن العشرين، يدرك أن مختلف الجوانب الأساسية لهذه الحركة تتبلور في تيارين اثنين: تيار سلفي تجديدي وتيار سياسي ليبرالي.

3- التيار السلفي التجديدي:

كما سبق بيان ذلك فإن المغرب عرف في أواخر القرن التاسع عشر وعلى غرار البلاد الشرقية، انتشار حركة الانبعاث الديني وهي الحركة السلفية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني ورشيد رضى ومحمد عبده والتي ترمي إلى الدعوة إلى رد الإسلام لأصوله ومنابعه، وإلى نبذ الشعوذة والتفكير الخرافي، وإلى العمل على إعادة فتح باب الاجتهاد لما يحمل ذلك من أثر إيجابي على التجديد في العقيدة والإصلاح لهياكل الأمة الإسلامية في جميع مظاهر الحياة وأسسها التربوية والسياسية والاجتماعية.

وقد تمثلت السلفية عندنا في تمسك دائب بالإنخراط في الطرق الدينية وممارسة طقوسها التي تأصلت في الأوساط الشعبية منذ زمن يجد جذوره كما سبق القول، في إنشاء الزوايا بمختلف مدن المغرب وقراه، وتكاثر عددها واتساع محيط مريديها لدرجة أن أغلبية المغاربة، ما قبل حلول النهضة الفكرية في المشرق العربي، كانوا ينتمون إلى طريقة معينة إلى حد أنه كان يقال: من لا شيخ له فالشيطان شيخه! وقد

أصرت الذهنىة المغربىة تحت تأثر الأمة على الانقياد فى المنحى الخرافى رغم ظهور النصوص السلفية المتنورة المستهجنة للابتداعىة المنافىة للأصول الدىنىة الصفىحة مما هو محفوظ إلى يومنا بمؤلفات أو مخطوطات الفقىة الحجوى والناصرى وابن المدنى كنون وجرهم ممن عرفوا بالفتوى والخطب والمحاضرات السىاسىة مثل الشىخ شعىب الدكالى ومحمد بن العربى العلوى .

ووسط الروحانىة السائدة الرافضة لكل ما هو دخىل وجرىب عن المؤلف كانت أصداء النهضة الأوربىة تقرع أذان النخبات المتنورة فى العالم العربى والاسلامى والتى أضحت تدرك حق الإدراك بأن الانحطاط الذى آلت إليه الأمة الإسلامىة لم يكن مرده وحسب لاسباب التفرىط فى المبادئ الدىنىة والرمدى بها ظهر ما كان ىرده عامة الناس، بل أىضا إلى التفاوت الحضارى الكبىر المبنى على العقلانىة والتقنىة بىن أوربا والعالم الإسلامى . وقد زاد من عوامل استفاقة ذوى الضمائر الحىة والقدرات الوطنىة فى العالم العربى، الهجمة البونابارتىة فى بداىة القرن التاسع عشر على مصر، مما عجل بثلة من قادة الفكر الإسلامى الأصىل إلى الصدع بالحقائق التى كان الناس غافلىن عنها أو ىتعمدون تجاهلها، وهى إذا كان لا بد من الرجوع لأصول الدىن الحنىف وتطهیره من الشعودة والتفكىر الخرافى بمقاومة الأوهام والتقالىد البالىة والأساطىر التى تقوض حرىة الفرد وتعمى عقله ووجدانه، فانه ىجب كذلك القضاء على حالة الفوضى والتأخر الحضارى التى توجد عليها أغلىبة الدول الإسلامىة وهو ما ىشكل العامل الأساسى فى وقوعها المتزاد فى قبضة العالم المسىحى .

وهذا التىار النهضوى الجدىد كان بمثابة تجدىد للنظرىة السلفية التقلدىة بانتشالها من حالة الجمود والركون إلى الماضوىة العقىمة، وباعطائها دما جدىدا ىجعلها توفىق بىن فضائل السنة وبىن الانفتاح على العلوم الحدىثة وعلى حضارة العصر بمفاهمها ومقوماتها، وطبعاً بتحاشى كل ما ىتعارض مع روح الأحكام الإسلامىة . وبذلك أصبحت الحركة السلفية تمتد رؤاها إلى واقع الامم الإسلامىة ومستقبلها وطرق تقدمها وتممىتها، وهى نظرة لا سكونىة تقدمىة تحت على فتح باب الاجتهاد، وتسعى إلى تعمىق الفهم والاعتقاد بأن الاسلام دىن ىعتمد على العقل والعلم والعمل من أجل تقدم وتطور غاىته علو شأن الانسان وحفظ كرامته .

والمغرب القلعة الإسلامىة القوىة الصامدة فى وجه المد المسىحى الاستعمارى

لم يكن ل يبقى بمنأى عن هذا التيار الصاعد لرياح السلفية المتجددة الوثابة القادمة من الشرق، تصحبها موجة النهضة الفكرية والقومية العربية والشعور بحتمية اصلاح الاوضاع المتردية في الوطن الاسلامي . لكن الشعب المغربي لما له من شخصية ميزته عبر عصوره التاريخية سرعان ما تجددت رؤاه للسلفية على ضوء ما سيبثده زعماءه وعلماءه ومثقفوه .

في هذا المضممار تجدر الإشارة إلى أن الشيخ ماء العينين الذي كانت طريقته تنتمي إلى الطريقة القادرية، كان له نفوذ كبير في جنوب المغرب على الخصوص، وبمآزرة السلطان عبد العزيز استطاع ابتداءا من سنة 1906 أن يجمع شمل قبائل الصحراء قصد تعزيز وتنسيق المقاومة الموجهة ضد الاحتلال الفرنسي لبعض المناطق المغربية، واقتداء بالشيخ السنوسي قام ماء العينين بالدعوة إلى توحيد مختلف الطرق، أملا في أن هذه الوحدة ستتحقق في إطار حياة صوفية رائدة، تمكن من مقاومة التغلغل الأجنبي، وفي نفس الوقت تتعاون مع المولى عبد العزيز للحصول على الاصلاحات الضرورية لتحسين الحالة العامة للمغرب وتسود البلاد روح خالصة في الدين والقومية، وتمتزج العادات الطرقية بالرغبة في الإصلاح السياسي .

ولا ندري أمام قلة المصادر إلى أي حد قد حظيت هذه الحركة بقبول باقي الطرق المغربية، إلا أنه يمكن التعرف على مساهمت فيه الطريقة الكتانية في مجال توسيع نطاق نشاطها على الصعيد الوطني دينيا وسياسيا . فالشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، مؤسس الطريقة الكتانية، تصدى لمعارضة مكشوفة ضد الأنظمة السائدة في البلاد، مقتديا في ذلك بعالم كبير سبقه بقليل وهو محمد بن المدني كنون الذي كان لا يخفي في محاضراته امتعاضه من حكم الجور والاستبداد، كما تجلت أفكار الكتاني في إثارة الثورة ضد المولى عبد العزيز⁽¹⁰⁾ وتحرير أهم فصول البيعة الحفيفية بما

(10) يذكر مصطفى العلوي في كتابه: «المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية» (ج/1. ص71) أن المعارضة المتطرفة كانت تتمثل في عالمين كبيرين أولهما محمد بن المدني كنون الذي كان يلمح في محاضراته إلى «جبروت السلطان...» وثانيهما هو مؤسس الطريقة الكتانية الشيخ محمد الكتاني الذي كان لا يخفي في محاضراته العلنية معارضته للسلطان لسكوته عن غزو الحضارة واندثار المبادئ والأفكار الأصيلة لكنه في إحدى محاضراته يقول: وقد علمتم ما وصل إليه الأجانب اليوم من النفوذ في العالم فإنما وصلوا لذلك بأمر منها الحرية ومعرفة كل منصب وما يطلبه وعدم إهمال بعضهم بعضا - وفي محاضرة أخرى يضيف: إذا اردتم ابرام أمر فليكن شوري بينكم وليس أحدكم أحق بالإثارة بالحق من الآخر... .

تشملة من وجوب استشارة الشعب المغربى فى كل ما تعلق بالتفاوض فىه مع الأجنبى، والدفاع عن الحق وحوزة الوطن واستقلاله وغير ذلك مما أشرنا إىه عند تعرضنا للفترة الحفىظىة.

كان تأثر الشىخ الكتانى من الأهمىة بمكان إذ كانت الدروس فى الوعظ والارشاد التى كان يلقىها فى القروىين تجمع حوله جمهورا غفيرا، كما أن تنقلاته كانت تجلب جماهير متحمسة تأثرت أىما تأثر فضلا عن التعاليم الدىنىة المصطبغة بالفكر الصوفى لما كان الشىخ يلمح إىه فى نفس الوقت من أفكار تحررىة تدىن سلبىة السلطان عبد العزىز فى عدم حماىة الناس والدفاع عن متاعبهم ودىنهم بالنهوض بمبادئ الإسلام بوساطة الشورى ونشر المعرفة واصلاح الادارة واسترجاع المناطق المحتلة

وقد كانت المطالبة السىاسىة التى تتمثل فى البىعة الحفىظىة المشروطة، بإضافة انبعاث المبادئ السلفىة وتجديدها بالدعوة إى تحرير الأفكار، هو ما تبنته النخبة فى دعوتها إى الإصلاح، لكن من دون اتخاذ الطرقىة كواسطة فى دعوتها. فقد تأثرت هذه الحركة بمزج السىاسة بالسلفىة، وىمثل هذا التیار فثة العلماء الماهدىن من رواد السلفىة المتنورة مثل أحمد بن خالد الناصرى (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) والفقىة محمد بن الحسن الحجوى (الفكر السامى فى تاریخ الفقه الإسلامى وىیره من التوالىف النهضوىة الجرئىة) ثم أحمد بن المواز صاحب حجة المنذرین - والسلىمانى أبو عبد الله صاحب (اللسان العربى عن تهافت الأجنبى حول المغرب)، وىیرهم من المنظرین لمبادئ السلفىة المتنورة الداعىة إى تحصین البلاد بالاصلاح والتغىیر السىاسى.

وقد عرفت هذه الفثة من العلماء باتخاذها طرىقة الاجتهاد وحرىة الفكر فى التفسىر والفتوى، وسجب الجدل الفارغ حول الاختلافات الفقهىة، ومحاربة الفكر الخرافى، وكانت هذه الحملة ترمى فى جوهرها إى تنقىة الاعتقاد من كل شوائب الجمود الفكرى لكى يسوغ للبلاد، فى ظل الإسلام الحنىف، الوصول إى ما وصل إىه العلم الحدىث.⁽¹¹⁾

(11) هذا المنحى التركىبى فى الخطاب الإصلاحى نقف على معطياته فى ما كتبه مفكرون ومحدثون كالحجوى مثلا. وهو ما سىدفع مفكرا مثل علال الفاسى إى الحدىث عن السلفىة المغربىة بوصفها سلفىة جدىدة تصهر فى صىغة واحدة البعدىن الأصىل والحدىث " (عبد الاله بلىقىز - الخطاب الإصلاحى فى المغرب - ص 218)

وقد وجدت هذه المبادئ التقدمية في شخص الشيخ أبي شعيب الدكالي بعد رجوعه من إقامته بالشرق واحتكاكه بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، داعية ذاباع الذي ضم حوله أتباعا كثيرين قاموا بمساعدته في توزيع المنشورات السلفية المصرية، وبمرافقته في الجولات التي كان ينظمها قصد مقاومة بعض العادات المتمثلة في عبادة القوات الخفية. وبهذا يمكن القول بأن الحركة السلفية المتنورة التي ازدهرت بالمغرب خلال السنين العشر الأولى من القرن العشرين بشقيها التقوي والنهضوي، تميزت بحرصها على مقاومة الفساد الداخلي والتأثيرات الأجنبية، ثم بمناداتها بالتعجيل بالإصلاحات الاجتماعية والإدارية، وبذلك أعطت هذه الحركة في تلك الفترة بالذات لـ «فتيان المغرب» أساسا عقائديا سليما مستمدا من ينباع الدين الاسلامي كما أنها أمدتهم بعناصر برنامج يهدف إلى تنظيم سياسي واجتماعي جديد مطابق لما يجري في العالم المعاصر. غير أن هذا الاهتمام لم يبرز بصورة جلية إلا في تيار تجدددي تبلورت تجلياته على المستوى السياسي المحظ وهو:

4- التيار السياسي الليبرالي

إن نخبة الإصلاح الطموحة إلى تجديد أنظمة البلاد السياسية والاجتماعية اقترحت على الرأي العام المغربي تسعة أشهر بعد إعلان البيعة الحفيظية أي يوم 11 أكتوبر 1908، مشروع دستور نشرته بجريدة «لسان المغرب» التي كانت تصدر باللغة العربية بطنجة. ويعتقد أن واضع هذه الوثيقة هو فراح نمور، مؤسس ومدير جريدة لسان المغرب، وكان ينتمي إلى جماعة الصحفيين السوريين المستقرين بطنجة، وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن هؤلاء قد بيتوا العزم على اصدار جريدة عربية مستقلة بالمغرب من شأنها تهيين الرأي العام المغربي لاعتناق المبادئ التي تشكل منها الدستور التركي لنفس الفترة.

وتجدر الإشارة إلى أن فراح نمور، وهو من المتحمسين لحركة «تركيا الفتاة» كان وضع جريدته لخدمة الغاية التي ترمي إلى إقرار ملكية دستورية متحررة بالمغرب. وقد أوضح هذا في جريدته قائلا: «بما أن يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب من وهلة السقوط، ولا على إصلاح إدارة محتلة كإدارة حكومتنا، فيجب أن تكون الأيدي المتصرفة والعقول المفكرة والأفكار المدبرة كثيرة ومتكافئة على العمل. وعليه

فلا مناص ولا محيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب، ومن اعطائها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية».

وإذا كانت الشهادات التاريخية التي نتوفر عليها قد اثبتت الدور الرئيسى الذي لعبه فراح نمور في تحضير مشروع دستور 1908 وتحديد صيغته النهائية، فإنها قد أكدت كذلك أن نمور، لما أعد مشروعه عرضه على عدد من الشخصيات التي تحتل مكانة مرموقة في حياة المغرب السياسية والدينية أو الفكرية، قد أيدوا بدرجات متفاوتة مبدأ انجاز اصلاحات في إطار نظام دستوري، ولم يكن تأييدهم هذا يقتصر على مجرد موافقة من طرفهم، فقد كانوا ينصحونه بملاحظات واقتراحات كان فراح نمور يأخذها بعين الاعتبار عند نشره للنص النهائي للمشروع في جريدته.⁽¹²⁾

ولقد مكنتنا جمعية تاريخ المغرب⁽¹³⁾ من الاطلاع على مقتضيات هذه الوثيقة باعطاء تحليل موجز لها فلاحظت من خلال المشروع المتحدث عنه «أن السلطان أمير المؤمنين يعين الصدر الأعظم ويفوض له في ممارسة السلطة التنفيذية، وأن الصدر الأعظم يرأس مجلس الوزراء ويمارس سلطته في إطار مسؤولية عامة بينما كل وزير مسؤول شخصيا عن ما يتعلق بوزارته».

وكانت السلطة التشريعية من اختصاص منتدى الشورى المكون من مجلس الأمة ومجلس الشرفاء. وينتخب أعضاء المجلس الأول لمدة أربع سنين، وكل نائب يمثل عشرين ألفا من السكان، ويعتبر كمثل للأمة جمعاء. أما مجلس الشرفاء فكان يتكون من خمسة وعشرين عضوا يعينهم السلطان ومجلس الأمة والوزراء والعلماء وكان يدرس قرارات ومشاريع مجلس الأمة وكان على منتدى الشورى أن يراقب مختلف

(12) نقرأ لعلال الفاسى «الحركات الاستقلالية في المغرب العربى». «وكل ما نعلمه أن هناك جماعة من الشباب الناهض من بينهم السيد المهدي بن الطالب الفاسى والسيد سعيد الفاسى والسيد عبد الحفيظ الفاسى والسيد أحمد بن المواز والسيد أحمد الزبدي، كانوا يقومون على جمعية سرية لتنوير أذهان المغاربة ومقاومة الاحتلال الاجنبى وإن جماعة منهم ومن غيرهم كانت تتحرك أقلامها بالكتابة في الصحف الحرة التي أنشئت بطنجة (مطبعة كريمادس - تطوان. د. ت. ص 97).

(13) جاء في نشرة جمعية تاريخ المغرب (عدد-2-1969) أن من بين الشخصيات التي عرض عليها فراح نمور مشروع دستور 1908: السادة أحمد الزبدي وعبد الكبير الكتانى وعبد الحفيظ الفاسى وهانى الصنهاجى.

الادارات والمؤسسات المخزنية، وكان رأيه هو الرأي الأرجح وكان لزاما العمل به في جميع الأحوال.

قد أضيف إلى هذه التنظيمات الدستورية الصرفة، قانون أساسي يتعلق بحقوق وواجبات رعايا الدولة الشريفة، فكان لكل مغربي أن يتمتع بحريته الشخصية بشرط أن لا يضر غيره ولا يمس حرية غيره ومعنى هذه الحرية أن يعمل كل واحد ما يشاء ويتكلم بما شاء ويكتب ما شاء مع مراعاة الآداب العمومية. كما ينص الدستور على أن المسلمين متساوون في الحقوق أمام وظائف المخزن وعند أداء الضرائب. وعلى أن لكل فرد الحق في الملكية وفي التعليم.

وقد خصص للتعليم فصل خاص أبرزت فيه اجبارية التعليم الابتدائي بالنسبة للأولاد الذكور من سن السادسة، أما بالنسبة للبنات فالذهاب إلى المدرسة يكون بالتحريض والترغيب وليس بالوسائل الاجبارية. وأبرزت كذلك اجبارية التعليم الثانوي بالنسبة للذكور في المدن الكبيرة بينما أدخل تدريس العلوم العصرية في برامج التعليم العالي. ويتعلق الأمر بالمساعدة الفنية بالذات حينما ينص الدستور على أنه يمكن اختيار أساتذة من بين (الغرباء الحائزين على شهادات المدارس المشهورة بقطع النظر عما هم عليه من الجنسيات والأديان).

ويشار في الأخير أن مالية الدولة موضوعة تحت مراقبة شديدة كما أن رواتب موظفي المخزن محددة تحديدا دقيقا.

فالبرغم من النقصان الذي يتميز به هذا الدستور (لم تحدد المسؤولية الوزارية بكيفية واضحة بينما تخضع سلط متدى الشورى لارادة السلطان). يمكن الاعتقاد بانه كان من شأن تطبيقه أن يمكن للمغرب اجتياز مرحلة هامة تتمثل في تنظيم عصري جديد لانظمتة المختلفة وأن يمنحه قدرة يمكن له بها مقاومة المساعي الامبريالية الاجنبية. ومهما يكن من أمر فان النص يمثل أهم حصيلة لحركة قومية وسياسية كانت تهدف في آن واحد إلى تحرير التراب الاقتصادي الوطني، واعطاء أنظمة الدولة صبغة دستورية. كما أنه يؤكد وجود نخبة كانت منذ سنة 1908 ترغب في أن يسلك المغرب طريق الاصلاحات التي من شأنها أن تمكنه من أن يحتل مرتبة دولة عصرية ومستقلة مثل تركيا.

ولم تعمل جماعة لسان المغرب على انفراد، ففي نفس الفترة تكونت جماعات

أخرى من المجددين العصريين فى أهم المدن. وجماعة فاس هى الجماعة الوحيدة التى أمكن الحصول على بعض المعلومات فى شأنها. كان عبد الحفيظ الفاسى رئيسا لهذه الجماعة وكان عبد الوهاب الفاسى كاتبها لها. ومن بين الأعضاء الآخرين لا نعرف إلا أسماء سعيد الفاسى والمهدى الفاسى وعباس الكردودى. وقد كان أعضاء هذه الجماعة مقتنعين بضرورة إصلاح المجتمع الذى يعيشون فيه إصلاحا جذريا، فساهموا تحت قيادة رئيسهم فى وضع مشروع دستور لسان المغرب. وقد شرعوا بأنفسهم فى تطبيق مبادئه داخل عائلاتهم، لا سيما فيما يرجع إلى التعليم. وهكذا فقد اعتنوا كثيرا بتربية ابنائهم وحثهم على متابعة كل دراسة تكون جل برامجها ومناهجها غربية. ثم أنهم جميعا انكبوا على دراسة لغة اجنبية. (14)

وكان المخزن وكذا كل من يتمتع بامتياز ما، يشاهدون بتخوف وحنر نمو الافكار الديمقراطية التى كانت تدعو إليها هذه الجماعة من الرواد. أما مشايخ الطرق، وكانوا يتعرضون مبدئيا لكل بادرة لها طابع التجدد العصرى ومن شأنها أن تدمج المغرب فى التيارات المعاصرة الكبرى، فلم يكن موقفهم يختلف عن موقف اهل الحل والعقد، ولذا فقد ابتدأت الجمعية نشاطها الإصلاحى فى شكل جمعية سرية.

والخلاصة أن وثيقة مشروع دستور 1908 باعتبارها الأولى من نوعها، تشكل شهادة ناطقة عما كان ينشده قسم هام من المثقفين المغاربة كما أنها تكتسى أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الحركة التى كانت تسعى فى الإصلاح والتحديث حسب متطلبات العصر، والدفاع عن وحدة التراب المغربى. وفى خضم هذه الحركة النهضوية كانت مذكرات الفقيه الحجوى والتى كان يبعث بها للسلطان عبد العزيز ثم لمولاي عبد الحفيظ، تنحى باللائمة على فساد الأوضاع بالمملكة وتدعو إلى الإصلاح والتجديد (15). ولكن النهج المخزنى المعتاد كان يرى فى كل تحول تهديدا لكيانه، ورجاله المستغلين لضعفه أصبحوا خائفين على مصالحهم الخاصة لما كانوا يرونه من نمو الأفكار الديمقراطية، وهو ما يتنافى مع تخليد المناهج العتيقة المساعدة على اشباع الرغبات. فكان رد فعلهم هو التعرض لكل مبادرة تحمل طابع التجديد تاتى من

(14) (انظر نشرة جمعية تاريخ المغرب - العدد 2- 1969).

(15) الكلام عن هذه المذكرات بتفصيل سياتى فى غير هذا المقام.

جماعات المجددين العصريين ورواد الأفكار التقدمية التي كانت تنشرها جماعة «لسان المغرب».

ولذا كان لزاما على هذه الجمعيات التقدمية مزاولة نشاطها الاصلاحى تحت رداء السرية. ورغم اختلاف مشاربها الايديولوجية (تيار صوفي وتيار سياسي - سلفي - متنور، وتيار سياسي ليبرالي) فانها كانت تعمل باتصال بين جميع اعضائها من أجل تحقيق استقلال المغرب والمحافظة على وحدة ترابه وانجاز الاصلاحات الجذرية التي دعى إليها دستور «لسان المغرب».

كان تداخل هذه التيارات النهضوية التي كانت تحرك المغرب خلال سنة 1908 يبنى بتشيد جديد لصرح الدولة المغربية وكان من شأن حركة جماعة لسان المغرب أن تلعب دورا طلائعيا، وهي تعمل باتصال مع غيرها من الجماعات ذات المنحى السلفي المتنور، في جعل حد للجدل الذي طبع مسألة الإصلاح في المغرب خلال فتراته التاريخية، والسلوك بالإصلاح عبر مسالكه الفعلية. لكن معركة الاصلاح، لما ظل يكتنفها من علاقة تنافر بين خطاب الفكر المجدد والواقعية السياسية، وما طبعها طوال العصور من تنازع حاد بين انشداد العقل التقليدي في مرجعيته الراكدة، وانفتاح الفكر النهضوي في مكامن مرجعيته الاصيلة المتنورة التي تفضل التعامل مع متطلبات العصر بواقعية المسؤولية التاريخية المبنية على الأصول داخل مصادرها الانسانية، نقول أن معركة الاصلاح قد خسرها المغاربة مرة أخرى بسبب تقاطبهم وخذلانهم، فكان عليهم أن يتلقوا الدرس من الخارج.

لكن رغم ما طرأ على المغرب من تطورات في مجاله الاصلاحى نتيجة سقوطه في قبضة الاستعمار فإن السلفية المغربية المتنورة ظلت متأثرة بالعلماء المنظرين الذين مزجوا السياسة بالسلفية - وقد أتينا على ذكر البعض منهم على سبيل المثال لا الحصر - وقد تحققت ذلك بفضل الدور الطلائعى لجامعة القرويين لما قدمته من خطابات اصلاحية ثورية صادرة عن ثلة من الزعماء السياسيين الذين أعطوا للسلفية المغربية وجها جديدا تجلى في اشاعة الروح النضالية من أجل الحفاظ على الهوية المغربية الحقة.

«فهذه العناصر وغيرها هي التي ساهمت في تكوين الجيل الأول من الوطنيين.

والنموذج الأمثل الذى جسد السلفية فكرا وممارسة هو شيخ الاسلام محمد بلعربى العلوى. فعلى مستوى الفكرة تجاوزه لكتب الفروع إلى كتب الأصول، والتركيز على الثقافة العربىة من خلال مقوماتها الروحية. وعلى مستوى الممارسة: إيمانه بالجهاد وانخراطه فى نضال موحى وحمو الزىانى، ومراسلته لعبد الكرىم الخطابى⁽¹⁶⁾.

(16) مجلة أمل - العدد 7- 1996 ص 123 (ندوة المقاومة والاستقلال خلال القرن العشرين - مداخلة الاستاذ محمد الفلاح العلوى).

الفصل الرابع

من الإصلاح المرفوض إلى الإصلاح المقروض

وهكذا انتهى أمر الإصلاحات إلى سلطات الحماية كما هو معلوم بعد أن تقلبت فكرة الإصلاح المنبثقة من الداخل في عدة مراحل سبق الكلام عنها بأسهاب، ويمكن تلخيصها في المحطات التالية:

1- تزايد الاحتكاك بالبلاد الأوروبية والانبهار بما يوجد عند الآخر:

كان المنطلق هو الشعور المتولد لدى السلطان محمد الثالث عن أحداث النهضة العلمية والصناعية والفكرية التي عرفتها أوروبا في القرن الثامن عشر، خاصة أحداث الثورة الفرنسية والأمريكية وما كانت توحيه للسلطان المغربي من توق إلى الاطلاع على الآفاق «النصرانية» وإلى مراقبة كل ما يجري في العالم الغربي لأدراك نوابض صعوده وأسباب تفوقه في شتى المجالات العلمية والحضارية، وهو ما جعل المخزن يعير الاهتمام لشؤون الاسطول البحري والاقتصاد والتجارة الخارجية ويبحث عن وسائل التفتح على العالم الخارجي حيث انطلقت الدبلوماسية المغربية في ابرام المعاهدات السياسية والتجارية مع الدول الغربية.

وانطلاقا من هذا الاحتكاك بالبلاد الأوروبية تمكن السفراء المغاربة والموفودون التجار من مشاهدة العمران والتقدم الصناعي وما أصبحت تتوفر عليه الأقطار الأوروبية من منشآت إدارية واقتصادية ومصالح عمومية تعنى بالتنمية المادية والفكرية للمواطنين، مما كان الفرقاء المغاربة يحكونه أو يدونونه بمذكراتهم.

إلا أن هؤلاء رغم استقرارهم بالبلدان الغربية لمدة من أجل تنشيط العلاقات السياسية والمبادلات التجارية بين تلك الدول والمملكة المغربية، فإن نوعا من اللامبالاة كان يصرفهم عن الإدراك بأن ما عاينوه من معالم رقى هو وقوف ذاتى على حلول اللحظة المناسبة للقيام، عند العودة إلى الوطن، بالدعوة إلى الأخذ بما يليق من الأساليب الأوروبية لإصلاح الأوضاع العتيقة التي تعيش عليها البلاد. فكان من نتائج هذه السلبية أن ظلت الفكرة الإصلاحية ضبابية لم تصل إلى درجة محسوسة من الوعي، وظل ما دون في الصحف والمذكرات مقصورا عن «الاعجاب» بما شاهده هؤلاء الموفودون عند الآخر الأوروبى «كل منهم حسب منحاه، لكنهم في مجملهم قد اعجبوا بالمكانة التي تحتلها المرأة الأوروبية وبتمتعها بحريتها... لدرجة أن السفير أحمد بن قاسم الحجري «صعق» بحب احداهن، وابن عثمان نظم قصيدة شعرية تغنى فيها بجمال «نصرانية!!»⁽¹⁾

وقع الاحساس بهذا الاعجاب في وقت كانت اوربا تحسب ألف حساب لقوة الجيش المغربى وهيبته اسطوله ونشاط سياسته الخارجية، فكان الظرف إذن جد موافيا للدولة المغربية لقيامها بحركة اصلاحية شاملة تجعل منها دولة عصرية متقدمة على الأصدقاء السياسية والاقتصادية والعلمية، وكان من المتيسر الاكيد تحقيق هذا الانبعاث من دون خشية عراقل خارجية، لان الاطماع الاجنبية في النيل من كياناتها لم تكن قد اتخذت وجها مخيفا لأننا لم نكن بعد هزمننا في ايسلي وفي تطوان، ولم تكن مظاهر الضعف والتقهقر قد بدت بعد على جهازاتنا العسكرية والادارية والمالية، أو أن مغربنا فقد جانب عظمته وهيبته وتقوضت شوكته الدفاعية في أعين الآخر الأوروبى، فكان حتما أن يتخلف المغرب عن الركب التقدمى بمسافات لعدم اقدامه على المسك بخيوط الارتقاء في الظرف المناسب لأنه أساء فهم السبل التي تمكنه من ملاحقة ما فاته.

2- فقدان دولة المخزن لمناعتها نتيجة الهزيمتين:

البحث عن سبل الاصلاح ووسائله بات يعانى مما تأكد لدى الرأى العام في الداخل من فقدان دولة المخزن لمركزها الدولى ولمناعتها الدفاعية نتيجة الهزيمتين

(1) عبد المجيد القدورى - سفراء في أوربا 1610-1922 (بالفرنسية).

وهو ما أدى في الداخل إلى اضطرابات قبلية وإلى فتح السوق المغربية على مصراعيها للتجارة الأجنبية نتيجة التهديدات والغارات الأوربية على الشواطئ المغربية، وفي نفس الوقت اشتد الحاح بعض دول أوروبا، خاصة فرنسا وإسبانيا في انتصاهما «المساعدة» المخزن على ادخال اصلاحات على البلاد المغربية. وفي هذا الصدد كثرت المقترحات والمناورات والمطالبة بتعميم الامتيازات من لدن القنصليات الأوربية، وفسح المجال للمغاربة للاحتماء بالجنسيات الأجنبية وكل ذلك انما يريد به الطرف الأجنبي خلق الجو الملائم لبسط اليد على اركان الدولة المغربية.

في هذا الخضم اعتلى السلطان مولاي الحسن العرش (1873)، وكان هذا الملك العظيم يدرك حقائق البلاد حق الادراك، ومن أجلها انتهج سياسة مرنة تجنبت كل مجابهة خارجية، وداخلية كلما أمكنه ذلك. فقد تميزت سياسته الخارجية بحصافة نادرة استغلت تضارب المصالح الأجنبية وتشابكها في تطلعها إلى الحصول على حظوة لدى السلطان. وحتى في أشد الأحوال لم يكن الحسن الأول يثير عداة ضده من الدول العظمى ادراكا منه بسوء الأوضاع الداخلية، خاصة التدهور الذي بدا على روح المواطنة من جراء الاحتماات للتوصل من تأدية الضريبة، وشدة الاغتباط بالتعامل مع الأجنبي حرصا على اقتناء الربح ولو أضر ذلك بمصلحة البلاد وخالف الأوامر السلطانية.

أما الملك فقد كان يتحسر للوضع الشاد الناجم عن معاهدة «الباب المفتوح» (1856) ومعاهدة مدريد (1880)، ولكنه استجابة لوعي النخبة المغربية بضرورة ادخال الإصلاح على أجهزة الدولة، لم ينصرف عن اهتمامه بمعاودة التقاليد التي سار عليها والده في توجيه البعثات الطلابية إلى الخارج للانفتاح على عالم أوروبا - عالم الحداثة - رغبة في تحقيق الإصلاح المنشود.

فلقد انتبه السلطان والزمرة القليلة من المثقفين الزهاء في وقت مبكر إلى ضرورة ادخال أنظمة تعليمية جديدة ترفع من مستوى ميادين الادارة والجيش والجبابة وتنظيم المجتمع، أملا في تحقيق تقدم البلاد والتحاقها بالركب الحضاري، واتجهت العناية إلى ارسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وتم بالفعل توجيه الكثير من الشباب المتخرج من القرويين إلى عدد من بلدان أوروبا للتكوين في المجالات العلمية والمعرفية من رياضيات وهندسة معمارية وعسكرية، وطب وطبيعات وادارة وجبابة، وأجرى عليهم

المخزن النفقات الكافية... لكن، باستثناء بعض الأطر العسكرية التي وقع تطعيم الجيش بها، كان مصير باقي المتخرجين في شتى فروع المعرفة والتقنيات الحديثة، مصيرا أليما بسبب سياسة التهميش التي استعملت ضدهم.

«وكان سبب فشل هذا الرهان على حقن ميادين الإصلاح بالخبرة العلمية الحديثة الوافدة من اوربا، هو التقليد الذي مثلته فئة من الفقهاء ورجال المخزن الذين ناهضوا التحديث العلمى لأسباب فكرية واجتماعية: الخشية من تجديد النظام العلمى والادارى بنخبة جديدة تنازع التقليدية رأسمالها الرمزي والعادى»⁽²⁾.

وتأكيدا للردود السلبية التي تسببت في اخفاق التجربة الملكية في التعويل على الاستفادة من خبرة «المتخرجين» من المعاهد الاوربية نسوق فقرة لابن زيدان تعبر أحسن تعبير عن هذا الاخفاق، إذ يقول «لما نظر (ويعنى السلطان الحسن الأول) إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضى والطبيعى من القوة والسلطان والتفوق على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزج ببلاده في ذلك الميدان الواسع فعضد ارسال الشبان المتخرجين من مدرسة والده، وتوجهوا لعواصم اوربا لتتيم دروسهم... ولما زاولوا دروسهم وملأوا بكل نافع حقائبهم، يمموا بلادهم ليشتتوا فيها ما ينفع مستقبلهم. فلم يعدوا معاكسا وقف سبيلهم، وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذي رافقوهم في دروسهم. فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا. والله في خلقه شؤون»⁽³⁾.

وفي نفس السياق نقرأ لعبد الله ابراهيم «أن السلطان الحسن الأول أرسل كما أرسل امبراطور اليابان مييجي أيضا بعوثا من الشباب إلى انجلترا وفرنسا وايطاليا والسويد ليتلقوا في مدارسها العليا تعليما قد يؤهلهم لأن يصبحوا به في بلادهم بناء ومجددين، ولكن جهاز الاستقبال في اليابان كان غيره في المغرب، فكان مصير الشباب المغاربة في اوربا مصيرا محزنا لدى عودتهم إلى البلاد، وهكذا فان المغرب ضل الطريق الذي سلكه اليابانيون الذين بعد عودة بعوثهم من اوربا حولوا اليابان كلها إلى ورش للعمل بمساعدة الفنيين الاوربيين، فيما كان على المغاربة أن يتسلموا

(2) عبد الاله بلقزيز م.س.ص. 113.

(3) اتحاف اعلام الناس. ص. 465.

الانذار من الخارج، وفي هذا الصدد كتب مغربي معاصر يقول «وفد على السلطان أيداه الله عدة باشدورات - سفراء - أجناب مثل الفرنسيين والاسبانيول والبرتغال وغيرهم، وتكلم الباشدور الفرنسي في شأن بابور البر-القطار- والتلغراف واجرائهما بالمغرب كما هو الشأن في سائر المعمور، وزعم في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى. وهو والله عين الضرر، وإنما النصارى خربوا سائر البلاد فأرادوا أن يخربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم (الناصري)»⁽⁴⁾.

والخلاصة أن سياسة المولى الحسن الأول تركت انطبعا لدى المؤرخين المستشرقين أن هذا العاهل رغم علو همته وقدرته على مواجهة المعضلات وتمكنه من الحفاظ على الجانِب الأمني في مملكته، فإنه لم يستطع ادخال اصلاحات جذرية على الحكم ازاء مخزن مخاذل ورعية متنافرة، كما لم يستطع ادخال اصلاحات جذرية على الحياة العامة للبلاد، ذلك أن حالة البلاد المهتدة بشتى الاخطار، لم يعد يكفيها التدبير اللبق والمثابرة على حل الازمات الداخلية، بل كانت محتاجة إلى التخلص من المفاهيم المتجاوزة في الحكم والادارة، تلك المفاهيم التي كانت تصر بعناد على الاستمرارية والهيمنة على الذهنيات المغربية.

3- موت السلطان الحسن الأول وتفاقم الضغط الخارجي:

بموت السلطان الحسن أصبح المغرب يواجه في مطلع القرن العشرين نوعين من الخطر: الخطر الخارجي المتمثل في تزايد الضغط الأجنبي لحمل المخزن على التعجيل بتزويد المملكة بالاصلاحات «الكفيلة بفسح المجال الاوربي لتحقيق مشاريعه التجارية» وقد أدى هذا الضغط المصحوب بالتحرشات العسكرية الفرنسية المفضية إلى احتلال مناطق بالحدود الجزائرية الغربية وحتى داخل البلاد، إلى تقرير عقد مؤتمر الجزيريات الذي كرس - كما سبق ذكره - الامتيازات المخولة للأجانب بخصوص الحرية الاقتصادية للبلاد وانفتاحها في وجه جميع الدول خاصة فرنسا واسبانيا باسناد مهمة اجراء الاصلاحات إليهما مع التنصيب على حق مراقبتهما للقطاع الجمركي والجهاز الشرطي المقرر احداثه. هذا مع اسناد مهمة خاصة لفرنسا في اقامة مشاريع الاشغال العمومية، مما يؤسس في الواقع لحماية فرنسية اسبانية على البلاد.

(4) صمود وسط الاعصار. ص. 93-94.

وعلى الصعيد الداخلى فالدولة كانت تواجه الخطر الآتى من ثورة بوحمارة المتمرد على السلطة الشرعية للمملكة، مما تسبب لها فى نزيف مالى قل نظيره وحملها على الاستنجاد بالقروض الاجنبية التى أصبحت تثقل كاهل الخزينة وتسير بالدولة نحو التنازل عن جزء من سيادتها بالسماح للأطراف المقرضة بمراقبة محاصيل الجمرى وغيره لاستيفاء ديونها. وأمام وضع كهذا لم يكن المخزن قادرا ماليا على مواجهة أى اصلاح مما كان يلح عليه الجانب الأوربى رغبة فى التدخل فى الشؤون المغربية، وطبع الفترة العزىزية بالاضطرابات على أكثر من واجهة.

ولم يكن السلطان عبد الحفيظ بأوفر حظا من أخيه عبد العزيز فى القدرة على تجسيد ارادة الاصلاح التى كانت تحدهما، لأن كل تغيير للأوضاع العتيقة (المألوفة) كان يجد، فضلا عن القصور فى المال والمنهج، معارضة شديدة من ذوى الحل والعقد والعلماء التقليديين حفاظا على المصالح الخاصة أو «خشية» على الدين الحنيف.

لذا أبى اولئك وهؤلاء إلا أن يستبشعوا منطق الحدائثة والدعوة إلى التحديث لأن ذلك فى نظرهم سيؤدى إلى هزيمتهم وانزالهم من المراتب التى يعتلونها. ومن هنا ندرك عدم الالتفات إلى الصيحات التى كانت تتعالى من المذكرات⁽⁵⁾ التى كان الفقيه الحجوى يبعث بها إلى المولى عبد العزيز ثم للمولى عبد الحفيظ. وكان يدعو فيها إلى اصلاح الأوضاع، والتنديد بالفساد، والدعوة إلى النظام نقيض الفوضى التى تعم البلاد.

4- مظاهر جدلية الاصلاح فى مطلع القرن العشرين

فى هذه الفترة كانت نخبة من العلماء من دعاة السلفية المستنيرة منشغلين ايما انشغال بمسألة ملائمة ادخال التقنيات الحديثة على الهياكل الادارية والاجتماعية للبلاد، وحتى على بعض مظاهر الحياة الدينية كالقبول بتلاوة القرآن الكريم عن طريق الفونوغراف، والموافقة فى الخبر الشرعى عن ظهور الهلال بوسيلة التليفون والتلغراف. وهذا الانشغال قد تميز على صعيد الواقع بما اكتنفه من جدل بين مختلف

(5) خاصة مذكرة انتحار المغرب الأقصى بيد نواره الموجهة للسلطان عبد العزيز والرسالة الموجهة للمولى عبد الحفيظ فور اعتلائه العرش المغربى.

الذهنيات الفقهية، ومن حضور مباشر للسلطان بلجونه للفتاوي الشرعية كلما تعلق الأمر باقرار حدائة قد تكتسي طابع «البدعة»، الشيء الذي يمكن معه التأكيد أن الذهنية المغربية في العقد الأخير للقرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت تربط بشكل ضيق مسألة الاصلاحات الادارية والاجتماعية، والموافقة على المستجدات واقرار التقنيات الغربية، بهاجس الحذر من «بدعة» التحديث.

ولا يعيننا في هذا الموضوع ما كانت تسفر عنه بعض الفتاوي الجريئة، مثل فتاوي الفقيه الحجوي والأعرج السليماني، من اعتراضات وجدل، بقدر ما نسعى إلى تسجيله من «أن الجدل الدائر حول معنى-البدعة- قد امتد ليشمل مختلف صور الحياة الاجتماعية، وان تجلت في صورها الدينية، وأن اتساع الجدل في البدعة يدل على وجود «رياح تحديثية» تنفخ في شتى الاتجاهات وتسعى لتعصف بمختلف الصور الراسخة والعادات»⁽⁶⁾.

كما أن هذا يدل على أن المغرب في هذه الفترة كان يقف في حيرة بين إرادة الاصلاح والمخافة من ضياع الشعائر الدينية وفقدان الهوية، وذلك من دون أن نطرح من الحساب أن ماتحملة الاصلاحات من تنشيط للمجتمع المدني الفاعل ومن اشاعة للمبادئ الديمقراطية كان أمرا لا يطمئن إليه الجالسون على كرسي المناصب العليا وأصحاب الثروات العظمية، خوفا من التغيير الذي قد يطيح بنفوذ بعضهم المبني على الفساد السياسي العام. أضف إلى ذلك اللامبالاة التي كانت تطبع حياة التجار والأعيان المحتمين بالحمايات الاجنبية، ثم تعصب بعض المنتصين للفتوى الدينية، فكل ذلك حال دون استيعاب أي اصلاح يعنى باجراء التحديث والعصرنة مما كان قناصل الدول الاوربية يقترحونه على السلطان وكان هذا الاخير يعرضه على الرعية بواسطة رسائل تتلى في المساجد، وباستفتاءات العلماء وأهل الحل والعقد لابداء الراي فيه.

فالإصلاح لو كان من المقدر له أن يتحقق كان ولا بد أن يطال كل المؤسسات العامة وعلى رأسها تقوية الجيش، وتطهير الاساليب الادارية، ومضاعفة الموارد المالية. إذ على تقوية هذه المؤسسات وتحديثها يرتكز كل استقلال حقيقي للبلاد. ولكن المغرب لم يكن يفتقر للمال فحسب بل وأيضا لاجماع كلمة الامة على

(6) سعيد بنسعيد العلوي - الاجتهاد والتحديث - ص 34.

الإصلاح خاصة أهل الحل والعقد وهيئة العلماء بجميع اتجاهاتهم الإصلاحية، وذلك لما اتسمت به مسألة الإصلاح من عدم توافق حول مضامين الإصلاح وسبل تحقيقه، وجدلية كلامية بين تحكيم العقل وترسيخ النقل.

وإذا كان الحسن الأول لم يواجه مشكلا يستحق الذكر بالنسبة لتطوير الجيش وتقويته شيئا ما بتوظيف بعض الأطر العسكرية الأوربية، وبتوجيه بعثات الضباط المغاربة للبلاد الغربية أو العثمانية، للتمرس في المناهج الحربية الحديثة مما سبقت الإشارة إليه، فإن الإصلاح الإدارى بالنظر لما كان يتطلبه من قلب للأوضاع القائمة رأسا على عقب ومن اتباع مناهج تعليمية حديثة تستوعب مواد علمية وتقنية دخيلة على الطرازات المخزنية التقليدية، لم يكن من الممكن تحقيقه بسبب اعتراضات الفقهاء وخلافاتهم المذهبية وأيضاً بسبب استياء البروقراطية ذات المراكز القوية والمصالح الخاصة الراضة لكل تغيير أو تغير أو تحديث.

ومن جهة أخرى فإذا كان السلطان فى المغرب القديم يبدي نوعاً من الأذعان للمعارضة ويتعامل مع فكرة الإصلاح بشيء من السلبية بالرغم من الرغبة التي كانت تحدوه في أن يرى تحقيق الإصلاح فإن هذا السلوك المتناقض قد نجد تفسيراً له في التزام السلطان بفروض البيعة التي لم تكن تسمح له بأن يفرض على الأمة إصلاحات مقترحة من الأجنبي الأوربي المستراب في نيته، ولذلك فلم يكن للحسن الأول وللخليفة عبد العزيز وعبد الحفيظ، أن يحولوا ملكية مقيدة ببيعة شعبية متأصلة من جذور دينية إلى زعامة تستبد بفرض الإصلاح على غرار القائد المصري محمد علي، أو بالأحرى على غرار الامبراطور مييجي الياباني. وهذا ما يفسر مواقف الملوك المغاربة المتوازنة بين التفتح على الخارج والحفاظ على كيان التقاليد المرعية في الداخل.

وخلاصة القول أن حركة الإصلاح في المغرب كانت تلقي معارضة من المحتممين بالجنسيات الاجنبية أصحاب الثروات، ومن الاقطاعيين ملاكي الأراضي، ومن المتربعين على كرسي المناصب العليا للبلاد. وكانت هذه المعارضة كثيراً ما تستر بفتاوى الفقهاء وآرائهم التقليدية للقول بلاشريعة الإصلاحات المقترحة وبتنافيها مع التعاليم الدينية، أضف إلى ذلك أن الجمهور الأمي كان يرى في الأنظمة القائمة مجموعة من العادات والتقاليد المتجاوزة يجب المحافظة عليها إخلاصاً للماضي،

لا يعطى لانعكاساتها على الاقتصاد وعلى التطور الاجتماعي والسياسي أي اهتمام، وهو ماجعل أيضا حماس النخبة المجددة تجاه الإصلاح الليبرالي يغمر في التناقض بسبب ماكانت تتطلبه حاجيات الإصلاح وملابساته من تواجد للأجنبي «الكافر» في بعض المواقع التقنية التي لم يكن المغاربة مهيين للقيام عليها، خاصة بعد أن أوكل عقد الجزيرات مهام الإصلاحات لكل من فرنسا واسبانيا.

أما عبد الله العروي فيرى بأن النظرة إلى رفض التقنيين الاجانب كانت نظرة خاطئة وذلك لكونها أدت إلى نتيجة عكسية لأن العدول عن الإصلاح المؤطر بالتقنيين الاجانب أدى شيئا فشيئا إلى تدهور الوضع المجتمعي والاقتصادي في البلاد مما عجل بفرض نظام الحماية على المغرب كما هو معلوم، وكانت النتيجة أن أصبح بمستطاع القوى الأوربية تطبيق برنامج الإصلاح بطريقة أكثر عزمًا، الشيء الذي تغير معه معنى الإصلاح في ظل الوضع الاستعماري، إذ بدل تحديث البنية القائمة، شيدت بنية غريبة كليا فوق المجتمع العربي. وبذلك أصبح التحديث وإضفاء الطابع الليبرالي الاستعماري، وبفعل قوة الأشياء، كلمات مترادفة، ولازالت النتائج السلبية لهذا الالتقاء التاريخي تؤثر إلى اليوم على السياسة والسلوك العربيين⁽⁷⁾.

وقبل فرض الحماية كان الفقيه الحجوي يكتب في مذكراته للسلطان عبد العزيز ناصحا اياه بادخال الإصلاحات الضرورية لتطوير البلاد وتحديث هيكلها الادارية وتنظيم بنيات المجتمع الاساسية «حتى إذا جاء المستعمر وجد في البلاد مؤسسات وبنيات اجتماعية فيضطر إلى الحفاظ عليها واحترامها والتعامل معها كما فعل المستعمر في بلاد مشرقية أخرى. أما إذا وجد فراغا سياسيا وغياب مؤسسات اجتماعية وادارية وتمثيلية استغل هذا الفراغ والغياب لفرض مقترحاته وتمير مشاريعه الإصلاحية التي ستخدم بالدرجة الاولى تطلعاته ومصالحه»⁽⁸⁾.

وعلى أي، فلامنص من أن نرى في هذا الحذر من «المستجدات» التي كان يلوح بها الغرب علينا سواء عن حسن نية أو عن سوء نية، إلا نقيضا لما يعتقد المغاربة اليوم - داخل معظم شرائحهم - من أن كل ما هو آت من الغرب فيه خير للبلاد والعباد.

(7) عبد الله العروي - اشكالية الدولة العربية الاسلامية - مجلة المشروع اكتوبر 1980.

(8) مذكرة «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره والرسالتان الملحقتان بها» - م.س -

الفصل الخامس

تطور مفهوم الاصلاح في المغرب في مطلع القرن العشرين

بانتشار الدعوة التنويرية المتمثلة في زمرة من رجال الفكر ممن سبقت الاشارة إليهم ثم بظهور حركة التيار الليبرالي التي تجسدها جماعة «لسان المغرب»، سينتقل مفهوم الاصلاح من المناداة باقرار المستجدات العصرية في تنظيم الدولة عن طريق الملاءمة بين الشرع والتحديث، إلى الجهر بالمطالبة بالدستور والحياة النيابية. فكيف تم ذلك؟

1- تفاقم مظاهر الفساد الاداري واندراج السيادة نحو الانهيار

لقد تجدرت أفكار الاصلاح لدى الحكومة المغربية وتقوت العزيمة في تحقيقها تحت عامل الضغوط الاجنبية (خاصة في العهد العزيري) للحصول على سلسلة من الامتيازات في المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية، وكان السعي من وراء فرض «البرنامج الاصلاحى» المقترح من لدن سفراء فرنسا وبريطانيا العظمى واسبانيا، هو هدف الاشراف على شؤون الدولة وبالتالي المس بالسيادة المغربية في انتظار فرض الاحتلال.

ولا يختلف اثنان في كون تراكمات من العطب العسكري والاداري والسياسي قادت المخزن في مطلع القرن العشرين إلى تنازلات صيغت في شكل معاهدات ارتجالية مكنت المستعمر الاوربي من الاندراج نحو انهيار ما تبقى من تماسك «الواجهة» الحسنية والوقوف عند مقابض الاستسلام.

فإذا كانت هزيمتا إيسلي وتطوان مبدرة لمناعة دولة المخزن ولتقوية "طابور

المحميين، فإن الوعى بتمالك القدرات القومية فى مقاومة الاسباب الموضوعية لانفراط السيادة المغربية، لم يغب عن النخب الواعية التى تابرت على تحقيق افكار الإصلاح السياسى تارة بالدعوة المرتكزة على النصوص الفقهية وتارة بالكتابات السياسية، فى هذا الصدد نقرأ لابن زيدان نصا معبرا عن الوضع الذى نال من هبة الدولة المغربية، إذ يقول: «غير خاف ما كانت عليه السياسة الخارجية بهذه المملكة المغربية بعد حرب تطاوين، وما نشأ عنها من تداخل سفراء الدول فى القضايا والوقوف للمخزن فى أوعر المسالك وأضيق المآزق، وتكثير الحمائيات وتطاول المحميين على الحكام المخزنيين»⁽¹⁾.

والأدهى من ذلك أن استدانة الدولة المخزنية إزاء بعض الدول الاجنبية أعطى لتلك الدول مبررا لمراقبة محصولات الخزينة المغربية، مما خلق من الحاجة الملحة والمتكررة إلى القروض الأجنبية واقعا يقبل معه السلطان بما يمس سيادة الدولة، وهو وضع وصفه الفقيه الحجوى بقوله: «وانقطعت المادة عن الدولة العززية بانقطاع كل جباية عدا دخل المراسى ومكس المدن، وذلك لا يكفى للموظفين ومعونة السلطان التى لم يكن فيها نظام... فاحتاج المغرب لعقد السلف من اوربا، والسلف مبدأ التلف، فأوجب الرهن التداخل فى أحوال المرهون مما هو معلوم»⁽²⁾

وفى كتاب مفتوح للسلطان عبد العزيز يلقي الفقيه الحجوى صيحته محذرا من النزيف الذى يطال سيادة البلاد فيقول «إذا أصغينا إلى ألسن السفراء الأجانب وقناصلهم وكيف كانت تتداول السياسة مع المخزن وعلى أى نسق كانت تخاطبه، وكيف صارت الآن تدريجيا حيث وقع التداخل فى كل الشؤون: فى تنصيب الموظفين وعزلهم وحمائتهم فى وظائفهم... علمنا الفرق العظيم والبون الشاسع بين اليوم والأمس، وعلمنا أن هذه الأمة قد وقعت فى شرك القانص الاوربى وتمكنت منها مخالبه. والحال أن جل دول العالم المسلوبة الاستقلال تستقل وترتقى فى هذا العصر، عصر المدنية والمعارف»⁽³⁾.

(1) ابن زيدان: اتحاف اعلام الناس ج II. ص 279.

(2) الفقيه الحجوى، تقرير تاريخى عن حال المغرب بعد الحماية - مخطوط فى الخزانة العامة بالرباط رقم ح 254 ص 8-9.

(3) التشديد منى.

ورغم ماكانت تعرضه النخب المغربية على المخزن من مقترحات تعني الاصلاح الاداري والجبائي⁽⁴⁾ فلم يثمر ذلك شيئا في فترة كان الفساد تغلغل في هياكل الدولة من جراء اللامبالاة والابتزازات المحتممية بالفاعل الاجنبي، مما سيأتي على نهاية دولة المخزن.

والفساد الاداري الذي طال الفترة العزيزية تجلى بالدرجة الاولى في «الاستهتار الذي بلغه سلوك الدولة تجاه ممثلي الرعية»⁽⁵⁾ فقد كان السلطان عرض على مجلس الاعيان برنامج الاصلاحات المقترحة عليه سنة 1905 من لدن سفير فرنسا (سان روني تايلاندي)، لكن «وفود الاعيان طال مقامها (بفاس) إلى أن كان مؤتمر الجزيرة الخضراء باسبانيا وبعد هذا المؤتمر وفي حال المؤتمر لم تقع مشورتها في شيء، وسرحوا يذهبون من غير أن يقع جمعهم ولا اعلامهم بما وقع، ولا جبر خاطرهم بكلمة، فضلا عن أخذ رأيهم. وهذا من أعظم الأشياء التي توجب التعجب من السياسة الخرقاء التي ارتكبتها الوزارة العزيزية فهي في نظري عين الانتحار لدولة المولى عبد العزيز»⁽⁶⁾.

«فهذا بيان صارخ ضد ذلك الفساد، وتشهير حاد به ممزوج بمرارة من يدرك أن خطابه النقدي يلقي في محيط غير آبه بما يجري، ولاه عن رعاية الشؤون العامة»⁽⁷⁾.

ولعلنا من هنا ندرك الدوافع التي حدت بالفقيه الحجوي إلى رفض مشاركته في الوفد المغربي لدى مؤتمر الجزيرة الخضراء... «وعزم المخزن على عقد مؤتمر الجزيرة، فاستعفيت سنة 1323 (1905) واستقدمني السلطان، فقدمت فاسا، وعرض علي أن أسمى عضوا في المؤتمر، فاعتذرت، وليس كل عذر يبدو ولا كل داء يعالج...»⁽⁸⁾.

(4) نشير على الخصوص إلى مشروع القائد الحسين عبد الله بنسعيد لادخال الاصلاحات الضرورية على الدولة في 19 بندا تناولت احداث مجالس محلية واعادة النظر في التنظيم الاداري والجهاز القضائي والترتيبات الجبائية والغاء الامتيازات وغير ذلك مما يبلور نضوج الفكر الاصلاحى عند النخب المغربية (انظر تأليف الاستاذ أبو بكر القادري في موضوع مشروع القائد بنسعيد).

(5) العبارة داخل المزدوجتين لعبد الاله بلقزيز - الخطاب الاصلاحى - ص 177.

(6) الفقيه الحجوي - انتحار المغرب الاقصى بيد ثواره م.س. (مخطوط في الخزانة العامة - رقم ح 123).

(7) عبد الاله بلقزيز - مرجع سابق.

(8) الفكر السامي. الجزء الثاني ص 385.

2- الانتقال باشكالية الإصلاح من الدعوة التقوية النهضوية إلى طرح مسألة النظام الدستورى

لكن اشكالية اصلاح الهياكل الادارية والمالية للدولة لم تعد مسألة ادخال تنظيمات عصرية على الجهازات الرئيسية للدولة، باقناع المعارضين والتقليديين عن طريق الافناء والاجتهاد الفقهي والتجوزى الشرعى بضرورة اقامة اطارات بيروقراطية وخلق بورجوازية تتناول المال والاقتصاد من جوانبه العقلانية، بل أن الأمر أصبح يستدعى من النخب المغربية المتنورة الواعية بفساد النظام، اعادة صياغة النظام السلطاني نفسه من حيث علاقته بمنظومة الفكر السياسى الحديث، وهذا ما انتقل باشكالية «الإصلاح» من الرتق والترميم إلى طرح مسألة النظام الدستورى - أي الانتقال من محدودية المفهوم الاصلاحى وضيق تصوراتهِ وانتقاء خطاباته، إلى «القضاء على أسباب الانحطاط، وفي مقدمتها الاستبداد الذى أدى إلى الجور والاستئثار بالخيرات، والرجوع إلى حكم العدل والشورى وتحقيق المصالح العامة...»⁽⁹⁾.

ويمكن القول أن هذا النضوج فى الوعى الاصلاحى، الناجم عن انحلال مزعج فى التقاليد السلطانية الأصيلة، هو الباعث على نفور العلماء وأهل «الإصلاح» من ولاية المولى عبد العزيز واتخاذ قرار نقض بيعته وعقد الآمال على الولاية «الحفيظية» لرد الأمور إلى نصابها.

من هنا اتجهت النخبة المراهنة على الولاية «الحفيظية» من خلال بيعة مشروطة إلى «تحقيق إصلاح جذرى يجعل للأمة حق الرقابة على الدولة، ويشرك الشعب فى تقرير مصيره وتسيير شؤونهِ واختيار ممثليه»⁽¹⁰⁾. وهو أمر يستشف منه تطور تاريخى فى مضامن عقد البيعة بحيث لم تعد البيعة «شأنًا خاصًا بالنخبة دون الشعب يعقدها أهل الحل والعقد دون سواهم، بل صارت بيعة مشروطة يعقد فيها العلماء للسلطان على شروط معلومة هي برنامج عمل مجمع عليه سلفا يعرض عليه للتنفيذ»⁽¹¹⁾.

كانت ولاية السلطان عبد الحفيظ سنة 1908 مطمحا تطلع فيه المغاربة إلى الحياة الدستورية المبينة على دستور مكتوب، والبيعة الحفيظية جاءت بما يعزز هذا الاتجاه

(9) عبد الله العروى. مفهوم الدولة، ص 131.

(10) علال الفاسى - الديمقراطية وكفاح الشعب المغربى من أجلها - ص 9.

(11) عبد الاله بلقرزى - م. س. ص 184.

المعبر عن حركة ثورية تقدمية، تجلّى فيها تشبث الشعب المغربي بروح الحرية والديمقراطية، وبارادته وعزمه على إقامة نظام يفرض على النظام السلطاني استشارة الأمة في كل ما من شأنه أن يمس بمصالحها وحقوقها وكرامتها. ومما فرضته هذه البيعة المقيدة على السلطان الجديد أن يسعى جهده في رفض الشروط الحادثة في عقد الجزيرة الخضراء لمساسها بمبدأ الاستقلال ولأن الأمة لم توافق عليها ولا سلمتها ولا رضيت بها، وأن يعمل وسعه في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية، وبالجملة تلخصت شروط البيعة في اعتبار الأمة مصدر سلطة، بحيث إذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب فلا يبرم أمر منه إلا بعد التصريح به للأمة حتى تعلن قبول ما تريد منه أو رفضه، خاصة ما تعلق بمضمون المعاهدات وتقديم عروض الإصلاحات أو تخويل أي امتياز للأجانب يخرج الرعايا المغاربة من حوزة السلطة وقوانين الدولة العامة... إلى آخر ما جاء من شروط في هذه البيعة التي جدت ونظمت العلاقة بين القيادة السياسية وجمهور المحكومين، وفتحت المجال أمام النخبة الإصلاحية للصدع بمطالبها الدستورية.

ومن خلال نص بيعة فاس يتبين أن تحولا طرأ على دور العلماء بشأن عقد البيعة، فالشكل التاريخي لبيعة سلاطين المغرب لم يكن يتضمن أي تقييد للبيعة بشروط، «وهذا التحول جرى بمناسبة بيعة السلطان عبد الحفيظ عقب خلع أخيه عبد العزيز بفعل ثورة اجتمع فيها رأي العلماء والجمهور على ندرة ما حصل ذلك!». فدور العلماء أصبح واضحا جدا في تقييد الحكم الحفيظي ببيعة مشروطة، وهو دور قاموا به في المركز العلمي التقليدي: فاس، لذلك جاءت بيعة فاس مشروطة خلاف بيعة مراكش. والمصادر التاريخية تشير إلى أن الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني هو الذي وضع تلك الشروط.. وتفاصيل ذلك يمكن الاطلاع عليه في «ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد» لمحمد الباقر الكتاني، ص. 200-201، وفي «الديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها» لعلال الفاسي ص. 25-26⁽¹²⁾

وعلى ما يراه عبد الهادي بوطالب فإن بيعة السلطان عبد الحفيظ (4 يناير 1908)

(12) الخطاب الإصلاحية م.م. ص. 184-185 - انظر نص بيعة مراكش في «مظاهر يقضة المغرب المنوني» - ج/2 ص. 354-358 ونص بيعة فاس في «اتحاد اعلام الناس» ابن زيدان ج/1 ص 449-

من أهل الحل والعقد بفاس جاءت في شكل عقد بين الملك والشعب كنواة لنظام ملكية دسورية، مما نتج عنه بتاريخ 11 أكتوبر 1908 الاعلان عن مشروع دستور كامل وضعته نخبة من المفكرين السياسيين لم تكن تستهدف فقط تنظيم الحكم الدستوري بل تجاوزته المشروع إلى وضع برنامج لاقامة دولة قانون عصرية محتفظة بتقاليدها ومفتحة على العالم الخارجي في آن واحد⁽¹³⁾.

3- جماعة «لسان المغرب» ومشروع دستور 1908

وبالفعل فما أن تمت مراسيم تقلد المولى عبد الحفيظ لزاما العرش حتى تشكلت جماعة من المثقفين كان برنامجها تذكير السلطان بتعهدات بيعته ومطالبته بانشاء نظام نيابي ووضع دستور للبلاد، وفي بيان لها نشرته بجريدة «لسان المغرب» التي كانت تصدر حينذاك بطنجة، قالت «وحيث إن يدا واحدة لا تستطيع أن تنقد شعبا من الانهيار أو تعيد تنظيم إدارة منهارة مثل إدارتنا، فمن الضروري الأكيد أن يكون الذين يعملون ويفكرون ويسرون الأمور كثيرين ومتضامين في العمل... لذا وجب على صاحب الجلالة أن يمنح شعبه دستورا ومجلسا تمثليا، والحريات العامة التي تقتضيها الحالة للشروع بنجاح في تنظيم البلاد طبقا لمثال الامم المتقدمة الاسلامية منها أو المسيحية.»

فهذا دليل على أن الشعب المغربي في فجر هذا القرن لم يكن غافلا عن المطالبة بالدستور وبالحكم النيابي إذ بعد شهور خلت عن عقد البيعة حررت «جمعية الاتحاد والترقي» مشروع دستور قدمته إلى السلطان عبد الحفيظ ونشرت نصه في جريدة «لسان المغرب» في أربع حلقات من 11 أكتوبر إلى فاتح نوفمبر 1908، ويتسم هذا المشروع بالجرأة والتقدمية كما يعطي فكرة عن الروح الثورية للعصر التي أفسدها لسوء الحظ الاستعمار الاوربي المتشوق إلى احتلال المغرب مهما كلفه الأمر من ثمن.⁽¹⁴⁾

(13) انظر مشروع دستور 1908 في «النظم السياسية العالمية المعاصرة» لعبد الهادي بوطالب.

(14) تحتفظ لنا المصادر التاريخية بما يفيد أن التعبير عن فكرة الدستور جرى قبل العام 1908 أو خلال حكم السلطان عبد العزيز... بحيث نجد أن أول نص دستور أعلن من قبل النخبة الاصلاحية المغربية هو دستور الحاج علي زبير السلاوي الذي أقام في مصر زهاء أربعة وعشرين عاما ليعود =

ومهما يكن فإن (لسان المغرب) الاسبوعية الوطنية قد حفظت لنا من حسن الحظ مشروع الدستور المغربي وبعض المقالات التي تدل على ماكان يجيش بخواطر رجال العمل الوطني في ذلك العهد، وعلى أن الحركة حركة شباب ناهض ذي اتجاه قومي مضبوط. ويشتمل الدستور المغربي على أربعة أقسام: القسم الأول يتضمن القانون الأساسي للأمة، والقسم الثاني هو النظام الداخلي للمنتدى الدوري، والقسم الثالث يتضمن نظام الانتخابات العمومية والقسم الرابع يتضمن ماسماه واضعوا المشروع بقانون الجزاء المغربي، ويقضي المشروع بتأسيس هيئة تعرف (بمنتدى الشورى) تتركب من مجلسين: مجلس الأمة ومجلس الأشراف. والهيئة بمجلسيها تعتبر أعلى هيئة في البلد. ورأيها فوق كل رأي، ولها حق مراقبة كافة الادارات والدوائر الحكومية وحق الالغاء والايقاف. والتنقيح بالزيادة والنقص فيما يخص مواد الدستور، خاص بمنتدى الشورى لا يعمل بقراره في هذا الموضوع إلا بعد المصادقة الملكية عليه. وتلزم المادة الثانية والتسعون منتدى الشورى بأن يهتم في سنته الأولى بسن وتنظيم قوانين لكل ادارة من ادارات الحكومة وللوزارات وللمحاكم القضائية والعدول، ولأمانة المستفاد (وزارة المالية) وللحسبة، ولأمانة الديوانات وللضرائب، وللجبايات وغيرها، فيكون لكل من هذه الادارة والأمور المخزنية قانون خاص بها تسير بموجبه وتعمل بمقتضاه.

«وبالجملة فلقد اشتمل مشروع دستور 1908 على الجوانب التي كانت تشغل بال النخبة المثقفة في البلاد، وهو وإن لم يكن الدستور الذي يمكننا أن ننشده اليوم فهو يشتمل على النواة الصالحة التي وضعت الاتجاه المغربي في ناحية الديمقراطية الشعبية. وقد كان لنشر هذا المشروع في صحف المغرب صدى رددته تونس وغيرها من البلاد العربية. والذي يهمننا من هذا هو أن الحركة الشعبية في البلاد كانت ترى في المولى عبد الحفيظ رمزا لمقاومة الاجنبي وتنشد منه فيما يخص المصلحة القومية الغاء سائر الامتيازات، وفيما يخص الاصلاح السياسي الخروج بالدولة من النظام

= إلى المغرب عام 1904، ويتضمن المشروع 31 فصلا يعرض فيها مقترحات للاصلاح السياسي ولارساء النظام الدستوري الحديث، مقترحا عرض «الاصلاحات» المقترحة في مؤتمر الجزيرة الخضراء على لجنة تنتخب من أعيان متتوري الأمة بأمر مولوي قبل التوقيع الملوكي عليها. (انظر عبد الاله بلقزيز-الخطاب الاصلاحى في المغرب-ص 187-188-189).

الائتقراطى إلى حكى ءىمقراطى ءتمكئ به الأمة من مراقبة أءوالها واصلح شؤئها.⁽¹⁵⁾

إن الفكرة العامة الءى يمكن اسءءلاصها من هذا الءطور الءاصل فى المفهوم «الاصلاءى» بالمغرب، هى أن الشعور بالءاجة إلى الءسءور نءىءة اشراف الءولة على الانهيار، قء برز إبان الءحكم العزىزى وءبلور فى نءصىصاء البىعة الءففىظىة. وهذا يعنى أن إطار الءعامل مع مسألة «الإصلاءاء» قء اءءء وءها شمولىا لم يعد فى الءور للءعوة إلى الءءءءء عن طرىق الءءءءاء الفقهى، والءءووز بالفتوى الشرعية، بل أصبح من هموم نءبة ءورىة ءقءمىة ءسعى إلى إعاءة النظر فى العلاقة السىاسىة بىن السلءة والشعب، أو بعبارة «مءاولة الاءءقال بالءىان السىاسى المغربى من المءزن الءقلىءى إلى الءولة الءءىءة»⁽¹⁶⁾ وهو ما ءعل أيضا علال الفاسى ىمىل إلى الاءءقاء فى أن البىعة الءففىظىة، لما اءءوئه من شروط ءورىة «ءءبر عقاء بىن الملك والشعب ىءرء بنءام الءحكم من الملكىة المءلقة إلى ملكىة ءسورىة»⁽¹⁷⁾.

لكن لم ىفلء لا هذا الاءءاء ولاءك فى ءءقىق الإصلاء المئشوء. فءءاعة السلفىىن المئءورىن ممن كانوا ىءصورون إصلاءا نوعىا مبنىا على الأءء بالأسالىب الءءىة المءوافقة مع الشرىعة، قء وقفوا - ومعهم السلءان عبء العزىز - عاجزىن أمام ءءءرء الءولة نحو أءرف الاءهيار من ءراء الضءط الاءءعمارى والفتن الءاءلىة وءنازلاء حكومة المءزن عن ءزاء من السىاءة الناءءة عن اسءءاءة الءزىنة.

أما انصار المولى عبء الءففىظ الءىن ءملوا مشعل «الشورة» ضد قراءاء مؤءمر الءزىرة الءضراء الءى كرس ءفوىء ءوانب كءىرة من السىاءة المغربىة وءاء من ءظورة الءءف الفرنسى على مئاطق عءىءة من الوطن، فقء أملوا ءىرا فى بىعة عبء الءففىظ لاءقاء البلاد من المصاءرة الأءنبىة، واقراء حكى نىابى عن طرىق الءسءور المئشوء، اقراءا للءءل والنءام والامن ولفرض الءلول الناءءة لاشكالىة الاصلاء.

إلا أن هذه المراءئة الطموءة على ما سمى بالشورة الءففىظىة، كان مآءها الفشل

(15) علال الفاسى - مشروء ءسءور 1908 - الءركاء الاسءءلالىة فى المغرب العربى.

(16) العبارة لعبء الاله بلقزىز. م. س. ص. 192.

(17) الءركاء الاسءءلالىة. ص. 108. م. س.

بسبب خذلان عملاء الاستعمار من المحيط السلطاني، وحنق الاقطاعيين الذين لم يرتضوا التعامل مع النخبة المتنورة التي ساندت السلطان الجديد ومدته بمشاريع الاصلاحات السياسية والادارية وكانت ترى في تحقيق تلك المشاريع (الدستورية) حصنا حصينا للسيادة الوطنية المطلقة. لذلك سيعمل من أسماهم عبد الاله بلقزيز برموز العهد الحفيظي «على تحريض السلطان ضد النخبة، مما كان من نتيجته ايقاف جريدة «لسان المغرب» بإيعاز من الفرنسيين وتواطؤ من رجال المخزن»⁽¹⁸⁾. وفي هذا الصدد يقول علال الفاسي «وفي ثاني ماي، أمر الجباص بمنع جريدة لسان المغرب واعتقال الاخوة نمور (صاحب الجريدة)، وفي هذا الموضوع يروي السيد أحمد الزيدي: لقد تنبه الفرنسيون إلى الدور الذي تقوم به جريدة لسان المغرب، فأوعزوا إلى صديقهم الجباص، وكان إذ ذاك نائب السلطان بطنجة، بالقضاء على هذه الجريدة، فكتب لمولاي عبد الحفيظ ليستأذنه في ايقافها لأنها تنشر مشروع دستور مغربي، وفي ذلك خطر على نفوذ السلطان، فأذن له السلطان في توقيف تلك الجريدة، فأوقفها وفتش مركزها ونفى صاحبها من طنجة»⁽¹⁹⁾.

هكذا عمت الخيبة مرة أخرى أمام انزواء السلطان عبد الحفيظ - ماعدا نجاحه في القبض على الثائر بوحامرة - وتخليه ان طوعا أو كرها، عن تعهدات البيعة، وتأثيرته بقوى الاقطاعية المنتشرة في البلاد والمغوية لدرجة أنه «لما تم الأمر لمولاي عبد الحفيظ. ظهر من الجور والاختلال ما هو اقبح وأشنع مما كان في عهد أخيه، وصار الشعب نادما على فراق أخيه ويتمنى عودته...»⁽²⁰⁾ فالضغط الاستعماري وحنق الاقطاعيين أديا بمولاي حفيظ إلى سلوك سياسة تتسم بنوع من «التخلي» رأى فيها الشعب مهاودة لم ينتظرها منه، لذلك بدأ يغلي ويفور مطالبا ملكه بتنفيذ الوعود، لكن الأمر انتهى بهجوم الجيش الفرنسي على فاس، حاضرة البلاد، واعلان الحماية كما هو معلوم.

(18) أورده عبد الاله بلقزيز في «الخطاب الاصلاحى»، ص 192 م س.

(19) علال الفاسي - الديمقراطية وكفاح الشعب - ص. 40.

(20) الفقيه الحجوي - تقرير تاريخي عن حال المغرب بعد الحماية. ص3 (مرجع سابق).

الفصل السادس

استنتاجات حول معوقات الاصلاح المنشود

نستجلي من كل هذه الأحداث أن الأسباب التي أدت إلى تخلف المغرب عن الالتحاق بالركب التقدمي الحضاري رغم محاولاته العديدة للمسك بوسائل القبض على سلم الارتقاء، تكمن في عدم قدرة المتقلدين لزمام السلطة على تطوير الأساليب التقليدية في حكم البلاد وذلك من حيث النظام السياسي وتنظيم الجيش وتوحيد أطراف المملكة على أسس ادارية واجتماعية واقتصادية ملائمة

1- الإخفاق في القدرة على اصلاح المؤسسات العسكرية والمالية

فالجيش منذ أرسى المولى اسماعيل قواعده الأولى ظل يسير حسب مناهجه العتيقة وأساليبه المعتادة لم يحظ بما يكفي من تطور في أنظمتها العسكرية ووسائله القتالية، كما أن مكوناته ظلت مزيجاً شاداً من عناصر العبيد(البواخر) وقبائل الكيش باضافة مساهمات القبائل الاخرى، الشيء الذي جعله فاقداً للتناسب النظامي وبالتالي للوحدة والاستقرار. وحتى السلاطين المتأخرون رغم لجوئهم إلى مدربين اجانب، لم يستطيعوا ارساء قواعد جيش مكون من جند نظامي محترف ومسلح بأسلحة العصر. وفي هذا الصدد يقول الفقيه الحجوي: «وإذا أردنا أن نصرح بالحقيقة قلنا لم يكن للمغرب معسكر منظم على الأسلوب العصري، وإنما وضع اسم نظام في غير محله، ومن اعجب ما يقال من غير ان يوجد من يخالف في المقال أنه لا توجد في المغرب مأوى للعسكر مثل ما يوجد في أضعف الممالك الشرقية التي هي أقرب عهد بالتمدن فضلاً عن الاوربيين، ولا توجد مدرسة حربية، ولا فرقة هندسية متخرجة من

مدارس مهمة باجازات كافية، ولا مدفعية كذلك ولو جبلية فضلا عن مدفعية ثقيلة»⁽¹⁾.

وهذا الاخفاق في القدرة على اصلاح المؤسسة العسكرية وتقويتها بالتنظيم والتجهيز، كان من أثره الحتمى عواقب سيئة تجلت في مظاهر الفوضى والعصيان المتمثل في عدم الامتثال لمراسيم السلطة وعلى رأسها الأوامر الصادرة باستخلاص الجبايات.

من هنا كان نظام الحكم في المغرب فاقدًا لأكبر ركائزه ونعني عسكرية مستقرة ومنظمة ووفية للسلطة المركزية، وبسبب ذلك ستظل حكومة المخزن المعاصرة لاوريا الاستعمار، مطبوعة بنفس السمات البدائية التي كان يتصف بها المخزن الوطاسى والسعدى، كما ظلت أساليبها جامدة غير قادرة على رفع التحدي سواء في الروح أو المضمون لاقتحام أي عمل تحديثى يذكر.

وهكذا باتت السلطة المركزية في المغرب ما بعد هزيمتي ايسلي وتطوان متشبثة، وباصرار بطرازاتها العتيقة كما باتت فعالية أي عمل لحكومة المخزن مرتبطة بشخصية السلطان ودرجة مجده ونفوذه.

وكان الأثر الذي ترتب عن ضعف المؤسسة العسكرية وعن الخلل في ممارسة السلطة وتصريف شؤون الادارة، أكبر عائق وقف في وجه الملوك العلويين المعاصرين لأوريا الاستعمار لتكوين رصيد مالى كاف لمواجهة اعباء حكم نهضوى يتوق إلى تحقيق الإصلاح. فمحصولات الخزينة ظلت غير منتظمة تحكمها تحملات لا قياسية، وظاهرة التنصل من أداء الضريبة متفشية. ومع أن المخزن العلوى كان معتدلا في نفقاته، خاصة المولى الحسن المعروف بضبط الحسابات فانه لم يستطع رغم جهوده تفادى الضيقة المالية وارتباكات الخزينة المؤدية إلى الأزمات النقدية. فوضعية مالية غير ثابتة كهذه، لم يكن من الممكن للمغرب أن يؤسس عليها أي نظام في هياكل الدولة أو صلابة في تدبير شؤون السلطة.

ذلك أن اشكالية الإصلاح مسألة تترايط فيها المؤسسات بعضها بعضا: فلا وحدة سياسية بدون جيش منظم، ولا جيش بدون مال، ولا مال بدون مؤسسات

(1) مذكرة انتحار المغرب الاقصى بيد ثواره م.م.س.

جباية منظمة، ولا مؤسسات جهوية بدون حكومة مركزية، ولا حكومة فعلية بدون اصلاح سياسي وتنظيم اداري. ولذلك كان على المغرب أن يتلقى الدرس من الخارج وأن يخضع لحلول الاصلاح المفروضة عليه عوض ابتكارها.

والظاهر أن الملوك العلويين لم يكونوا وحدهم المسؤولين عن هذا الركود وهذا الاخفاق في بناء دولة مغربية عصرية إذ كانوا في معظمهم يتمتعون بأفضل الصفات من علو الهمة وصفاء الطوية وقوة العزم⁽²⁾، إلا أن روح الانزواء المخيمة على الأذهان كانت تقف حجرة عثرة في سبيل تصور توافقي لوجه الاصلاح. فالملوك كانوا يعون أن اقدامهم على فرض حلول الاصلاح خارج الاطار التقليدي المقيد بفروض البيعة، سيكون مآله الفشل بسبب نزوع الناس جبليا إلى حياة التفرقة الفكرية والتشردم، ومعاكسة كل ما يهدف إلى الاستقرار واستتباب النظام وخدمة المصلحة العمومية.

وهذه الذهنية المتخلفة لم تكن لتغيب عن علم النخبة المتنورة إذ طالما عرضت بها وتناولتها بالنقد والنشر، واسداء النصح للسلطان ولكن بدون جدوى. فلا غرابة إذن أن يسقط المغرب في مناقضة جعلته رغم متوسطيته يعيش تحت وطأة طرازات قروسطية في واضحة القرن العشرين⁽³⁾.

2- جهود الملوك وخذلان المسؤولين

لم يكن الملوك المغاربة، خاصة منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله، غافلين عن ضرورة ادخال اصلاحات على المؤسسات العامة للدولة، وذلك عن طريق التحديث

(2) نأخذ كمثال عن هذه الفضيلة الملكية والتفاني في حب الرعية، السلطان مولاي عبد الرحمان (1822-1859) الذي عرف بتواضعه وبساطة حياته المعيشية، فقد ذكر المؤرخ عبد الرحمان ابن زيدان عن هذا الملك أنه حينما عرضت عليه ذات يوم قائمة المشتريات المنزلية لاحظ أن بعض بواكر الخضر ابيعت بسوم مرتفع، فاغتاظ لذلك واستاء لكون خادمه اقدم على اقتنائها في وقت لم يتوافر منها بعد ما يسمح لعامة الناس باقتنائها. ومثال آخر أورده ابن زيدان أن أسرة السلطان مولاي عبد الرحمان لم يتيسر لها ذات مساء تحضير وجبة العشاء جراء نفاذ الحطب من المنزل، ولما علم السلطان بذلك لم يعمد إلى معاقبة الخدم عن هذا «التهاون» وإنما انطلق لسانه بالحمد والشكر لله الذي قضى بأن اقتسمت الاسرة الملكية خصاصة من خصاصات الرعية! (انظر le memorat du maroc الجزء4- ص 199. تقرير للأستاذة الزهرة طموح - السلطان مولاي عبد الرحمان - (التعريب عن الفرنسية للمؤلف).

(3) قروسطية نسبة إلى القرون الوسطى.

واقرار جهازات ادارية ومنشآت اقتصادية واجتماعية تتطابق وروح العصر. ولطالما سعوا في تحقيق اهدافهم عن طريق فسح آفاق التعاون مع دول اوربا والاستعانة بخبراتها وتقنياتها، إلا أن المعارضة الصادرة عن أصحاب الحل والعقد كانت تقف في وجه المبادرات السلطانية، خاصة مجمع الفقهاء والعلماء بحجة سلطتهم الدينية المؤثرة على عروة البيعة أو انفصامها. وهو ما كان يقيد شيئا ما حرية التصرف وتنفيذ المسعى لدى الجالسين على العرش المغربى بحكم تعاقدية البيعة الشرعية⁽⁴⁾.

ذلك أن سلاطين المغرب كثيرا ما كانوا يستفتون العلماء فيما يخشونه من اصطدام بالشريعة بشأن ماكانوا «ينغمرون» فيه لتحقيق الرغبة في ادخال الاصلاح على جهازات الدولة. وهذا التمسك باللجوء الى الاستفتاء «لاينطوي إلا على رغبة سلطانية في احاطة خيار الاصلاح بالشرعية الدينية، بحسبان الفتوى تجسيدها المادى، حتى وان كانت الرغبة تبدو في شكل ميل إلى «اشراك» أهل الرأي في اتخاذ القرار من قبل السلطان»⁽⁵⁾.

ولم يكن على ملوك المغرب أن يواجهوا وحسب المعارضة المتصلة بالمساعدة التقنية الاجنبية بل كان الصدام يحدث حتى بمناسبة اتخاذ بعض القرارات الاصلاحية الداخلية مثل حماية المنتوجات المغربية، خاصة من طرف مجمع المتاجرين في المحصولات الفلاحية والثروة المعدنية، بل وأكثر من ذلك حتى عند القيام بعمليات تحصيل الضرائب، لذا كان الاقناع عن طريق تعبئة روح المواطنة والتذكير بالواجب غالبا ما ينقلب إلى صراع وتمرد تصبح فيه السيادة «للحزكات» والسلاح باقتحام القبائل المتمردة.

والمؤسف أيضا أن يكون الرفض للامتثال صادرا عن مجمع المحتممين بالجنسيات الاجنبية، رغم ماكانوا يجنونه من أرباح طائلة في تصدير المنتوجات المغربية غالبا على حساب المصلحة العامة.

وقد عانى الحسن الأول الشدائد غداة تحمله أعباء الملك جراء السهر على

(4) السفير الانجليزى «درومند هاي» كان يوصى السلطان محمد الرابع بحدو مثال القائد المصرى محمد على باتخاذ موقف «المصلح المستبد» - Mémorial du Maroc - الجزء 4 ص 275.

(5) عبد الاله بلقزيز- الخطاب الاصلاحى في المغرب - ص 198.

سلامة الخزينة بتتبع تحصيل الضرائب المفروضة على تجار المدن لدرجة اشتعال ثورة الدباغين المعروفة بفاس ضد تحصيل ضريبة المكس. وفي ميدان التحديث كان الحسن الاول لايمانع في استقدام القطار إلى المغرب واقامة التلغراف، لكنه لم ينجح في تنفيذ مساعيه أمام اثاره اصحاب النفوذ في المغرب ضد ذلك. ففي هذا السياق ذكر المؤرخ الناصري⁽⁶⁾ يقول «وفد على السلطان أيده الله عدة باشادورات (سفراء) للأجناس مثل باشادور الفرنسيين والاسبانيول والبرتغال وغيرهم، وتكلم الباشادور الفرنسي في شأن بابور البر(القطار) والتلغراف واجرائهما بالمغرب كما هو الشأن في سائر المعمورة، وزعم أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والناصرى. وهو والله عين الضرر، وانما النصارى خربوا سائر البلاد فارادوا أن يخربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم».

ويحق لنا أن نصف هذا الوقوف في وجه التحديث السليم، بالمعارضة الرجعية لارادة السلطان في الاصلاح والتجديد لفائدة البلاد. وهي معارضة ذو طابع لاشعبي، صادرة عن أصحاب الحل والعقد من المتسلطين على الوظائف السامية للدولة، أو عن أصحاب النفوذ الفكري فيها، وكلهم ممن يهيمنون على المحيط السلطاني ويحاربون فئات المتخرجين من البعثات التي كان السلطان يوفدها إلى دول اوربا للتعلم والحصول على الشهادات العالية في مختلف الفنون الحديثة، فعوض أن يصبح هؤلاء المتخرجون في بلادهم بناء ومجددين، ويرحب بهم، كانوا يحالون على البنائق المخزنية في وظائف تافهة لا علاقة لها بتكوينهم، أو مرؤوسية مخجلة، مبعدين عن أي مهام أو ميادين لممارسة اختصاصاتهم المكتسبة من دراستهم الفنية.

إن هذا التنكر لاستعمال مؤهلات الشباب المتفتح على العالم لا يمكن تفسيره إلا باستخفاف ذوي الرأي وأهل الحل والعقد في المغرب، بحسن طوية من هم بارسال البعوث إلى الخارج لتلقى العلوم العصرية، وأمر بصرف مال الدولة عليهم، وهو السلطان. أما سوء الاستقبال والتهميش فمرده إلى حماية المصالح الخاصة والحفاظ على تخليد الوضع القائم الضامن للانتهازية والاستثمار بالمال والخدم على حساب السكونية واشباع الرغبة في العيش كما عاش الآباء والأجداد.

ومثال آخر عن عدم فهم ذوي الحل والعقد ورجال الأعمال، والأعيان وحتى

(6) الاستقصا - ج/9. ص 162.

غالبية النخبة المتفقهة، للفكر السلطانى ومساعىه الاصلاحىة ومبادراته على مستوى العصرنة والتحدث، يجسده حدث ادخال المطبعة (الحجرىة) للبلاد، والنسق المتخذ فى استغلالها يوم أن تم جلبها للمغرب وتأسست اجهزتها بمدينة فاس بأمر من السلطان محمد الرابع، فجاء الحدث من الأعلى ولم يكن للفكر «الواعى» فى البلاد يد فىه لعجزه عن ادراكه لوسائل القبض على سلم الارتقاء. فهل ذلك ياترى لعدم اطلاع القاعدة - بما تحتوىه من قوى كامنة - على أحداث التطور الانسانى فى الخارج أم هو لسوء فهمها، أم لتبرمها من كل ما قد يقربها من ملاحقة الركب التقدّمى الذى فاتها بمسافات؟.

فى الوقت الذى كان الهدف السلطانى من جلب المطبعة هو تزويد المملكة بإحدى وسائل التقدم والتجديد، لم يكن هذا هو المنحى العام الذى اتجهه ارباب المطابع فى استغلالهم لهذه الاداة التقدّمىة. وإذا كان من الطبعى أن تكون بواكبر المطبوعات التى دشنت عهد الآلىة الجديدة تتمثل فى نشر بعض المجلدات الدينىة مثل شرح ميارة والتاودى والخرشى وشمائل الترمذى - وكلها من انتاج القرن السابع عشر - فإن أمنىة السلطان كانت تتجه أيضا إلى تشغيل المطبعة فى نشر انواع المختصرات العلمىة للتدريس العام بجامع القرويين وجعلها فى متناول الدارسين والطلبة على السواء تعمىما للعلوم الحديثة وانتشارا لوسائل ارتشافها، فضلا عن الاهتمام بعلوم الفقه والحديث.

لكن اتجاه ارباب المطابع فى تعاملهم مع الآلىة الحديثة، ظل مقتصرًا على احياء القديم. ومحدود الاهتمام بما يتصل بالجديد وبالابداع لدرجة أن عدة مؤلفات معاصرة لظهور المطبعة ظلت مهجورة فى الكراسات المخطوطة، أو هاجرت خارج البلاد لترى النور على يد المطابع المصرىة، مما يمكن معه التأكيد أن المطبعة فى مغرب العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر، تميزت على ما يراه جىرمان عىاش «بانحصارها - رغم ما كان يريده لها السلطان محمد بن عبد الرحمان من مساهمة فى عصرنة البلاد - فى دعم انتاج السلف المجدى، فى حين أن هذا الانتاج لم يكن بحاجة للمطبعة لتخليده».

وفى الوقت الذى كان ينتظر من المطبعة توسىع مجال الانشطة الفكرىة فى المغرب، قد تقلصت هى ذاتها لتقف عند حدود المجالات التقلدىة. لذا فلا غرابة أن

يتخلف الناصري عن ذكر حدث دخول المطبعة للمغرب لدى حديثه عن عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان⁽⁷⁾.

إن أسباب التردّي الاجتماعي والتخلف الذهني في الالتحاق بالركب الحضاري العصري لم يكن مرجعها، في نظري، لضعف السلطة وتراجع مناعة الدولة بأكثر مما جاءت نتيجة التعصب الديني وانحطاط روح المواطنة عند المغاربة انفسهم. فقديما قيل بأن الناس على دين ملوكهم، ولكن المغاربة برهنوا على أنهم لم يكونوا على دين المولى الحسن الأول، إذ بقدر ما كان هذا الملك يسعى إلى ضمّد الجروح البادية على جسم الأمة المغربية، ويتفانى في ضمّ شتات القبائل داخليا، ويعمل بمهارة وحناءة نادرة من أجل التغلب على أطماع الدول الغربية مستغلا في ذلك خلافاتها ونقط الضعف والتفرقة التي كانت تطبع سبلها في التوصل إلى غاياتها، بقدر ما كانت فئة المتاجرين المتعاملين مع التجار الاوربيين، تسعى إلى الاهتمام بمصالحها المادية في اقتناء الربح المشرّي العاجل، وفي التنصل من تأدية واجبات المواطنة وعلى رأسها ضرائب بيت المال، وذلك عن طريق الاحتماء بالدولة الاجنبية لما يجلب ذلك من امتيازات للمحمي، أهمها الاعفاء (الحتمي) من أداء الضريبة والانسلاخ عن سلطة القضاء الوطني.

وقد أضحت هذه الطريقة غاية يسعى في الحصول عليها كل اولئك الذين توفرت لديهم الوسائل لنيل رضاء القنصل الأوربي، بحيث تكاثر عدد المحتمين بشكل رهيب لدرجة أن السفير الانجليزي جوهن ادرومند هاي، أطلق قولته المشهورة: «إن السلطان قد يستيقض يوما ليجد نفسه بدون رعية»⁽⁸⁾، ولدرجة أن عدد المحتمين بأمریکا بلغ المائة في حين لم يوجد بالمغرب ولو امريكي واحد. ولم تكن مسألة الاحتماء بالسلطة الاجنبية تمثل وحسب مهانة ومفسدة للمجتمع المغربي، بل كانت ذريعة للقناصل للتدخل في الشؤون المدنية للبلاد بدعوى الدفاع عن محميهم

(7) يذكر جيرمان عياش في كتابه «دراسات في التاريخ المغربي» (ص157) أن مصنف اكنسوس في تاريخ المغرب انتظر خمسين سنة قبل طبعه سنة 1917 بينما تم طبع عدة مجلدات قديمة- كما أن ثلاثة كتب فقط للناصرى طبعت له من أصل مؤلفاته 27. أما كتاب الاستقصا فقد كان عليه أن يهاجر من فاس إلى القاهرة ليتم طبعه هناك.

(8) عبد الله العروي Memorial du Maroc ج. 4 . ص. 265.

من يهود ومسلمين، وأيضاً تحدياً للحظر المخزنى المضروب على بيع الأراضى للأجانب حيث كانت هذه الأراضى تفوت لهم عن طريق محميهم الذين كانوا يتولون اقتناءها ببذل أثمان جد مغرية .

والأدهى من ذلك أن هذه المساحات المفوتة لصالح المحميين كانت تفلت من قبضة بيت المال بحكم أن الأجانب ومحميهم معفون من أداء الضرائب . «وقد استفحل الأمر لدرجة أن حماية شريف وزان طرحت اشكالية افلات ثلث سهول الغرب المنتجة من فروض الترتيب»⁽⁹⁾ . وكان لهذا كله انعكاسات سلبية على باقى افراد الأمة، إذ أن جموع المحميين اطلقوا العنان لامتلاك الأراضى الزراعية أما لبيعها للمستعمرين أو، إذا استغلوها لحسابهم، فلتصدير متوجها لاوريا خرقاً للضوابط الملكية، مما ينتج عنه ارتفاع فى الاسعار وضيق فى معيشة الناس .

أما الملك فقد كان يتحسر لهذا الوضع الشاد الناجم عن معاهدة 1856 مع الانجليز وعن معاهدة مدريد لعام 1880، وهو وضع تأصل فى الكيان المغربى قبل نصف قرن من ولاية السلطان الحسن الأول، وتآكبت اوريا فى كتلة مترابطة لتخليده فاصبح من المستحيل على الدولة المغربية المنهوكه عند ايسلى ثم تطوان، الوقوف فى وجهه لقاء المخاطرة بالاستقلال نفسه . ومن جهة اخرى فقد تمثل تخاذل بعض المتولين المخزنيين القائمين على السلطة فى اغضائهم الطرف عن ممارسات خطيرة كان الدخيل الاجنبى يمارسها فى وضح النهار يوم كان يفرض وجوده فى طنجة ومليية وسبتة .

والوثائق التى اكتشفها جيرمان عياش تعبر عن ما خلفته هذه الممارسات الوظيفية من مرارة فى نفس السلطان مولاي الحسن، كما تقيم الدليل على تفاقم ضعف الدولة . وكمثال لذلك يذكر جيرمان عياش أن ممثلى الدول العظمى بطنجة كانوا اسندوا تلقائياً لنفسهم مهمة السهر على قواعد الصحة بمدينة البوغاز، وتطبيقاً لما أخذوه على عاتقهم أمروا بالدفع إلى عرض البحار بباخرة حجاج مغاربة كانوا عائدين لبلادهم إلى أن يتم فحص ركابها والتحقق من سلامتهم الصحية . ورغم احتجاجات السلطان محمد بن عبد الرحمان بواسطة ممثله بطنجة محمد بركاش (16 شتنبر 1865) تابعت اللجنة الصحية ممارساتها على مرأى ومسمع من الممثل المخزنى، بل وسعت

(9) نفس المرجع ص. 266.

من صلاحياتها إلى حد أنها استطاعت بعد ثلاث عشرة سنة على عهد الحسن الأول، بسط نفوذها خارج طنجة بأن أقامت شريط امن صحيا فوق تراب المنطقة لحظر الدخول للمدينة على المسافرين الآتين من العاصمة فاس بما فيهم «الرقاقصة» الحاملين للبريد السلطاني، مما جعل مولاي الحسن يتألم من تهاون الممثل المخزني بطنجة (دائما محمد بركاش) ويصرخ بعبارات السخط عليه ضمن كتابين ملكيين بتاريخ 9 شتنبر و21 اكتوبر 1878، أورد سندهما ونصهما جيرمان عياش⁽¹⁰⁾.

وتاريخ عهد الحسن الأول وفترة الوصاية على عبد العزيز وولايته، مليئتان بالأمثلة التي يبرز من خلالها سلوك بعض خدام «الأعتاب الشريفة» عندما كانوا يحتمون بالدول الاجنبية درءا لما قد يلحقهم من تأديب المخزن لاقترافهم انحرافات تغضب السلطان. فقد بلغت ظاهرة الحمايات درجة من المساس بالمواطنة، ان لم نقل بالسيادة، «دفعت السلطان الحسن الأول إلى أن يقول للنائب محمد بركاش: ان ادارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطانها». وفي هذا السياق ينقل المنوني عن المشرفي في «الحلل البهية» بعض مظاهر الفساد الاداري الناتج عن فساد الافراد المسؤولين وفساد المؤسسات المركزية الحاكمة، قوله: فانظر هذا مع ما هو عليه الناس اليوم من ظهور الخيانة التي لا يشك فيها عاقل، فيكون الرجل لاشيء عنده متوقفا على السؤال، فإذا تولى ولاية عمل أصبح - بمجرد ما يشيد القصور ويزخرؤها، ولم يكفه شراء الدور وابقاؤها على بنائها، حتى يامر بهدمها وبنائها ثانيا على مقتضى رأيه...⁽¹¹⁾.

لقد كانت روح المواطنة والاعتزاز بالقومية فيما مضى لا تسمح لأي احد بالالتجاء للأجنبي مباشرة لحل معضلة من المعضلات، لأن السلطان هو الملجأ الوحيد سواء بطريقة مباشرة أو بواسطة ممثليه الدبلوماسيين وعماله.

فعبارات السخط الموجهة من لدن السلطان لمثليه، والتنديد بالمجاملات الرخيصة والاغضاءات ذات القصد الأثيم الصادرة عن بعض رجال الدولة ازاء الطرف المستعمر، وما نجم عن تكاثر الحمايات الاجنبية من انهيار لمداخيل بيت المال،

(10) جيرمان عياش - مرجع سابق. ص. 190 (الترجمة إلى العربية للمؤلف).

(11) الخطاب الاصلاحى في المغرب. ص 170 و178 (منقول عن محمد المنوني - مظاهر يقظة المغرب - ج/1 ص 57 وج. 2. ص 143)

وانتشار لمظاهر التمرد المدنى، والتعاطى لتهدىب الاسلحة، والمعارضة لكل محاولة رامىة إلى توطىد النظام الجبائى، والتصدى لافشال كل اصلاح ادارى: كل هذا كان يعانى منه الحسن الاول الأمرىن، لدرجة أن حدثه أصبحت تهدد كىان البلاد وتقف حجر عثرة فى سبىل كل تغىىر يطمح إلىه الشعب المغربى .

وما يمكن للباحث أن يستخلص من عبر ودروس من عوامل فشل الاصلاحات التى بادر بها الحسن الاول، بسبب «انقضاض الاىدى المسخرة على مشارىع الاصلاحات وطمس معالمها، وقفل معالم السلاح، وتجمىد اوراش البواخر، واتلاف الاسطول البحرى ووضع حد للبعثات الدراسىة، وتجويع الجيش»⁽¹²⁾، نقول أن ما يمكن استخلاصه هو أن هذه الاعمال التخادلىة وغىرها من مظاهر الانحراف والتنكر لفروض المواطنة الحققة، تشىر إلى وشك الدولة المغربىة على الانهىار، الشىء الذى كان يصدع به جهارا الفقىه الحجوى فى مذكرته المشهورة للسلطان عبد العزىز تحت عنوان «انتحار المغرب بىد ثواره» التى تكشف عن مظهر شاد لحكومة المخزن، وتدفع بالسؤال عن أسباب هذا الانهىار فى روح المواطنة والاعتزاز بالقومىة، تلك القىم التى سبق وأن ابرزنا خصائصها المتأصلة لدى الأمة المغربىة منذ القدم .

والخلاصة أن فى كل وقفة نقفها اليوم لنقدم الحساب نجد الخطوات البطىئة المترددة والغىر المنتجة هى السمة التى كانت تتحرك فىها كل المجهودات الفكرىة والدفاعىة ببلادنا، التى أدت إلى هذا التأخر فى الانتاج وهذه السلبىة فى انتهاز الفرص للمسك بوسائل القبض على سلم الارتقاء، وذلك لسوء فهم احدات التطور الانسانى . فعلماؤنا ومثقفونا الذين عاىشوا اطوار انجراف السىادة، لئن وجد منهم من كان ينظر بعىن الحسرة لذلك الواقع القاحل، فان الكثرى منهم لم يكونوا على استعداد للتجرأ على فضح اسباب التخلف والصدع بوجوب التغىىر . فكىف اذن كان سىأتى الاصلاح من دون حدوث وعى عام وبروز جدلىة وحوار حقىقى بىن نظام الفكر ونظام الواقع السىاسى لرفع القىود عن دىنامىة التغىىر والتطور، فذلك هو المحور الاساسى لكل حركة اصلاحية .

(12) العبارات داخل المزدوجىن لمصطفى العلوى بكتابه: «المناورات الأجنبىة ضد السىادة المغربىة» . ج/3-ص . 113 .

الفصل السابع

أحوال المجتمع المغربي قبيل فرض الحماية

1- هـستغرافيا المجتمع المغربي قبيل فرض الحماية

يتوفر تاريخ المغرب خلال فترة ما سبق عهد الحماية بقليل - وهي الفترة المدروسة - على عدة كتابات تاريخية، لكن مسألة الأوضاع العمرانية والمعيشية والاجتماعية نادرا ما استقطبت اهتمام الكتاب المغاربة، كما لم يعار اهتمام لوصف أحوال البوادي والقرى، وما كانت تثيره من تبادلات ونقط تلاق أو تباعد بين سكانها وبين أهل المدن. وبوجه عام يمكن تقييم الامكانات المغربية في هذا الباب في بعض المصادر القليلة نخص بالذكر منها كتاب الاستقصا للناصرى في فصوله الاخيرة وكذا الدراسات التي قام بها الاستاذ حسن عواد حول جغرافية المدن المغربية والتي تخللتها لمحات حول تطور الحياة الاجتماعية والدينية بعواصم المملكة من ماضيها إلى حاضرها⁽¹⁾ أضف إلى ذلك بعض الكتب الفقهية خاصة كتب الفتاوي كالمعيار للونشريسي والعمل الفاسي لابي زيد عبد الرحمان الفاسي، والجواهر المختارة للزياتي حيث يمكن الوقوف من خلال المنازعات والنوازل المعروضة على الفتوى على معلومات حول المعاملات التجارية والفلاحية بوجه عام.

إلا أن حصيلة المعلومات التي يجتهد الباحث في استقائها من هذه المصادر حول الانماط المعيشية للانسان المغربي والأحوال العمرانية والصحية والاجتماعية في

(1) مجلة جغرافية المغرب. العدد السابع 1965. تعليق م. الناصري ص. 120.

الحواضر والارياف، تبقى عامة وغير متكاملة بحيث لا تمكن الباحث من تقديم عمل متكامل ودقيق حول الموضوع.

وأمام هذا النقص في المصادر التي توفرها بعض الكتابات الوطنية قديما وحديثا، يجد الباحث نفسه مضطرا إلى اعتماد المصادر الكولونيالية المدونة امس الحماية أو غداتها، وهي كثيرة ومتنوعة تجمع بين وفرة المعلومات ووضوحها بحيث تقدم نظرة شاملة على الأحوال الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية لمدن المغرب وبواديها، إلا أن هذه المصادر تعتمد منهجا يقتضي الموازنة بين أحوال المغرب القديم ومغرب ما بعيد فرض الحماية، وترجح كفة مظاهر الاصلاح-بالطبع-للجانب الكولونيالي.

وتمشيا مع اقتناعنا بتحيز المراجع الكولونيالية، لم يكن من بد لنا من أن نبحت في خبايا وثائقنا المخزنية ومصادرنا الادارية التقليدية لاستكناه الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية للبلاد أمس فرض الحماية على دولتنا، لكن إذا كانت المراجع التاريخية والوثائق المخزنية غنية بما يفيدنا عن الجوانب السياسية والدبلوماسية للبلاد، فان ما يسمى في الأدبيات التاريخية بـ«التاريخ الصغير» (La Petite Histoire) لم ينل حظا من المؤلفين المغاربة كما سبق القول، اللهم ما قد يستشف من بعض مراسلات العمال والقواد والمحترسين المعاشين للحياة اليومية للمواطنين، وللأنظمة الاجتماعية والعمرانية التي كانت تعيش في ظلها المدن والوادي المغربية. فهذا النوع من التوثيق الثانوي للتاريخ لم يحظ بما يستحقه من لدن مؤرخي آخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا ما هو ندير عند الناصري واكنسوس. «فهذان المؤرخان، على حد قول جيرمان عياش، رغم معاصرتهما لظهور المطبعة الحجرية بالمغرب، لم يذكرنا مثلا أي شيء عن هذا الحدث التاريخي ذي الأهمية الفائقة».

حقا إن الاعتماد على وثائق ومراجع سلطات الحماية يرتاب منه لما نعرفه عن تلك السلطات من نظرة متحيزة إلى الأمور لجعلها متوافقة مع المصلحة الكولونيالية. وهذه النظرة المغرضة إلى الأحوال المغربية مارسها الدخيل الأوربي منذ عهد ما قبل الحماية أيام كانت فيالق التجار والدبلوماسيين ينزلون في الموانئ المغربية، ليتغلغلوا داخل البلاد تحت ستار «التطوع» لاجراء الاصلاحات والتحديثات لتقدم البلاد. فهؤلاء الدخلاء، رغبة منهم في التمكن من اقناع الرأي العام الاوربي بأن المغاربة أناس يعادون الاجنبي ويرفضون كل اصلاح وتجديد تحت عامل التعصب الديني،

كانوا يشيعون مثلا أن المعارضة التي كان يبيدها السلطان في الأذن بتصدير الحبوب ورؤوس الماشية إلى اوربا تجد علتها في الذهنية الرجعية للمغاربة، التي تأبى كل انفتاح على العالم الخارجي، هذا في حين أن الوثائق المخزنية تبرر هذه المعارضة بأسباب اقتصادية محظة، وعلل تتصل بحماية المنتوجات المغربية لوقاية البلاد من مخاطر المجاعة. لذا كان منع التصدير تديرا وطنيا وقائيا لاغير.

إلا أنه بالرغم مما تتسم به المعلومات الكولونيالية في كثير من الاحوال، من مبالغة في الاشادة بشمولية «المنجزات التقدمية» الصادرة عن ادارة الحماية كنفويض «الدونية» المستويات التقليدية للمملكة المحمية، فإن الحقائق الماخوذة من المرجعيات السمعية المتوارثة، قد تعطي لبعض المصادر الكولونيالية حظا من الاستناد لرصد صور دقيقة - ولو انتقائية - عن أحوال المجتمع المغربي في مطلع القرن. والى أن تتحقق آفاق البحث لاستخراج زبدة الوثيقة «الصغيرة» في اطار وطني نزيه - وهو الدور المفترض للمؤرخ - لم يكن لنا من بد للتعامل مع المراجع الكولونيالية، على علة تفاوتها في صدق الوصف والتحليل، وتنوعها في الانتماءات والاغراض الهادفة إلى التغلغل السياسي والاقتصادي والعسكري لاحتواء المقاومة الوطنية.

وفي هذا الصدد اطلعت على عدة مؤلفات ذات الصبغة الرسمية والصبغة المعتدلة في التعبير عن وجهة نظر الدولة «الحامية» بخصوص وصف الاحوال الاجتماعية والعمرائية والاقتصادية والحضارية للمملكة أمس «حلول» الحماية، وقد انتقيت منها مؤلفا صغيرا لاحد الصحفيين الفرنسيين - جان سيرماي - الذي كان ينشر في الثلاثينات مقالات بجريدة (ليكودي ماروك) حول «منجزات الحماية» في العقدين الاولين لارتكازها^(*). وفي سياق حديثه عن الميادين التي تولت الادارة الجديدة اصلاحها أو انشاءها كان الكاتب يتصدى لوصف الهياكل العتيقة التي كان يعيش عليها المغرب.

ورغم أن قيمة هذا المرجع الكولونيالي يستراب في تجرده عن النظرة المغرضة لشؤون المغرب، فانه لا يمكن الدفع بالاسترابة إلى الحد الأقصى نظرا لما كان للمغاربة من المام مبكر بما تنشره الصحافة الفرنكوفونية عن شؤون بلادهم، ولما

كانت تتقله الرواية الشفوية لشهود العصر عن ذاكرة الجيل الذي عاصر فترة ما قبل فرض الحماية. لذا فإن المراجع الاجنبية على علتها، لا تخلو من بيانات وصفية عن أحوال المجتمع المغربي أمس وفجر حلول الحماية قد يكون من الصعب اثبات عكسها.

ولا ننسى في هذا الباب خدمات محمد الناجي في تأليفه «التوسع الاوربي والتحول الاجتماعي بالمغرب» وهو بحث علمي بالغ الاهمية في تحليلاته للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لفترة طويلة من تاريخ المغرب امتدت من القرن السادس عشر إلى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر. فان ما أتى به من معلومات دقيقة في هذا المجال استقى بعضها من الوثائق المغربية التي طالت يده إليها والبعض الآخر-بعد تصحيحه- من بعض المؤلفات الاوربية، وذلك تبعا لقوله: «وفي ماعدا بعض المؤلفات المعدودة، ومن ضمنها الكتاب الرائد الذي وضعه جون لوي ميبج، عن «المغرب واوروبا» في القرن التاسع عشر، وأعمال «بروزينيرك»، وبعض المقالات المتسمة بالجدة لبول باسكون، فلا يوجد ما يشبع فضول القارئ المهتم بالتحول الذي طرأ على البنيات الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب. فقد أصبحنا مقتنعين أكثر من أي وقت مضى بفعل تكذيبات الواقع، بجهلنا الكبير بمجتمعنا، كما أصبحنا مقتنعين بأن الأبحاث المتأنية والدقيقة، والمستنيرة باشكاليات تثير من الشك أكثر مما تبث على الاطمئنان، هي وحدها الكفيلة بالاثبات بايضاحات حاسمة أو بمدنا على الأقل بالمواد لفهم مجتمع من المجتمعات المركبة»⁽²⁾.

تلك هي مجموعة المصادر التي استقينها منها ما مكننا من رسم لوحة تقريبية عن أحوال المجتمع المغربي، انطلاقا من نصوص التأليف التاريخي الوطني أو الاجنبي مرورا بالمعلومات المستخرجة من الوثائق المخزنية وفتاوي العلماء ومراسلات العمال والمحتسبين، فوصولاً إلى الرواية - أو بالأحرى الحكاية - الشفهية التي توارثتها الاجيال التي عايشت العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر والعقود الاولى من القرن العشرين. ويبقى من المرغوب فيه الاطلاع على ما تحتويه الوثائق التي توجد بحوزة الخواص، وعددها كثير. وكثيرة كذلك أصناف الوثائق التي تملأ رفوف الخزنة العامة

(2) محمد الناجي - Expansion européenne et Changement Social au Maroc (ترجمة ع. بنحمادي - جريدة الاتحاد الاشتراكي - 3 يناير 2000).

بالرباط، تنتظر الدراسة والكشف عن خباياها، لاستقراء وتحليل ملامح الأوضاع التي كان يعيش في ظلها المغرب أمس فرض الحماية عليه.

2- الوضع السياسي العام لحكومة المخزن

بصورة عامة يمكن القول أن المغرب عند نهاية القرن التاسع عشر كان يعيش تحت أوضاع متخلفة وطرزات متجاوزة، فالدولة لا تهتم إلا قليلا بالمصلحة العامة، والوظيفة لا تخضع لمراقبة، والتعيين في المناصب هو أكثر منه اعطية للتمتع بمكاسب السلطة من انشغال بالاحوال العمومية. أما الحياة السياسية والاجتماعية والاحوال الاقتصادية والثقافية فقد كانت غالبا ما تبلور الاختلال والتناقض بين قوى التقليد وانصار الاجتهاد الفقهي المبرر للطموح إلى التحديث بحيث أن كل تفجر للقوة البناءة، وكل تجل للارادة المحركة كانا دائما يتعرضان للسلبية ويعاكسهما عصيان جبلي ونزوع دامغ إلى الفوضى يوقدان من نار الفتنة.

لكن الانسان المغربي الذي برهن دوما على صموده ازاء الدمار الحربي وازمات المجاعة والايوثة كان دائما ينهل من اصوله الغزيرة وينبعث من حصيد متجدد متأصل عن فضائل الشجاعة والصبر وعمق الشعور الديني في ابناؤه. الشيء الذي يخفف من مظاهر الخلل والفوضى التي تطبع مظاهر الحياة التاريخية للبلاد.

لم يخرج الاتجاه العام في العهد الحسني عن سياسة المهادنة مع القوى الخارجية لاحتواء الضغوط التي كانت تمارسها دول اوربا على السلطان للفوز بأنواع التنازلات المخزنية لفسح مجالات الاستيطان والاتجار والتغلغل السياسي والاقتصادي. وقد تقدم الكلام عن ذلك بما ملخصه تعرض مركز المغرب لتفاقم الضعف سياسيا واقتصاديا نتيجة هزيمتي ايسلي وتطوان.. إلا أن ما يلاحظه القارئ من خلال النصوص التاريخية، خاصة الناصري والحجوي، هو ذلك التدمير والتأسي اللذان باتا يطبعان التأليف بصفة عامة.

فالمؤرخ للعهد الحسني أحمد بن خالد الناصري لا يخفي التحديات التي أصبح يعاني منها السلطان جراء «ما صاروا» (يقصد النصارى) عليه من القوة والاستعداد والتفنن» في انواع الآلات الحربية إلى حيث صارت آلتنا عندهم هي والحطب سواء، والدليل على ذلك انهم يبيعوننا انواعا من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها

واتقانها، ومع ذلك فىنقل لنا عنهم انهم لاىبعوننا منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها، واستنبطوا ما هو اتقن وانفع . . . فالنصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد، والمسلمون لم الله شعثهم وجبر كسرهم، على غاية من الضعف والاختلال، وإذا كان كذلك فكيف يسوغ فى الرأى والسیاسة بل وفى الشرع أيضا أن ینابذ الضعیف القوى أو یحارب الاعزل الشاکى السلاح، وكيف ىستجاز فى الطبع أن ىصارع المقعد القائم على رجليه . . . فهذا القطر المغربى تدارك الله رمقه، على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد، فلا تنبغى لاهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو علیه من غاية الشوكة والقوة . . . لیست العدة وحدها كافية فى الحرب . . . بل لابد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فیها على قلب رجل واحد، ولا بد مع ذلك من ضابط ىجمعهم وقانون ىسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد ىقوم جمیعا ویقعد جمیعا . . . وأهل المغرب اليوم إلا القلیل منسلخون من هذا كله أو جلّه . . . إنما همهم ماكولهم ومشربهم وملبوسهم كما لا ىخفى حتى لم ىبق من هذه الحیثیة فرق بینهم وبین نساءهم! . . . وما مثلنا ومثلهم (یقصد النصارى) إلا كمثل طائرین أحدهما ذو جناحین ىطر بهما حیث شاء، والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا ىستطیع طیرانا ولا ىهتدی إلیه سبیلا . . . فهكذا حالنا مع عدونا فانه بقراضینه الحریة . . . ىهجم علینا فى ثغورنا إذا شاء وىبعد عنا فلا ندركه متى شاء، وقصارانا معه الدفع عن انفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الاعراب من خلفنا . . . (3)

وقد كان على المغرب فى هذه الحقبة التى امتدت بعد موت السلطان مولای الحسن (1894) إلى حین فرض الحماية، أن ىقاوم التدخل الاجنبى على عدة واجهات أخرى مثل تشدید الاعتراض على الحمایات الاجنبیة واستنكار تدخل الجمعیات الیهودیة باوربا بدعوى «حمایة الیهود المغاربة». وفى هذا السیاق یرى محمد كنیب⁽⁴⁾. أن من بین الضربات الموجهة لسلطة المخزن المحاولات المبدولة لتحويل أثریاء الیهود وأعیانهم إلى «زبناء» مقابل منحهم بطاقات الحماية وشهادات التجنیس، وهى من أهم الوسائل التى عبأتها القوى الاوربیة لتقویة نفوذها فى البلاد والعمل على

(3) الاستقصا - الجزء 9. ص - 184-187-189-190.

(4) البحت التاريخى فى المغرب جریة الاتحاد الاشتراكى بتاريخ 27/12/96.

اضعافها من الداخل . وبسبب هذه الضغوط ذات الهدف الاقتصادي، وادماج المغرب التدريجي في السوق العالمية، والغاء الحواجز الجمركية (اتفاقية 1856)، وتكسير الاحتكارات السلطانية حيث كان يسند قسط وافر منها إلى بعض كبار تجار اليهود، بسبب كل ذلك تعرضت الارضية المادية والاسس التقليدية التي ارتكز عليها التعايش بين المسلمين واليهود لهزات عنيفة انطلاقا من اواسط القرن التاسع عشر، الشيء الذي أدى إلى اضعاف اسس التعايش المعيشية بين العنصرين وإلى حدوث تصدعات داخل الجاليات اليهودية، واتساع الهوة بين الاغنياء والفقراء بتهميش فئات المستضعفين منهم .

وقد تحمس عدد من العلماء للإدلاء بأفكار اصلاحية لانقاد المغرب من أزماته والتخفيف من حدة اصداء عدة وقائع سياسية وهزائم عسكرية، ومن الخلل الاداري والفضائح النقدية: من ذلك أن المعارضة الشعبية وجدت في مسألة ضريبة المكس ذريعة للإعلان عن سخطها، وقد حازت عن اجماع طبقة الصناع والتجار وباركها العلماء بعدم اخفاء استنكارهم، فكانت سببا في ثورة الدباغين في فاس حيث تطورت إلى اصطدام مسلح سنة اعتلاء مولاي الحسن الأول على عرش المغرب، وامتدت المطالبة إلى ان استجاب السلطان لمطالب الدباغين، فألغى المكوس المرتبة على أبواب المدن الكبرى، وتم ذلك سنة 1885 . . .

وقد أشار محمد المنوني إلى هذه الحادثة بما سماه طلائع المعارضة الشعبية ضد ضريبة المكس التي ضاق بها الصناع والتجار، واستنكرها العلماء، وكانت سببا في ثورة الدباغين على الأمين «بنيس» سنة 1873 . . والمهم من هذا، يستخلص محمد المنوني، هو تسجيل أول ثورة عمالية يشهدها المغرب الحديث. (5)

ولم تكن بعض محاولات التجديد التي قام بها المخزن المغربي في هياكله الادارية والعسكرية على يد السلطان الحسن الأول الا لسد الذرائع ورتق الرقاع: «فتجديد الجيش كان الاعتماد فيه من حيث التدريب والتجهيز على العون الاجنبي، وطبيعي أن لا يتحمس الاجنبي لأي اصلاح مغربي خطير عليه . . وتوسيع جهاز الحكومة قد استجاب في معظمه للمشاكل التي كان يخلقها الاجانب للإدارة المغربية .

(5) مظاهر اليقظة المغربية .

كما أن مشاريع المعامل التى أراد السلاطين أقامتها كان نجاحها مرتبًا بنوايا الدول التى باعت أجهزتها للمغرب وتعهدت بالمساعدة على تسييرها. وقد بلغت العراقيل التى كانت توضع فى طريق النهوض المغربى ذروتها فى فضيحة العملة التى قرر مولاي الحسن ضربها فى أوربا بوزن و عيار معلومين فأبّت الدول التى عهد إليها بذلك إلا أن تخرج عن الشروط المعقودة، نظرًا لما كان فى زيادة وزن القطع النقدية المغربية على القطع الأجنبية من أرباح للمضاربين الأجانب.⁽⁶⁾

وجاء عهد السلطان عبد العزيز وأمل المغاربة خيرا، لكنهم سرعان ما شعروا بالخيبة يوم أن شعروا بوجود عناصر نصرانية مبثوثة داخل المجتمع المغربى عندما سمح السلطان الشاب بقيام مراقبين فرنسيين إلى جانب الجمركيين المغاربة للتأكد من استخلاص القروض الأجنبية، وهكذا تجسدت المقاومة ضد الدخيل الأجنبى فى الحوادث الدامية التى عرفها المغرب سنة 1907 على يد قبائل مديونة وأولاد زيان، ثم عبر قبائل زعير وتادلة، ثم نحو الشمال لتعم العاصمة فاس حيث ظل المولى عبد العزيز محبوسا ينتظر الخلاص.

وما أن تم الإعلان عن البيعة لمولاي عبد الحفيظ بمراكش حتى انقسم الشعب المغربى على نفسه نتيجة الصراع القائم حول العرش بين الأخوين، والذي كانت تذكىه السياسة العسكرية الفرنسية بدفع مولاي عبد العزيز الى الاستمرار فى المقاومة لتعطيل موعد البيعة إلى ان انتزع من السلطان الجديد القبول المطلق بالديون المترتبة على الخزينة وبالمصادقة الكلية على عقد الجزيرة الخضراء. . . وبذلك لم يستبدل المغاربة الذى أدنى بالذى هو خير إذ كان على السلطان مولاي عبد الحفيظ أن يرضخ واقعا تحت شروط عقد أباح فعليا لكل من فرنسا وإسبانيا تصرفهما المطلق فى شؤون المملكة تحت غطاء ادخال الإصلاحات التى قرر أحداثها مؤتمر الجزيرات، الشيء الذى أوقد نار الاضطرابات واعاد بالتلويح بالجهاد ضد النصارى إلى نقطة البداية. . . ولم ينفذ معه للسلطان عبد الحفيظ، المحاصر عسكريا بفاس، سوى الرضوخ لتوقيع عقد الحماية حقنا للدماء كما هو معلوم.

(6) مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - العدد الأول - يناير 1977 - بحث الاستاذ أحمد التوفيق.

وقد عرفت هذه الفترة الحاسمة اضطرابا في الامن وفسادا في الاخلاق العامة وفي الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

وقد لخص مصطفى العلوي وهو يتحدث عن هذا الوضع المتردي قائلا: من الاقرار بالحقيقة والاعتراف بعيوبنا أيضا أن نذكر أن المال لم يكن صرفه يخضع - والحالة حالة حرب واستعجال - لمراقبة دقيقة، فلذلك امتدت إليه أيدي المكلفين بصرفه نهبًا واختلاسا لا يستثنى منهم امين الامناء بالعاصمة، ولا أمناء المحال وضباط الوحدات. ومعظم الأسر التي ظهر عليها الثراء في مطلع هذا القرن، انما اثرت مما سرقتة من مال المخزن - أي من الشعب - في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب، فجاج الجنند وعرى، وفنيت الدواب وفترت الهمم وتطلع المقاتلون للعودة إلى ديارهم⁽⁷⁾.

وفي هذا الخضم المروع برزت شخصية الفقيه محمد بن الحسن الحجوي الذي بحكم مركزه كأمين على شؤون الجيش بالحدود الجزائرية، كان يوجه باستمرار إلى السلطان عبد العزيز، ثم إلى عبد الحفيظ بعد توليه، مذكرات يتعرض فيها إلى فساد الشؤون الادارية والعسكرية وإلى ما كان يخالجه من هموم بسبب اضطراب الأحوال السياسية في المغرب واختلال شؤون الحياة الاجتماعية نتيجة «انقلاب الأحوال بالمغرب الذي بدأ بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية الدولة واللجوء للسلف الاوربي، ثم سقوط المالية بيد ادارة السلف.. بحيث اختل النظام وضاع الأمن وفسدت الاخلاق، وضاعت الفضيلة والأمانة، وتكالب الناس على الرياسات الوهمية وجمع الحطام. وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيرية وتتابعت المحن والظلم حول المغرب»⁽⁸⁾.

ومن المعلوم أن المشاريع الاصلاحية التي كان يقترحها الفقيه الحجوي على السلطانين عبد العزيز ثم عبد الحفيظ، لم تكن لتجد آذانا صاغية إذ كان يحول دون تحقيقها غياب عامل الارادة والقدرة والوسيلة بدلا من ذالكم الحضور المحتم لهاجس «التقاليد المرعية». وكيف أيضا بفشل حركة جماعة «لسان المغرب» التي

(7) «المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية». ج / 3. ص 83 بتصرف

(8) «الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي». الجزء الثاني. ص 382 المكتبة العلمية- المدينة المنورة.

عقدت العزم على جعل حد للجدل الذى طبع مسألة الاصلاح فى المغرب خلال فتراته المتلاحقة منذ عهد محمد الثالث إلى عهد الحسن الأول للسلوك بالإصلاح مسالكة الفعلية عن طريق اعتناق الحياة النيابية والأخذ بالدستور؟ هنالك إذن خسر المغاربة معركة الاصلاح الحاسمة بسبب تخاذلهم وخلفياتهم السياسية والعسكرية، وكان عليهم أن يتلقوا فى النهاية الدرس من الخارج.

3- الأوضاع الادارية وأجهزة الحكم

إن تشخيص الأوضاع الداخلية للمغرب فى مطلع القرن العشرين يؤكد - على أكثر من مستوى - تخاذل ابناء المغرب لبلدهم الذى انتشر فيها الفساد والفوضى ونهب المال العام، والاحتفاء بالجنسيات الاجنبية من أجل المصلحة الخاصة والافلات من أداء الجبايات، وأيضا من تجاوزات السلطة التى أصبحت لا تتورع فى اقتراف افعال الطغيان باغتصاب حقوق المواطن وممتلكاته. فلا منظومة ديمقراطية لمراقبة تصرفات السلطة، ولا منظومة تربوية وتعليمية تعنى بالنشئ منذ طفولته. أما التنظيم الادارى والتجهيز الاقتصادى فغياهما عن الساحة من الأمراض التى باتت فى حيز الافكر فيه.

فعلى صعيد العلاقات القائمة بين الجهاز المخزنى والرعايا فى المدن والبوادي، يمكن القول بأنه رغم العروة الوثقى لشرعية نظام الحكم القائمة على عقد البيعة كتعاقد اسلامى منبثق عن مبدأ الخلافة، فإن الحياة السياسية التى كان يعيش عليها المغاربة تتسم بانفصام فى العلاقة بين السلطة (المخزن) والمجتمع «فالمخزن كان يتحكم فى المجتمع أى فى الشعب كما لو كان متسلطا لا متعاقدا على الطريقة الاسلامية، والممارسات التى كانت تقوم بها سلطات المخزن فى الحاضرة والبادية على السواء لم تكن تحتكم إلى قانون، سواء كانت ممارسة سلطة وادارة، أو ممارسات جبائية وضرائب، أو ممارسات خدمة مدنية أو عسكرية. كان القائد والباشا مطلقى السلطة يفعلان فى المنطقة التى يحكمها هذا أو ذاك ما يشاءان، ليس فقط بالحكم «القضائى» ولكن كذلك بالحكم فى الجبايات وتسخير المواطنين لخدمته باعتباره الدولة، أو خدمة الدولة عسكريا ومدنيا. ولم يكن للمواطن أى حق فى التظلم، فاحرى فى الاحتكام إلى قانون ما، وكان الشعب يتضرر، ولكن مصير تضرره

هو التمرد في كثير من الاحيان . والتمرد هو الذي وصف بالسبية، حتى بقيت هذه الكلمة الطابع الذي يطبع المغرب في تفكير الاستعماريين . . وكان من المظاهر التي أفرزها هذا التمرد أن السلطان يقضي حياته دائما على فرسه يطوع القبائل المتمردة، ويقوم بحركات (بسكون الرء) منتظمة تأديبية: فهذه الوضعية تؤكد بعض الحقائق، منها أن العلاقة بين الدولة والمجتمع كان يطبعها الانقسام، وأن هذه العلاقة كانت تقوم على الخوف لا على الاحترام، خوف متبادل: المخزن يخاف من الشعب فيبطش به، والشعب يخاف من المخزن فتتمرد قبائل أو أقاليم عليه، والتمرد لم يكن من الشعب ضد سلطة الدولة التي كان يطبعها الاسلام، ولكن ضد البطش، سواء تمثل في القمع العسكري أو في اغتصاب الجبايات بغير نظام عادل، أو في تسخير المواطنين لخدمة الحكام⁽⁹⁾.

والباحث في التاريخ المغربي المعاصر لا يعدم العثور على المصادر الحقيقية التي تروي الآثار السيئة التي كانت تخلفها أفعال الطغيان المقترفة من لدن ممثلي حكومة المخزن والسلطات في المدن والقبائل في حق المحكومين، بل وحتى في حق بعض المسؤولين ولو صلحت سيرتهم. فيكفي لو توفرت الفرصة للباحث، الرجوع في هذا الباب لوفرة الوثائق المخطوطة التي خلفها الفقيه الحجوي كمراجع فريدة من نوعها عن الحقبة العززية حيث تناول في احدي هذه الوثائق شرح وضعية موظفي المخزن في الحقبة المذكورة، إذ يقول: «كان مولاي عبد العزيز لاهتمام له بنظام ولاضبط ولاضرائب ولاغيرها من تولية أهل الكفاءة، وإنما كان وزرائه ومن يليهم يولون من يؤدي أكثر من غيره، ثم إذا جاء من يشتره ولو بقرب توليته، عزلوه وولوا المشتري مكانه، بل باعوا له داره وأولاده فاستباحها. وبهذا تفككت عرى الدولة العلوية حيث هذا الأمر كان عاديا فلم يكن الموظفون يعدون أنفسهم أعضاء دولة يجب حفظها والذب عنها وإنما هم أصحاب وظائف مشترة يعجلون بالسلب والنهب والادخار ريثما ياتي وقت عزلهم. فرب عامل عدل في احكامه في الجملة، رفيق برعيته، وجد من يشتره فعزل ونهبت داره ظلما . . .»⁽¹⁰⁾

(9) عبد الكريم غلاب «علاقة الدولة بالمجتمع» (مشروع الحركة الوطنية المغربية) صحيفة العلم 16/96/2.

(10) هذه الوثيقة صنفها محمد الصغير الخلوفي تحت عدد 70 - كتاب «بوحارة من الجهاد إلى التآمر» ص 150.

وتأكيدا لما جاء في الكتابات السياسية المشار إليها آنفا فإن عددا من المراجع الكولونياتية أكدت تلك الممارسات (التي استمرت حتى في ظل إدارة الحماية) بحيث كانت الحياة بالبادية تجري حول القائد الذي له السلطة المفردة ولا يرد له أمر، فرغم أنه كان يتقاضى عن مهامه عشر ريع ضريبة الترتيب فقد كان يتغاضى عن تحصيل الضرائب، وهي من أهم المهام المسندة إليه في مقابل قبول بعض الهدايا كالخروف الذي كانت كل خيمة تقدمه له عقب فصل الخريف عند وصول وقت الفطام، أضيف إلى ذلك استخدام القبائليين بأرضه لحرث «التويزة». ومن الغريب أن هذه الطاعة للقائد كانت عفوية ومقبولة لدى القبائليين الذين لا يجدون حرجا من هذه المعاملة «الطبيعية» في نظرهم، فلا يشتكون منها أبدا إلا إذا ابتز منهم القائد شيئا كثيرا بدون لين وسياسة. ولم يكن للمعدمين طريق يتخذونه سوى أن يؤلفوا أحزابا من اللصوص فيسرقون شريطة أن يؤدوا للقائد نصف منهوبهم، وغالبا ما كانوا يسلمون من كل عقوبة. أما الوظائف المخزنية فقد كانت تباع وتشتري، ومهما ارتقى المتولون إلا اجتهدوا في حصد مازرعوا من مدفوعاتهم، والمشهور بالبلاد أنه لا يتراس أحد إلا لأجل الانتفاع⁽¹¹⁾.

4- الوضع الاجتماعي والمعيشي

عندما نسائل المصادر التاريخية المغربية لانجد إلا النزر القليل من المعلومات والاجابات عن الأسئلة التي يمكن أن يلقها الباحث عن الحياة المعيشية اليومية للسكان سواء الحاضرة أو البادية، فوصف حالة المدن والقرى من حيث المعمار والصحة والتعليم وتوفير الأمن فهو مما ينقص تاريخنا المكتوب. . والمصادر المغربية في هذا المجال تكاد تكون منعدمة، ولا نتعرف عليها إلا من خلال ما كتبه الكتاب المستعمرون واعطوا عنه اضاءات وانتهوا إلى القول بأن المغرب - بقطع النظر عن حالة «السيبة» التي كانت تعم مناطقه - كان يعيش في قراه وبواديه على نمط لا يختلف كثيرا عن أحوال القرون الوسطى، ولو أن مظاهر الحضارة العربية الاسلامية من فن معماري ومن أنواع الطبخ والألبسة، كانت متوفرة في المدن الكبرى، ولا

(11) انظر «محور السياستين» تأليف القبطان اودينو - تعريب محمد بن الشيخ - الطبعة الاولى - 1972 - المطبعة الجديدة بفاس الطالعة.

مجال هنا للإعتقاد بالشكل المرعب «للإقطاعية» بالبادية المغربية حسب ما تصوره لنا المصادر الكولونيالية، إلا أننا على النقيض لا نريد هنا تجاهل ما عاناه المجتمع المغربي خلال العصور من عنف ومن تناقضات داخلية على مختلف مستويات الحكم وآلياته. ومع ذلك فلا مانع من القول بأنه بالمقارنة مع الإقطاعية في أوربا القرون المظلمة يتضح أن الفارق يتجلى مغرباً في ما يتمتع به الفرد في الإسلام من حصانة في ذاته وفكره في ظل فضائل تحيطه بتكريم وجداني يعطيه النفس المتجدد دوماً لمكابدة ضيقة العيش ويفسح له الآمال الواسعة في الحياة.

لكن التناقض كل التناقض داخل المجتمع المغربي - قديماً وحتى حديثاً - هو ذلكم الفارق بين حياة الحواضر وحياة البوادي، فهو فارق استمرار البوادي المغربية في العيش على أساليب وأنماط قريبة مما كانت عليه في العصور الوسطى وحتى ما قبلها. وهنا تتجلى صورة التخلف المرعب الذي كان يستوجب دعوة فاعلة إلى الإصلاح. ومن المؤسف أن كل محاولة للتغيير لم يكتب لها النجاح لأنها ضلت الطريق، فكان الاخفاق الصارخ في التوجه الاصلاحى وفي ارادة التغيير، سببا في التعجيل بالاحتلال الاجنبى على مدى واسع، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك.

فالمجتمع المغربي في مطلع هذا القرن كان يعيش على نمط يمكن وصفه بالبدايات المتخلف في آلياته ووسائله: محراث السكة العتيق، الرحى اليدوية ونادراً المائية، المغزل النسوي، لاصناعة باستثناء بعض الخزف والنسيج المنزلي البسيط، لا طرق معبدة ولا اثاره، ولا وسائل نقل جرارة. لكن المدن وخاصة الحواضر منها، فهي وإن كانت عريقة في القدم، وسابقة للمدن الأوروبية من حيث التمدن البشري والمعماري والفني، إلا أنها ظلت راكدة على مر عصور النهضة الأوروبية، باستثناء بعض المنشآت الدينية والسكنية بالنسبة للمستويات الرفيعة.

وحسبما يؤخذ من النصوص الواردة في مؤلف جان سيرماي المشار إليه آنفاً حول الأوضاع التي كان يعيش في ظلها المجتمع المغربي أمس الحماية الفرنسية، فإن الحياة في البوادي المغربية في بداية القرن العشرين كانت تتسم بطابع جد عتيق سواء من حيث نمط العيش أو من حيث نوعية الانتاج، ناهيك عن سكن التراب المدكوك إن لم يكن تحت التوالوات وفي ظروف لا صحية، فلا ماء يجري ولا دواء يشفي، حراثة سطحية للأرض، ومردودية زراعية متدنية، وسائل بدائية في الحرث والحصاد،

ماشية هزيلة لا تجد ما يكفئها من الكلاً خاصة فى السنوات العجاف، استغلال للأرض وزراعتها على طريقة الخمس أو الخبزة، وفوق هذا كله لا طرق معبدة للمواصلات ولا وسائل نقل بالعجلة إلا الدواب، ولا إدارة ولا خدمات عمومية.

«لقد جاء تولي السلطان الحسن الأول لعرش المغرب فى عام 1873، فى ظرفية من الهدوء النسبى والرخاء، اعقبت الازمة الرهيبية (يقصد الجفاف) التى عصفت بالبلاد طيلة أعوام 1867-1869. ثم لم تلبث دورة الجفاف أن عاودت فى عام 1877. فلقد انخفض مستوى المحاصيل عن التوسط مما حتم استيراد الحبوب فى المنطقة الشمالية من البلاد، وتردت المحاصيل فى عام 1878 ايما ترد، بفعل توالي سنوات الجفاف واجتياحات الجراد. وارتفعت الاسعار فى لمح البصر، وعم القحط والمجاعة وازداد تدفق الحشود من سكان البوادي على المدن، من الجائعين الباحثين عن كسرة خبز. وهو ما مهد المجال للأوبئة التى سرعان ما تفشت فى أنحاء البلاد. فانضاف إلى الأموات بسبب الجوع، الأموات ضحايا الكوليرا، والجدري، والحمى التيفية (أو التيفويد). وأصبحت الشوارع مسرحاً لأبشع المشاهد فى واضحة النهار. وهى مشاهد أعمل فيها الملاحظون من الأجانب والأهالى أقلامهم بالوصف والتصوير. ونجد تصويراً ضافياً لذلك على درجة عالية من الايلام، فى هذا النص الذى وضعه أحد رجال الدين من منطقة حاحا، واثبته المختار السوسى فى كتابه «المعسول» الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه. واما بعد ففي عام 1878 الم بالمغرب قحط شديد وجفاف لا مثيل له، فخلت البلاد من الطعام والحبوب، واتسع الجفاف إلى جميع مناطق البلاد، من الصحراء إلى سوس، وإلى حاحا، ومن بلاد الغرب إلى مراكش، فالحوز قاطبة ووجدة وطنجة، وشمل جميع الجبال وعم جميع المناطق، وصارت قطعان الماشية تنفق من العطش وانقطع الحرث فى جميع تلك المناطق لانعدام الأمطار، وظل الناس، طيلة تلك السنوات، لا يحرثون ثم إذا هم يفرون باتجاه الجبال ومنابع المياه ثم حل الجفاف بهذه أيضاً، إلا نواح قليلة منها.

«ثم اخذت تلوح بشائر تحسن للأوضاع، حسب جون لوى مبيج، فى صيف 1879. وخفت وطأة الوباء، وتهاطلت الأمطار فى خريف تلك السنة. وإذا بالدولة تسرع إلى وقف المساعدات التى كانت تخصص بها الأشد فقرا من السكان. لكن

السكان لبثوا في حالة الوهن والبؤس . ففي منطقة دكالة حيث عصف الجفاف والأوبئة بمعظم قطعان الماشية، لم يكن في مقدور غير الميسورين من السكان أن يعيدوا تكوين بعض الرؤوس منها . فيما يبقى ذلك متعذرا على غالبية القرويين .

«لكن بقيت البلاد تعيش ظروفًا عصيبة، كما تشير المراسلات المخزنية إلى ذلك في اسهاب شديد. وتأخر انعاش المبادلات الحضرية، بعدما نالها من الضعف والوهن. ولقد ظلت الجهة الشرقية، طوال عام 1880، تعيش ظروفًا عصيبة وتعاني من الجفاف. وكان عام 1881 عاما عصيبا، و عام 1882 عاما مشؤوما. وعم الجفاف وكان فتكه بالماشية من أشد ما يكون. وعادت حشود الجياع إلى سابق طوافها، ووقع الفلاحون في ضيق شديد. وظلت الوضعية في عام 1883 على روعها وفضاعتها. وكانت المحاصيل هزيلة في منطقة الغرب. وازداد تراجع المحاصيل في منطقة الجنوب لدى قبائل السراغنة ومسفيوة، ووزكيطا في الحوز، عما كانت عليه في عام 1882. واستمر فتك الجفاف بمنطقتي سوس والريف، ولم يلح ما يبشر بتحسن الاوضاع في عام 1884. فلقد قل الماء في شهر نوفمبر من عام 1883، في مدينة فاس وبلغ ذلك إلى انعدام الدقيق، لأن قلة الماء أدت إلى تعطل معظم المطاحن، وكان يجري احتكار المياه لتعمل في سقي بساتين الدولة الواقعة خارج المدينة⁽¹²⁾.

ومما يثير الاستغراب أنه رغم المركز القوي الذي تحتله البادية المغربية داخل اقتصاد البلاد من حيث التعويل على الزراعة وتربية المواشي، فإن حكومة المخزن في عصورها السالفة، لم يسبق أن كان من بينها عضو مسؤول عن الشؤون الفلاحية، فكان على القطاع الفلاحي بالمغرب ان ينتظر عهد الحماية ليقع التفكير في تعيين مرشد فلاحى لتلقين القبليين طرق اصلاح الزراعة والماشية، حيث اسندت هذه المهمة سنة 1913 لـ «صحفي» مصري اسمه علي زكي الذي «كانت له بالبوادي المغربية ايام مشهورة: كل عام يخطب فيها - بالعامية - على جموع الفلاحين ومن اليهم... ويقوم بجولات في مختلف مدن الايالة الشريفة وأهم اسواقها لارشاد اصحاب المواشي بفائدة الخصي، وتعليمهم كيفية اجراء عملياتها حسبما يباشره أمامهم بيطري ماهر يكون مرافقا له. كما يقوم - أي علي زكي - بالقاء محاضرات يكون

(12) محمد الناجي - Expansion européenne et Changement Social au Maroc - مرجع سابق.

موضوعها الاهتمام بالصحة العمومية والوقاية من حمى المستنقعات، ويوزع بعض كتبه المؤلفة باللغة العربية...»⁽¹³⁾

ويقطع النظر عن تبادل المنافع بين المدن والقبائل المجاورة، تبقى المدينة بحكم مركز السلطة العليا بها، هي المهيمنة على البادية، مما كان يؤدي إلى توتر في العلاقات بين المجموعتين. فإذا كان سكان البادية يمكنهم الاستغناء عن صناعات المدن في فترات القطيعة، فإن المدن لم يكن في مقدورها الاستغناء عن البوادي المنتجة لأنواع الحبوب والقطاني وتربية المواشي، فكان الالتجاء إلى البادية يتم طوعا أو كرها بحكم أن المدينة تجسد بالنسبة للبادية القاعدة المركزية للمخزن سياسيا وعسكريا بحيث تشرف على تجميع المحال والحركات^(*) وتوجيهها ضد القبيلة.

وليست اسوار المدينة رمزا للسلطة المخزنية فحسب، بل تتحول إلى مصيدة حقيقية حينما يصدر الامر بالقبض على من يدخل المدينة من القبيلة الفلانية لهذا السبب أو ذاك. وتذكر الوثائق أن فاس استعملت اسوارها للقيام بهذا الدور مرات متعددة في القرن الماضي على حساب كل من قبائل بني سادن والحيانية والتسول والبرانس، في حين استعملت تازة لنفس الغرض بالنسبة لقبائل غيائة، كل هذه العناصر مكنت أهل المدينة من تدعيم أو فرض سيطرتهم على البادية في المستوى السياسي والاجتماعي.⁽¹⁴⁾

وما دمنا نلاحظ أن بوادينا في الوقت الحاضر لم ينلها لحد الآن الحظ الكافي من التطور والتغيير بما يجعلها في مصاف أرياف الدول المتقدمة، بحيث لا زالت جل مناطقها تعيش على نمط لا يختلف كثيرا عن النمط العتيق، فهل لا يجدر بنا أن نفتتح هذا القوس لنسير مع عبد الجليل حكيم⁽¹⁵⁾ في تحليلاته حول أسباب عجز البادية

(13) انظر عن علاقة الشيخ علي زكي بحكومة المخزن البحث الذي نشره السيد احمد عفاش بجريدة العلم 95/5/31.

(*) المحال جمع محلة بسكون الميم هي الفليق العسكري. والحركات جمع حركة بسكون الراء هي الاغارة على القبائل المتمردة.

(14) كتاب «تطور العلاقات بين البوادي والمدن في المغرب العربي» - منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط - سلسلة ندوات ومناظرات رقم 10-1988 تقرير الاستاذ عبد الرحمان المودن. ص 41-42.

(15) نفس المرجع تقرير. ذ. عبد الجليل حكيم. ص 58-61-69.

المغربية عن مسيطرة التحديث الذي شاهده المدن المغربية سواء خلال فترة الحماية أو اثر الاستقلال، بينما البادية ظلت تعاني في أغلب مناطقها ركودا فسره المنظرون الفرنسيون بجهل الفلاح المغربي لمفهوم السببية، واقتصره على القيام بمجموعة من الافعال بطريقة آلية وطقوسية، لا يعبر أي اهتمام للمستقبل. فقد يشرح (جاك بيرك) أن عملية التحديث بالبادية المغربية لا تكون إلا كلا لا يمكن تجزئته، لذا فعوض تقدم تدريجي بواسطة عنصر من العناصر كمنح القرض او تبسيط التقنيات الفلاحية، ينبغي القيام بعمل كلي يشمل مختلف جوانب الحياة بالبادية.

فالتقدم سيكون كلياً أو لن يكون. وهذا التقدم الشامل لن يتم إلا عن طريق صدمة نفسية تكون الآلة مصدرها. الشيء الذي سيتيح تحطيم المحددات التقليدية بحيث سيعي الفلاح ان بإمكانه التحكم في الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه، وتغييره وفقا لما تقتضيه مصلحة وتحسين وضعيته. على أن ادخال التقنية وحده لا يكفي لاحداث مثل هذا التغيير. ذلك ان قبول وسائل انتاج جديدة والأخذ بها يقتضي احداث تغييرات اخرى على المستوى الاجتماعي، ويتعلق الامر بانشاء بنية تحثية اجتماعية تشمل كلا من مستلزمات التعليم والمراقبة الصحية والسكنى. هكذا، إذن يمكن تحقيق تغيير شامل على المستوى التقني والاقتصادي، وكذا على المستوى الاجتماعي والاخلاقي كذلك: تحديث لايمس الارض وحدها بل الانسان كذلك. فهذا التحول الشامل سيبيح للخماس وللفلاح بصفة عامة أن يتحرر من القيود التي تكبله، وأن يحطم الشروط التي تحد من فاعليته، وذلك بزعزعة ثقته في الأفعال الروتينية التي كان يعتبرها شيئا طبيعيا.

5- الوضع الأمني

يمكن القول بأن الحالة الأمنية لم تكن على العموم لتبعث على الارتياح خاصة بالنسبة لمناطق المغرب الشرقي حيث كانت قبائل أنجاد تسطو على القوافل التجارية الآتية من الجزائر عبر المغرب الشرقي، مما كان يتسبب في تعقيدات سياسية بين المغرب وفرنسا، ويهرق خزينة الدولة من جراء التعويضات المفروضة على السلطة المغربية من لدن حكام الاحتلال بالحدود الجزائرية المغربية.

ومع هذا فسلطات منطقة وجدة نادرا ماكانوا يكثرون لما يحدث من خسائر في الأموال الجزائرية الفرنسية بحجة أن تلك القوافل كانت تتوجه لمناطق الثائر بوحمارة.

وفى هذا الصدد يقول الفقيه الحجوى « . . لكن عرب انكاد المتعطشين للسلب والنهب أبوا إلا أن يعترضوا للقوافل، وأن لا يتركوا أحدا يمر عند أبي حمارة ولو بالقوة، وأظن أن هناك ايعازا سريا من ابن عبد الصادق (يقصد الحاكم المخزنى لمدينة وجدة). وفى ليلة 11 ربيع الثانى جاءت قافلة من الغرب معها بقر 54 وغنم 1600 وبغال 3، ومعها مغاربة فقط من الثوار، فتعرض لها انكاد وأكلوها وقتلوا ثمانية من أصحاب الثائر، ومات من عرب انكاد اثنان، وكانت أموالها لابن العباس التلمسانى . . . وفى الصباح جاءنى الحاكم (الفرنسى) وقال لى: ان أصحابكم أكلوا قافلة أخرى قرب حدودنا، ولما رآنى تغيرت قال: أن أصحابها رواكة، يعنى من أصحاب الثائر، لكن المال لبعض الجزائريين ولا بد أن تؤدوا. فقلت له إذا كان كل يوم هكذا فالافلاس مضمون للمغرب. ثم قلت له إننى ذاهب لوجدة لمشاهدة حكامها فى هذه الأمور ليكون لها حد، وإنى متحير الفكر من هذه الحالة . . . وذهبت لوجدة فقلت لابن الصادق بمحضر ابن كروم ومولاي مصطفى ومولاي بوبكر: ذهبت لفصل دعوى قافلة فما فاصلتها حتى وقعت ثانية، ثم وقعت ثالثة، ثم ما كمل فصال الثلاثة حتى وقعت الرابعة، ثم التفتت لابن الصادق وقلت له: فى كل حالة تقول «فاصل بكل ما طلبوه، وخير مولانا كثير»، إذا كان أهل انجاد ينهبون كل يوم، والسلطان يؤدى عنهم فأى خير يبقى للمغرب وللسلطان، فنحن فى ضيق والعسكر يموت جوعا، ونحن نعطي مؤنته غرامات عن قوم نهاب، هذه عراقل يضعها هؤلاء النهاب فى طريقنا ويريدون بها تحريش الدولة المجاورة لتحتل وجدة . . . (16).

وفى فصل آخر من مذكراته «انتحار المغرب» يشير الفقيه الحجوى إلى أن تردى الحالة الامنية فى المغرب الشرقى لم يكن وليد ثورة بوحامرة وحسب بل سبقها بزمان «بسبب تعطش عرب انجاد للسلب والنهب . . . ذلك أن الطريق من وجدة ومليلىة لفاس فقد الأمن فيها منذ أزمان متطاولة: من زمن مولانا الحسن ومن قبله إلا نادرا . . .».

فذاكرة الجيل الذى عايش هذه الفترة حفظت لنا عن طريق الرواية الشفهية ما كانت تلاقيه القوافل التجارية التى كانت تعبر ارجاء البلاد من ممارسات لا امنية فى

(16) الخلوفاى محمد الصغير عن مذكرة الفقيه الحجوى «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره». -نموذج من الكتابات السياسية فى مطلع القرن العشرين. ص 54-55.

القيام بالتواصل التجاري والبريدي بين مختلف مناطق المملكة، وذلك من جراء قطع الطرقات من لدن عصابات النهاب لفرض اداء «الزطاطة» والاعتراضت حمولات السلع والدواب للنهب والاتلاف.

لكن فيما يرجع لانعكاسات الوضع الامني على المجتمع المغربي ككل في الفترة المدروسة، فإن النقص في المصادر والمعلومات الوطنية من جهة، وعيوب التحيز التي تطبع المصادر الغربية من جهة أخرى، تملي على الباحث سلوك منهج يعتمد التقصي عن طريق الاستعانة بالمراجع السمعية الموروثة عن بعض المواطنين ممن عاشوا فترة ما بين انتهاء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد تهياً لي في صباي وشبابي أن عاصرت البعض القليلين منهم، خاصة والدي رحمهما الله، وأفراد عائلتي من الجيل العزيزي وغيرهم رحمة الله عليهم جميعا، حيث سمعت منهم الشيء الكثير عن أحوال المغرب الأمنية والمعيشية في الفترة المذكورة، خصوصا ما كانت تعيش عليه العاصمة فاس من تردي على المستويات الأمنية والاجتماعية والصحية والعمرانية، مما كان يستدعي ويستوجب العناية والنهوض بالاصلاح والتعجيل، بجعل حد للثدي الذي انحدر إليه المجتمع المغربي.

أراني مدعوا لذكر بعض ما سمعته عفويا في هذا الباب. فمن ذلك ان عمل والدي بالحدود الجزائرية تحت مسؤولية أخيه (الفقيه الحجوي) كان يفرض عليه الانتقال ما بين فاس ووجدة. ولانعدام الأمن بناوحي مدينة تازة حيث كانت عصابات الثائر «بوحمارة» من قبائل غيابة يقطعون الطرق، كان السفر بين فاس ووجدة يتم على الشكل الآتي: كانت قافلة «الرقاصيين» تنطلق من فاس على ظهر الدواب في اتجاه ميناء مهدية (القنيطرة)، وقد يحدث فيضان في نهر سبو فتحط القافلة ترحالها وتنتظر تراجع النهر ولو تطلب ذلك أياما وأسابيع، ومن ميناء مهدية تقلع باخرة فرنسية في اتجاه ميناء وهران، ومنها ينطلق قطار صوب مدينة تلمسان حيث يتابع السفر إلى وجدة بواسطة العربات أو الدواب. فكان السفر إلى وجدة على هذا النحو يستغرق أكثر من شهر واحد في بعض الأحيان.

أما عن الحياة في مدينة فاس، فأغرب ماسمعتة عن والدي ومن غيره من عامة الناس، أن إنارة الأزقة ليلا تتم بواسطة قناديل زيتية توضع داخل ثقب في الجدران، لكن الزيت لا يتوفر إلا إذا جاد به المحسنون من سكان الحي، وإن توفر فعابا ما

يطوف عليه طائف من الصعاليك لتسهيل عملية السطو على المارة المتوجهين لصلاة الفجر، وقد حدث لوالدى أن سلب منه سلهامه بهذه الطريقة الليلية! .
أما النفايات المنزلية فكانت تتراكم في أركان الأزقة وقعر الدروب مما ينشأ عنه انتشار الروائح الكريهة وتجمع الجردان والحشرات المؤذية، ويتسبب في اصناف الامراض .

وذاكرة الشيخ أحمد بنعلال - شيخ قبيلة شراكة من زمن السلطان الحسن الأول- البالغ الآن من العمر أزيد من قرن⁽¹⁷⁾، «حدثنا حديثا أن مدينة فاس تتوفر على سبعة أبواب تغلق بعد آذان المغرب، وكلما حضر أحد من البادية لم يكن يجد ملجئا يلتجئ إليه، فبيت خارج الأسوار، وربما يتعرض للنهب أو القتل. وقد بقيت هذه الحال حتى بعد دخول الحماية للمغرب. أذكر أن أربعة أشخاص قدموا من قبيلة الحيانة إلى المدينة فوجدوا الأبواب موصدة بباب الفتوح فأخذوا يطرقونها بقوة، فلما سئلوا من لدن الحراس عن سبب الحضور بعد الإغلاق قالوا، نريد الدخول فسيقوا إلى ابن البغدادي (الباشا آنذاك) صبيحة اليوم الموالي لينالوا جزاءهم عن طريق الجلد بالعصا!». »

هذه الأحوال السيئة كانت طبعاً تحدث التدمير والتأسي في الأمزجة، وتؤدي إلى التبرم والكآبة، ولكنها لم تكن تلفت أنظار المسؤولين لمعالجتها. وبكل أسف فإن مثل هذه المظاهر لم تكن لتستقطب اهتمام «المثقفين» فلم يؤرخوا لها مثل ماكانوا يؤرخون للحوادث والحروب. فما الذي ياترى كان يغضى اهتمامهم عن مثل هذه المظاهر وينكص أقلامهم عن التأريخ لأحوال المدن والقرى حيث يعيش الناس أحوالا غير لائقة بالصحة والكرامة والأمن؟ .

6- الوضع الصحى

يذكر جان سيرماي في مؤلفه عن مظاهر الحياة المغربية أمس الحماية الفرنسية أن الرصيد الصحى كان مختزلاً في بعض الملاجئ الملتصقة بالمساجد حيث كان يأوي إليها المرضى والعجزة وذوو العاهات. ذلك في غياب أي علاج طبي بالمعنى

(17) نقل عن جريدة العلم عدد 18557- تاريخ 9 مارس 2001- استجواب اجراه ذ. ابراهيم الدمناتي مع الشيخ احمد بنعلال.

الصحيح . وإضافة إلى ذلك كان هناك حي للمجدامين بضواحي مراكش ومرسطن للمجانين بمدينة فاس بالقرب من الضريح الادريسي (سيدي فرج) . وفي هذا الصدد يورد الكاتب ما كان يتلقاه عن بعض الرحالة الزائرين للمغرب قبل 1912 حيث كانت تقاريرهم تصف حالة الشدوه التي كانت تأخذهم أمام كثرة المعطوبين وذوي العاهات من المصروعين والعمي ، وأصناف المرضى المتصبين للتسول في جنبات الطرق وأبواب المساجد والأضرحة للحصول على ما يسدون به رمقهم ، فضلا عن أن يتلقوا أي عناية طبية أو اسعاف من الدولة . بل وحتى جنود المحلات كانوا يفتقرون إلى مصلحة طبية ترافقهم في تنقلاتهم العسكرية . فالمرضى وجرحى الحرب انما كانوا يشدون بوثاق فوق أظهر الدواب لمتابعة سير المحلة حيث يباشر علاجهم حلاقون ومطبيون بالتجربة لاغير .

وهكذا، يتابع الكاتب الفرنسي ، ففي بلد كانت جامعة القرويين تستقطب إليها منذ القرن العاشر النخبة المثقفة في العالم الاسلامي حيث تخرج منها أفواج الأطباء من بينهم ابن زهير (1161) وابن رشد (1198)، أصبحت هذه الجامعة في القرن التاسع عشر عاجزة عن تكوين طبيب ذي مستوى يقارب ولو نسبيا ما وصل إليه الطب في تلك الفترة في البلدان الاوربية، لذا وفي غياب أي تعليم طبي وأنظمة صحية، بات من الواضح توفر الظروف المؤدية إلى انتشار الأوبئة في بلاد المغرب، من طاعون وكوليرا وتيفوس، لدرجة أن هذه الأوبئة بلغت بذكر المؤرخين العرب ما بين 1867 و1878 أزيد من ستين جائحة كان من بينها جائحة الكوليرا والتيفوس إثر حملة جراد على ناحية سوس 1878، أذكتها المجاعة مما خلف ما يقرب من ثلاثة ملايين من الموتى بالمغرب (انتهى تقرير الكاتب سيرماي)

لكن لمصطفى العلوي رأيا آخر، فقد كتب⁽¹⁸⁾: ولم تكن الدولة تكتفي بالمبادرات الاحسانية للمواطنين بل كانت لها قوانين ونظم تشمل الميادين الاجتماعية والطبية، فقد كانت هناك مستشفيات للعيون وللأمراض المعروفة في ذلك الوقت (يقصد عهد الحسن الأول)، بل أن المغرب كان أول دولة في العالم تقيم قرى خاصة بالمرضى بنفس البواء، وقرية الحارة القريبة من مراكش نموذجية في نوعها، فقد

(18) المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية . ج/1 . ص 61 .

كانت محاطة بالأسوار وليس لها إلا مدخل واحد حتى لا يختلط المرضى بغيرهم ولا يتسرب المرض خارج الحارة . . .

ثم يعود الكاتب لينسخ هذا التفاؤل فيذكر بأن «في عهد الحسن الأول كان الناس يومنون بالجن ايمان المقتنع، مثلما كانوا يربون الافاعي في جنبات البيوت لتلتهم الفيران والجردان والعقارب، ويستعملون السحر والشعوذة في حل المشاكل والكى بالنار في معالجة الأمراض. فكيف بهم عندما يخسف القمر، مثلما حصل سنة 1881 في شهر رمضان من عام 1294، وتاتي بعده الازمة الاقتصادية وتنعدم الاقوات، ويكون ذلك مطابقا لتنبؤات الفقهاء والسحرة كتفسير لعواقب خسوف القمر. لقد انحبس المطر عدة فصول، ثم جاء وباء الكوليرا سنة 1882 وصادف المجاعة التي اعقبت الجفاف، ومات الناس بالمآت، وكان الرعاة ينبشون على الأموات ليسحبوا منهم أكفانهم. وما كانوا بذلك إلا ليساعدوا على انتشار الوباء وهم لا يعلمون. . . وفي جهلهم مغرِقون، وما ان اقبلت سنة 1883 حتى عصفت بالبلاد موجة من وباء «التيفويد» وكانوا يسمونها الحمى، ولم تعرف في غزوها لأقاليم المملكة تفريقا بين معدم أو موسر، بل أن أول ضحاياها كان الوزير الاول موسى بن احمد، أب باحمد الذي . . . سيصبح المساعد الأيمن للحسن الأول ولمن سيأتي بعده، كما مات بنفس المرض عدد من الأعيان والعلماء ذكر التاريخ من بينهم العالم الكبير قاضي القضاة أبو بكر عواد . . .»⁽¹⁹⁾

7- حالة التربية والتعليم

لم يكن للمغرب نظام تعليمي بالمعنى الصحيح فالتعليم الابتدائي انما كان عبارة عن انتصاب «فقهاء القرآن» بالكتاتيب (المسايد) بكبريات المدن، يلجها ابناء الطبقات الميسورة لتعلم الكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم باستعمال اللوح الخشبي المدهون بالصلصال المصقول، ترسم عليه الحروف بالصمغ بواسطة قلم القصب. فلا ورق ولا صبورة ولا كتاب مدرسي. ومن الغريب أن هذا النوع من توزيع تعليم كتاب الله على أبنائنا قد دام طيلة فترة الحماية واستمر حتى بعد الاستقلال في القرى

(19) نفس المرجع. ص 72.

والبوادي حيث ينتصب «فقهاء القرآن» بالمساجد (الجامع) والأضرحة المنتشرة بأرجاء البلاد.

أما «طالب» المداشر والدواوير فقد كان يطوف بالأسواق الأسبوعية ليعرض خدماته على من يحتاجها من «أعيان» البادية ليعلم أطفالهم بعض السور القرآنية بطريقة «الشرط» شريطة أن يقوم بهذا العمل مقابل دراهم معدودة أو أمداد من الحبوب باضافة «الخبزة» واللبن على مدى السنة التي كان «يشارط» لمدتها.

«فالتالب» المشارط كان يقوم أيضا بكتابة رسائل القائد وأهل القرية عموما إذا كانوا يجهلون القراءة والكتابة. وإلى جانب الفقيه العارف بكتاب الله، كان هناك المشعودون المتجولون يعرضون خدماتهم لكتابة الحجب والتطبيب بواسطة الأعشاب وفك النساء من العقم. وإن لم يقع على يده شفاء فلا يتقول فيه بشيء... ويوم أن يغادر هذه القرية ويحل بأخرى لم يكن حملة سوى جراب صغير من ثوب، وسبحة، ودفتر دونت به القواعد السحرية وعقاقير التطيب...»⁽²⁰⁾.

لم تكن مرحلة التعليم المسيدي تخلو من قساوة «الفقيه» وغلظته في تلقين الأطفال مبادئ الكتابة والقراءة «فالطفل الصغير يدخل المسيد فيحشر في ذلك المكان حشرا ويستوي هو في درجة واحدة مع الذين يحفظون القرآن والذين يقربون من حفظه، ومن هم أصغر من ذلك وأكبر في اختلاط... وعندما يدخل الطفل يوكل إلى نفسه ليعتمد عليها... وكل عمله لمدة طويلة ينحصر في أنه في وقت المساء يامر الاستاذ أحد كبار التلاميذ أن يقرأ التلاميذ الصغار حروف الهجاء، فيستند هذا إلى الحائط ويحدق به هؤلاء الأطفال ويدهم لوحات صغيرة كتب على أحد وجهيها آيتان أو ثلاث من فاتحة القرآن أو من سور حزب سبع، وكتب على الوجه الآخر حروف الهجاء... فيأخذ يلقيهم حروف الهجاء واحدا واحدا حتى يأتي على الأخير، ثم يبدأ عودا على بدء، وبطول المدة والتكرار يستطيع الطفل أن يستظهر حروف الهجاء. وفي تعليمه الكتابة، يجلس هو ورفقاؤه أمام تلميذ أكبر منه، فيخط لهم الفقيه في اللوح حروفا بارزة بانكشاف الصلصال عن الأماكن التي حصل عليها الضغط برأس القلم القصبي... وقد كان بعض أهل الفضل يقومون بهذا النوع من الاحسان فيوزعون على

(20) كتاب «محور السياستين» للقطان اودينو- م.س.ص 59 بتصرف.

التلاميذ الصلصال لمحو اللوح والاقلام للكتابة بها، ولا يخرج الطفل من تتبع التخطيط (التحنيش) إلا وقد تعب تعباً مضنياً وقاسى من العذاب ما لا يتصور. والخلاص من هذه الشدائد إنما هو بالرضوخ للفقيه بالعطاء والتقرب بالهدايا والتحف. فمن وجد في يده سعة أو كان في وجهه صباحة، ينجى من هذه المصائب (يعنى الضرب بالقضيب وعرك الاذن الخ. . .)، ومن فقد هذين الامرين جملة، فويل له ثم الويل⁽²¹⁾.

يصف لنا عبد الإله بلقزيز، واقع التعليم الابتدائي في النظام التقليدي في معرض كلامه عن محاولات اصلاح التعليم ببلادنا كنواة للحدائة، فيقول: «قبل أن تبدأ المؤسسات الأولى للنظام المدرسي العصري في الخروج إلى الوجود، كان النظام التعليمي والتربوي التقليدي في المغرب ما يزال مغلقاً على نموذج الموروث، معيدا انتاجه في الحواضر وفي البوادي: يبدأ الطفل تعليمه في سن الخامسة بالالتحاق بـ«المسيد» (الكتاب القرآني) متلمذاً على «الطالب» أو إمام المسجد، وكان جل ما يحصله في فترة «التكوين» الأولى هذه حفظ القرآن وترتيبه، وتعلم رسم الحروف (الكتابة) ثم يتدرج بعد ذلك في التعلم ليتلقى علوم اللغة والنحو والفقه، فيحفظ «الأجرومية» و«ألفية» ابن مالك و«مختصر» خليل. ويمكن بعد ذلك للمتعلم، بحسب الظروف، أن يظل في «الزاوية» (إذا كان الأمر يتعلق بمنطقة غير حضرية) أو ينتقل إلى جامع المدينة الكبير، وقد يذهب إلى القرويين رأساً. . . وقد ظل هذا النظام الشكل الوحيد لانتاج واعادة انتاج النخب في المغرب⁽²²⁾.

كان المغربى الذى قدر له الوصول إلى عتبة التعليم العالى يتلقى معلوماته الثانوية والعالية في جامعة القرويين، وهي ترجع في الأكثر إلى مسائل الدين واللغة العربية وما يتصل بها. وكان بحكم انعزاله عن العالم الخارجى وعدم معرفته لما يجرى حوله في الشرق والغرب، مقتصرًا على هذه المعلومات، مقتنعًا بما حصل عليه منها، يراها كل شيء ينبغي ان تبذل الجهود في سبيل الحصول عليه، حتى إذا برع فيها حسب انه قد استكمل فنون المعرفة وأحاط بكل شاردة من شواردها. وعلى كل فان المتخرج

(21) انظر كتاب «الزاوية» للشيخ التهامي الوزاني - فصل «شقاء التعليم» - عن جريدة الشمال عدد 15 تاريخ 2000/02/21.

(22) الخطاب الاصلاحى في المغرب م.س.ص 125-126.

من جامعة القرويين كان ذا ثقافة متينة في العلوم الدينية واللغوية، تمكنه من تنمية معلوماته في المجالات الفكرية التي تجعل منه شخصا يتحلى بصفة العالم.

ولم يفت النخبة المتنورة آنذاك الانتباه إلى الكبوة التي انحطت إليها جامعة القرويين، وأصابت العقل العلمي والتعليمي بالمغرب نظرا للدور العلمي الذي احتلته هذه الجامعة في عصورها المتقدمة إلى أن انحطت درجة العلوم والمعارف فيها في فترة أصبح للعلم والمعرفة في أوربا الدور الحاسم في التقدم الحضاري. إلا أن إصلاح التعليم العالي بالمغرب سواء بالقرويين أو ابن يوسف لم يكن من الهين ولا من الممكن تحقيقه دون إصلاح القاعدة التعليمية التقليدية المتمثلة في نظام الكتابات القرآنية المنتصبة بالحواضر وما شابهها في البوادي، والتي باتت تنتج الأجيال وتعيد إنتاجها على نفس النمط منذ عهد المرينيين.

فلحد فرض «الحماية» على المغرب لم يكن إذن من المتيسر تحقيق إصلاح التعليم في شموليته إصلاحا جديرا بالنظر لما كان يتطلبه من قلب النظام التعليمي رأسا على عقب، لأن مناهج تعليمية حديثة تستوعب آليات مدرسية ودراسية، ومواد علمية وتقنية دخيلة على الطرازات التقليدية، كانت لا محالة ستواجه اعتراضات الفقهاء التقليديين واستياء ذوي المراكز القوية الذين يرون في كل تغيير أو تحديث انزعاجا لذهنيتهم، بل خطرا على مواقعهم.

في غضون هذا الوضع الشاد حدثت أول تجربة لإصلاح القرويين في بداية العقد الثاني من القرن العشرين حين قام الفقيه الحجوي بأعداد برنامج اصلاحي لجامعة القرويين، لكن لم يكتب له النجاح لظروف وأسباب سيجد القارئ الكريم تفصيلها في الصفحات المخصصة لآثار الفقيه الحجوي، إذ ما يهمنا في ما نعرض له الآن هو استكناه حالة التعليم بمؤسسة القرويين قبل التجربة الأولى للإصلاح، وهو بالذات ما يصفه الحجوي في سياق روايته لوقائع التكليف السلطاني له بإجراء تنظيم جديد لها حيث يفيد بما كان عليه أمرها من سوء حال، جراء غياب التنظيم العلمي (برامج التدريس) والإداري (أوضاع العلماء والمدرسين) فيقول (إن القرويين لم يزل على حاله القديم. فمع كونه مسجدا دينيا مقدسا، هو محل تطوع مفتوح الأبواب لالقاء الدروس الدينية والعربية، ولتلقيا من غير أن يكون به نظام، ولا ترتيب لسير دروسه، ولا للموظفين الدينيين المتخرجين منه. ولم تزل رواتب المدرسين به تافهة، على ما

وقع فى السكة النقدية من الانحطاط، حتى صارت لا تسد خلة المدرسين، ولا تسل عن المتعلمين، فصار جل المدرسين يتعاطى حرفة يسد بها رمقه، فتعطلت دروس، وأهملت فنون كانت فى زاهرة يانعة من قبل. وهكذا بقيت الحال اسيفة الى أن هيا الله توظيفى نائب الصدارة العظمى فى المعارف والتعليم، وكنت اول من وظف بها، اذ لم يكن لوزارة المعارف وجود فى المغرب من قبل سنة 1330هـ، فكان امر القرويين اول ما همنى قلبا وقالبا، لأنها امي وظئري، ومن ثديها العذب ارتضعت... وبعد مجهودات، صدر امر شريف سنة 1332 بادخال نظام اليها تنهض به، لائق بمنزلها من قلب الامة المغربية... واسند نظرها الي (23).

8- الوضع التجارى والاقتصادى

بالرغم من ان المغرب عرف فى عصر الدولة السعدية عدة صناعات متقدمة خاصة صناعة السكر الذى كان يصدر لبلدان اوربا وافريقيا السوداء، وكما أنه عرف صناعة السلاح بمعامل باب المكينة بفاس على عهد السلطان الحسن الاول، فان الصناعة فى مغرب مطلع القرن (وبالتبعية التجارة) باتت تنحصر فى المصنوعات التقليدية وطبق تقنيات واشكال عتيقة وداخل محترفات (حوانيت ودرازمات وفنادق) منطوية على حالها، بعيدة عن كل تأثير خارجى وعاجزة عن كل تغير أو عصرنة فى آلياتها وادارتها القديمة، فقد كان هناك عدة مراكز صناعات تقليدية على مختلف انواعها بمختلف اسواق المدن المغربية، لكن مدينة فاس ظلت تمثل مركز الانتاج الهام المتنوع والكافى للاستهلاك المحلى وللتصدير صوب اسواق المملكة.

اما التجارة الداخلية فقد كانت محدودة نتيجة انعدام الصناعات الآلية وعدم استغلال الخيرات المعدنية باستثناء بعض مناجم النحاس، علما بان مناجم الاطلس الغنية التى كانت تستخرج قديما اضحت غير مستثمرة حيث توقفت منذ اجيال، وصار المغرب يستورد من الخارج ما يحتاجه من المعادن المستعملة فى اصناف الصناعات التقليدية، هذا فضلا عن استيراد ما يحتاجه من بضائع وادوات مصنوعة.

فلقد كانت هناك اسباب تعيق ازدهار النشاط التجارى وتعرقل حركيتها، منها افتقار البلاد الى الطرق المعبدة، وانعدام وسائل المواصلات من عربات جرارة

(23) «الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى» م.س. الجزء الثانى. ص 194-195.

واستعمال العجلة بحيث كان الاعتماد على الدواب كوسيلة فريدة في النقل، اضيف إلى ذلك ممارسة أداء «الزطاطة» التي كانت تفرضها بعض القبائل في مقابل مرور القوافل التجارية وحماية سلامتها إلى أن تبلغ مقاصدها.

على أن عوامل انفتاح المغرب على التجارة الاوربية بدأت تتجلى في صالح التجارة المغربية من خلال الاوفاق التي كان المغرب يوقعها من حين لآخر مع الدول الاوربية، مما نتج عنه اقامة مراكز تجارية اجنبية هامة بالمدن الشاطئية المزودة بالموانئ المفتوحة في وجه المبادلات التجارية مع البلدان الاوربية، كموانئ طنجة والعرائش وانفا والجديدة والصويرة واكادير، الا ان هذه المبادلات لم ترق إلى رقم هام في بعض المواد الضرورية المستوردة مثل الشموع المصنوعة والسكر والشاي والملابس الحريرية والقطنية والغطاءات الصوفية، وبعض الاشياء المصنوعة مثل الثريات والاباريق وانواع المعادن والاسلحة والعتاد الحربي.

أما الصادرات، فباستثناء الاصواف، فانها لم تخرج عن بعض المواد الثانوية مثل العسل والشمع الخام واللوز والجوز والجلود المدبوغة والصمغ، وما عدا القموح التي كان يحتفظ بها، فان باقي انواع الحبوب كانت تصدر كلما توفرت لدى المزارعين.

وهذه الواردات والصادرات لم تكن تمثل في مجموعها اكثر من عشرة ملايين بسيطة حسنية بالنسبة للموانئ المهمة مثل الصويرة والجديدة، وتقل عن ذلك بالنسبة للموانئ الاخرى كطنجة والعرائش وسلا وانفا واكادير. فبمقايير كهذه لم يكن المغرب قادرا على احتلال موقع مرموق في حضيرة الاقتصاد العالمي من دون أن ينجح في تحقيق اصلاحات جذرية داخلية، وهكذا ظل المغرب رهين ماضيه لم يفعل اكثر من تمديد تقاليد العتيقة، غير قادر على تجاوزها الى ما هو أرقى.

ففي الفترة التي تلت موت السلطان مولاي الحسن (1894-1912) شوهده تراجع في انتاج وتسويق اصناف السلع والمواد، وظهر فتور محسوس في انواع الحرف والصناعات التي كان يمارسها اهل المدن الكبرى كفاس ومكناس داخل «فنادق» هاته المدن واسواقها التجارية المزدهمة، وذلك بسبب الظروف السياسية والامنية القاسية التي كانت تعيشها البلاد، أضف إلى ذلك أن العلاقات بين المدينة والبادية لم تكن دائما تبعث على الاطمئنان بسبب ممارسة فرض أداء (الزطاطة) على القوافل التجارية،

بل لقد زادت هذه الممارسة من حدتها إذ تطورت إلى اتخاذ شكل غارات تشنها القبائل على الاسواق القروية التي كان يؤمها أهل المدن، لنهب ما يتواجد بها من بضائع ومواد غذائية، وذلك نتيجة ضعف السلطة، وتزايد ضرائب العشر المفروضة على سكان البوادي.

وعن نوع العلاقات بين المخزن وسائر الحرفيين والمتاجرين بما فيهم الاجانب واليهود والمحميون المتواجدون على الساحة، وما يتعلق بمراقبة جودة المنتوجات الصناعية واسعار تصريفها للمتاجرين والمستهلكين، فان ما يمكن تحقيقه في هذا الباب هو التطور الذي خضعت له العملة المغربية «بسبب ملابسة الفرنج وغيرهم من اهل الربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الاسلامية... حتى ان الرجل من اهل هذا الجيل الذي يقبض في كل شهر راتباً سلطانياً قدره ثلاثون أوقية، في حدود سنة 1260 (1844)، ويصرفها بعشر بسايسط... صار اليوم في اعوام التسعين (1908) يقبض في الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيئا من الفلوس... فانظر ألى هذا التفاوت العظيم الذي حصل في الجيل في مدة من ثلاثين سنة أو نحوها. فقد زادت السكك والاسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار... وبذلك انعكست عوائد الناس غاية الانعكاس، وانقلبت اطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سككهم ولا في اسعارهم ولا في سائر نفقاتهم، بحيث ضاقت وجوه الاسباب على الناس، وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش، حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتمضاضين»⁽²⁴⁾.

ومن جهة أخرى فبقدر ما كانت المجاعة تضرب المغرب جراء السنوات العجاف، بقدر ما كانت هذه الظروف القاسية تحتم على المغاربة اتجاههم الى الموانئ للتطلع الى ما قد تاتي به من اقوات من الخارج، وهذا ما ساق الناس الى الانفتاح على التجارة الاجنبية مما مهد السبل للدول الاوربية لاقامة مراكز تجارية بالشواطئ المغربية تمهيدا للتسرب داخل البلاد.

فلقد أورد محمد الناجي في تأليفه «التوسع الاوربي والتحول الاجتماعى

(24) الاستقصا - احمد بن خالد النصارى - ج/9، ص 208.

بالمغرب»⁽²⁵⁾ مأموداه بان الدولة المغربية بذلت محاولات في كثير من الاتجاهات من أجل التأقلم مع مستوى السباق الناتج عن الانفتاح على أوروبا واطلقت، بنصيحة من السفراء الأجانب، إصلاحا جباييا متاخرا كان الهدف منه الرفع من الانتاجية الفلاحية، بجعل الضريبة متناسبة مع الانتاج. فقد كان يتم تحديد الضريبة قبلئذ، بصورة جزافية على كل قبيلة، ويتولى اعوان السلطة توزيعها على البيوت المكونة لقبائلهم. . . . وقد كان فرض الضريبة على القبيلة باعتبارها كيانا شموليا ينزل الضيم بالغالبية العظمى من صغار الفلاحين لفائدة اقلية من كبار الملاكين، وبينهم من هم محميون. وهذه الوضعية سوف تتحكم في الدولة في مجال تحديد المسؤولية الى التفكير في تفريد الاقتطاع الجبايئ، فقد حدد الاصلاح الجبايئ لعام 1884 مبلغ الضريبة وفقا لحصص الانتاج، ولم يعد المبلغ الواجب على القبيلة يحدد بصورة قبلية وانما اصبح يتم تحديده على ضوء جرد مسبق للانتاجات ولعدد المواشي في كل بيت، إلا انه ترتب عن ذلك تشتت المادة الضريبية بفعل فرار الفلاحين» (انتهى كلام محمد الناجي).

وظاهرة يجب ابرازها في المجال التجاري المغربي امس فرض الحماية، هو ما بات معروفا عن نخبة التجار المغاربة من مهارة في التوقعات الاقتصادية ومن توق الى ملاحقة المواقع التجارية خارج بلادهم. مما أسفر في غضون الحقبة التاريخية المدروسة على أن نوعا من الانبعاث الاقتصادي اخذ يتمظهر في الجهود التي بذلت حسب ما يراه محمد المنوني، قصد انشاء معامل للسكر والقطن، وانشاء طاحونة بخارية بمراكش. كما تمثل في تقدم نسبي في التجارة، دل عليه انتشار ممثلين لعائلات التجار المغاربة الكبار في عدد من العواصم الاقتصادية الاوربية مثل منشيستر وجنوة وليفربول ومرسيليا ولندرة وهمبورغ، حتى لاحت على كثير من الأسر في فاس والرباط حضارة مطبوعة بالطابع الاوربي.

لكن بقدر ما كان محمد المنوني متفائلا بخصوص بادرة اقلع اقتصاد مغربي مدعم بظهور بورجوازية مغربية، وبنواة صناعية عصرية داخل البلاد، متداخلة مع الصناعة الأوربية ومستعينة بثقنيتها، بقدر ما كان على دراية من العقبات والعوائق التي كانت ترهن التجارة التقليدية التي يحترفها عامة المتاجرين في الحواضر واسواق

(25) Expansion europeenne et changement Social au Maroc - مرجع سابق.

البوادي المغربية نتيجة انتكاسة العملة. فهو يرى «أن التجارة المحلية كانت تعترض طريق نموها مشكلات عويصة كمشكلة العملة المغربية التي كانت تروح إلى جانبها عملات أجنبية مختلفة. فمنذ سنة 1845 وقع ارتفاع في العملة وهبوط في قيمة السكة الوطنية. وحاول المغاربة حصر التفاوت بين العملتين بتحديد سعر رسمي للعملة عدة مرات، ثم بمحاولة تأسيس درهم شرعي يكون المرجع في الصرف، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل. وعمد السلطان مولاي الحسن إلى ضرب عملة في اوربا تكون مساوية في الوزن والصفاء للعملة الاوربية، ولكن تأمر الجهات الاجنبية المعهود إليها بذلك وعدم وفائها بالشروط المطلوبة أدى إلى كارثة تحطيم النظام النقدي المغربي»⁽²⁶⁾.

وقد تجلت تداعيات انتكاسة السكة المغربية في: «قلة فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الأفرنجي بمراكش ورخصه بفاس، فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية، فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش إلى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال مثقال، وتمالأوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح، وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير، فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة، واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب في الأفاق يأمر الناس برد صرف الريال إلى ثلاثة مثاقيل وربيع مثقال فامثل الناس ذلك ونودي به في الأسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس في الأسواق حتى صارت معاملة الناس ليست إلا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لأن التجار حيثئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال الغالي بالقراريط النحاسية التي صار صرف الريال فيها على النصف، فأمسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت.»⁽²⁷⁾

(26) مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية - جامعة محمد الخامس - الرباط - العدد الأول - يناير

1977. ص 292-297 - عرض ذ/ احمد التوفيق

(27) الناصري - الاستقصا - ج/9 - ص-163.

ومن جهة أخرى حاولت الدولة أن تعالج عيوب الجهاز الاداري باغنائه على الصعيد المحلي، سعيا في تدعيم الاقتصاد، عن طريق التوجيه والتنشيط بواسطة الاطر الادارية، وقد قامت بمحاولة خجولة لتحديد رواتب أعوان السلطة، لكن على صعيد التطبيق، يبدو أن هذه الاصلاحات لم يكن لها من مفعول ولا تأثير بحيث لم يحدث شيء ذو بال على الصعيد الإداري، وبقي عمل الدولة في قطاعات النشاط الاقتصادي عملا هامشيا.

كما يمكن أن نشير إلى بعض المحاولات من الدولة لاقامة وحدات صناعية، لكن ومن دون أن نهول منها، فلم تكن نتائجها على بقية الاقتصاد بذات بال. فقد بقيت الدولة في الحقيقة جامدة عند مواقعها ومواقفها السلبية. وهي وان كانت واعية بالهزات التي تهدد بزعرعتها، إلا أنها بقيت في واقع الأمر، عاجزة عن القيام بعمل يكتسي نوعا من الأهمية بحيث يبوئها الموقع والحضور في المرحلة.

9- خلاصة

تلك هي الأوضاع التي كان يعيش في ظلها المغرب بارحة فرض الحماية الفرنسية، تبلورت لنا من خلالها معطيات اعتمدها انطلاقا من مصادر متنوعة حاولنا انتقاؤها جهد المستطاع لاضفاء الموضوعية عليها، وقد زاد من تعقيد مهمتنا ما اتصف به الشعب المغربي في تلك الفترة - على حد قول عبد الله العروي -⁽²⁸⁾ من ابتعاد عن تكوين فكرة واضحة عن اصلاحات تتبلور فيها ارادته بجد، وتدفعه للخروج من حالة الاستلاب إلى حالة التقدم والتحرر، وهي حالة جعلته يجر وراءه مئات السنين من التخلف جراء رفض أهل الحل والعقد رفضا لا تبصري لكل ما هو جديد، وهم غير واعين بعجزهم عن مواجهة مشاكل تخلفهم على أكثر من واجهة.

لكن ومهما يكن فإن أمرا يجب الاعتقاد والتمسك به، وهو ان كلا من السيادة المغربية القائمة على قاعدة البيعة، والحكومة المخزنية على علة بساطتها، كانتا امس فرض الحماية حقيقتين تاريخيتين، وتعبيرين شرعيين عن وحدة قومية مغربية-عربية امازيغية- نحتت جذورهما وشخصيتهما قرون من التاريخ، تجلى فيها عطاؤهما الحضاري القومي بقوة واتصالية يصعب نكرانهما.

(28) اشكالية الدولة العربية الاسلامية - مجلة المشروع - اكتوبر 1980.

القسم الثاني

الفقيه محمد بن الحسن الحجوي
نموذجاً للدعوى الإصلاحية في المغرب

استطلاع حول فكره وآثاره

عائلة الحجوي

وهذه عائلة من مدينة فاس الأصل ، من تلمسان أعرف منها العلامة الفيلسوف الرجل المقتدر مندوب التعليم الأستاذ محمد الحجوي الذي ولد بمدينة فاس يوم الجمعة 21 رمضان 1291 هـ تعلم ودرس وكان من رجال الجامعة القروية التي تلقا فيها دروسه وتكون فيها تكوينه العلمي الممتاز وتعين في عدة مناصب سامية منها مندوبية التعليم وألف المؤلفات التي شرقت وغربت ، وعرفت دروسه بالسمو الفكري ، واتصف بحسن الأخلاق والمروءة وخدمة المصالح العليا حتى وافه الأجل بالرباط حتى وافه الأجل بالرباط عام 1376 هـ ونقل للدفن بفاس .



الجواهر 19

عن مجلة الجواهر بفاس
العدد 28

العلامة محمد الحجوي الوزير بفاس

«مذكرة محمد الحجوي (انتحار المغرب بيد ثواره)
نموذج من الكتابات السياسية المغربية، طرح صاحبها مشكل
الإصلاح والتنظيم على مستوى حكومة المخزن ومؤسسته
العسكرية وجهازه الملالي»

عن ذ. الخلوفي محمد الصغير

الفصل الأول

الوثيقة في خدمة انبعاث التراث الإصلاحي

إذا كانت الوثيقة هي تلك المرآة الناصعة بكل أثر قديم أو حديث يمكن الوثوق به في الإثبات التاريخي، فإن التعامل مع المصدر الوثائقي يحمل من البعد الثقافي والعلمي ما يحفزنا إلى تعميق نظرنا ليس وحسب إلى الآثار المطبوعة، بل وأيضا إلى سير غور كل المرجعيات والآثار المغمورة سواء منها المخطوطات المحفوظة في الخزانات الرسمية أو التي في ملك الخواص، والهدف هو العمل عل نشر التراث الثقافي والتاريخي ليستفيد منه الباحثون والدارسون وطلاب المعرفة بالداخل والخارج، ويتعرفوا على مآثر المغرب ومفاخره، معرفة يمكن الركون إلى صحتها وتجرد حقيقتها من كل غواية أو نزعة مغرضة .

فلقد دعى جرمان عياش في مؤلفه (دراسات حول التاريخ المغربي) إلى انطلاقة دينامية فاعلة للتعامل مع الوثيقة الوطنية عبر منهجية تشمل البحث عن الوثيقة أيا كان مخبأها، وقراءتها وفهمها وتحليلها لاستخراج العناصر الكفيلة بتحويل التاريخ المغربي إلى تاريخ تزول عنه التقريبية والمنقوصية واللاإدراكية، وتتجلى فيه الروح المغربية فهما وتحليلا، وبذلك أدى جرمان عياش خدمة فكرية رائعة في سبيل الكشف عن الخفايا السياسية والاجتماعية في التاريخ المغربي .

ولعل العمل الذي يجب القيام به قبل الإتجاه إلى مرحلة التحقيق والتحليل هو اخراج الوثيقة الوطنية من حيز المخطوط إلى حيز الطبع والنشر الذي يجعلها في متناول الباحثين والدارسين، وبالتالي في خدمة البحث العلمي والإبداع الفكري واكتساح كل المجالات التاريخية المغربية بما في ذلك ما يسمى في الأدبيات

التارىخىة بالتارىخ الصغىر الكاشف عن الأحوال المعىشىة والاجتماعىة والعمرانىة وأنماط الحىاة لشتى مكونات المجتمع المغربى فى الحاضرة والبادة .

إلا أن هذه الوثائق والمصادر التى تعنى بالكثىر من مظاهر الحىاة المغربىة فى الفترة ما بىن انتهاء القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرىن، لا زالت لم تستغل بشكل فىفى بالعرض الذى هو تحويل المخطوطات إلى مطبوعات تصبىح فى متناول الباحثىن فى التارىخ الاجتماعى والاقتصادى للبلاد . وإذا كنا لم نقتطع بعد هذه المرحلة بما يدحض كلىا المقولة الاسطورىة بأن «المغرب بلد بدون أرشىف» فان أحدا لا ىنكر المجهود الذى ىسىر فى بذله زمرة من المثقفىن المولعىن بالبحث العلمى والنشر والتألىف انطلاقا من الوثىقة الوطنىة، للكشف عن وجه جدىد للتارىخ المغربى بتخلىصه من نزوات الفكر الاستعمارى، معتمدىن فى ذلك على الوثىقة الوطنىة كمصدر أمىن لهذا التارىخ فى مختلف عصوره: الوثىقة بجمىع مكامنها المغمسة فى الأرشىف التوثىقى بما ىحتوى علیه من مستندات مخزنىة وتقابىد إدارىة وفتاوى شرعىة ونوازل قضائىة، مما نشاهده الیوم فى الصحف والمجلات، وىعتمد كمنطلق للأبحاث والدراسات التى تعنى بالكشف عن الوجه الصادق لتارىخنا الوطنى وتطور فكرنا بوجه عام .

وىمكن تصنىف الوثائق الوطنىة من حىث جوهرها الرسمى والإدارى فى أربعة أنواع :

- المراسلات الخاصة المتبادلة بىن السلطان وخلفائه بمراكش وفاس وتىزنىت . . .
- المراسلات المتبادلة مع الدول الأجنبىة عن طریق دار النىابة بطنجة والقناصل .
- المراسلات الداخلىة المتبادلة بىن الحكومة المركزىة (المخزن) وسائر الولاة والقضاة والمحتسبىن ونظار الأحباس وأمناء المال . . .
- الوثائق العدلىة المتعلقة بالمعاملات والعقارات وما تشره من فتاوى شرعىة ونوازل استندت على الأعراف والعادات .

«كان المغرب ىتوفر منذ سنة 1924 على مصلحة حكومىة لحفظ الوثائق والمستندات للدولة المغربىة . وكانت هذه المصلحة ولا تزال تكون جزءا من الخزانة

العامة بالرباط، وقد اودع فيها في بداية الأمر، الوثائق الحكومية والإدارية التي مرت عليها عشرة أعوام، كما أودع فيها وثائق ومستندات السفارة الفرنسية بطنجة والقنصليات الفرنسية بمختلف المدن المغربية وضم إليها أيضا بعض وثائق المخزن القديمة التي عثر عليها أثناء العمليات العسكرية وسلمت من النهب والإبتزاز⁽¹⁾.

ومن الذين اهتموا بجمع الكثير من الوثائق وترتيبها في العقود الأولى للحماية أحد أعلام المغرب المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان الذي اصدر مجموعة هائلة في شكل معجم ترجمي تحت عنوان «اتحاف اعلام الناس» في خمسة أجزاء حافل بالوثائق المخزنية، ولا ندري هل كان الناشر يتوفر على أصولها أم أنه استنسخها من مستودع الارشيف ومحفوظات المخطوطات بالقصر الملكي آنذاك، ويقدر الكاتب جرمان عياش في مؤلفه «دراسات في تاريخ المغرب» عدد الوثائق الزيدانية بعشرين ألف وثيقة ترجع إلى عصور وأصول مختلفة.

وهناك أيضا المجموعة التطوانية المكونة من وثائق «دار النيابة» بطنجة وهو المركز الرسمي لكل المراسلات الخاصة بعلاقات مخزن ما قبل الحماية مع الدول الأجنبية فضلا عن مجموعة الوثائق الخاصة والمتأصلة من عدة مكاتب متميزة لبعض أعلام المغرب من علماء وشخصيات مخزنية، ويرجع الفضل لأبناء النائب المخزني آنذاك السيد محمد العربي الطريس في الإحتفاظ بتلك المجموعات الوثائقية التي يبلغ عددها حسب جرمان عياش خمسة عشر ألف وثيقة محفوظة لحد الآن بمركز الأرشيف بتطوان.

وهنا ينبغي الإشادة بالدور الطلائعي للمكتبة العامة «فهي تملك رصيда علميا هاما ومتنوعا من الكتب والدوريات والوثائق والصور التاريخية والأثرية والجغرافية والاجتماعية للمجتمع العربي الإسلامي، وغيره من المجتمعات الأخرى. ويتوزع هذا الرصيد على أقسام مختلفة منها: قسم المخطوطات والوثائق التاريخية، ويتألف من مجموعة من المخطوطات ويضم 2400 عنوان، وعدد من الكتب الحجرية الآتية من

(1) لعبت مجلة «دار النيابة» الصادرة في مطلع 1984 دورا مرموقا في الكشف عن المخزون الوثائقي بالمغرب بفضل جهود مجموعة من الباحثين المغاربة كعبد الله كنون والدكتور التمساني وعبد الوهاب بن منصور ومحمد الأمين البزار وجيرمان عياش (انظر بحث ذ/ المهدي الودغيري - جريدة الاتحاد الاشتراكي 13 غشت 1998).

وثائق النيابة السلطانية . ثم قسم الصور والخرائط والمسكوكات ويشتمل على أكثر من 40.000 صورة تتعلق بالمغرب والعالم العربي في مظاهره التاريخية والعمرانية والجغرافية والاثنوغرافية . فبالنسبة للقسم العربي فيشتمل على أكثر من 14.000 عنوان في جل أبواب المعرفة الإنسانية، أما فيما يخص القسم الأجنبي والنوادير فيعود ذلك إلى أوائل القرن العشرين . ومن الأقسام الأخرى مصلحة التسجيل والفهرسة والتصنيف، ومكتب التوزيع وتبادل المطبوعات، ومشغل التجليد وترميم المخطوطات»⁽²⁾.

ثم أن هناك مجموعات وثائقية عائلية أخرى لا يتسع المجال لذكرها وجلها أصبح ملكا للدولة . وبالجملة فالمركز العام للأرشيف بالرباط يشتمل الآن على مستودعين: مستودع حرف - أ - يحتوي على ما يقرب من مائتي ألف وثيقة نقلت إلى الرباط من فاس ومراكش في العشرينات . أما المستودع حرف - باء - فهو أقل أهمية من الأول وأحدث منه حيث لم يقع نقله من مدينة فاس إلا في غضون السبعينات . «كما تجدر الإشارة إلى أنه في غضون 1975 انشأ جلالة الملك مصلحة تابعة لقصره، واقعة مباشرة تحت إشرافه . ومعتمدة بالدرجة الأولى على رفده ومدده، هي مديرية الوثائق الملكية حيث يقوم موظفون بالنظر في الوثائق نظرا علميا، فيحققون تواريخها ويرتبونها ترتيبا تاريخيا قبل ان ترتب ترتيبا موضوعيا . . . وتنبغي الإشارة إلى أن مديرية الوثائق الملكية أصبحت تنكب على إنشاء مكتبة وثائقية تتعلق بتاريخ المغرب خاصة، وتاريخ المغرب العربي والأندلس الإسلامي والحوض العربي للبحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، وقد أعانت هذه المكتبة الباحثين والدارسين على إنجاز ما هم بصدد إنجازه من رسائل واطروحات، وإتمام ما بدأوه من أبحاث ودراسات»⁽³⁾.

لكن إذا كنا نشعر بالارتياح عند نظرنا لوفرة الوثائق الوطنية على اختلاف أنواعها وتعدد مضامينها في الزمن والفضاء، فإن تلك الوثائق لم تكن في أغلبها متسعة في المكنم الموضوعي الفاعل والمدلول المعني بالتاريخ الصغير (La Petite Histoire) من وصف هادف لأنماط الحياة المعيشية والعمرانية والمبادلات التجارية والزراعية

(2) أحمد المريني - جريدة الشمال عدد 14 . 14 / 02 / 2000 .

(3) المهدي الودغيري - مرجع سابق .

وأنواع العلاقات والمعاملات بين المدن والبوادي، إلى غير ذلك مما قد يكشف عن طبيعة المجتمعات المغربية وتطوراتها عبر العصور والأحقاب.

فالجانب السياسي والدبلوماسي والتاريخي بالمعنى الواسع هو البادي والواضح من خلال ما تناولته الوثيقة الوطنية في جوهرها وطالت إليه يد المؤرخ لصياغة النص التاريخي المغربي وتقديمه بعد التحليل والنشر، أما الجانب الاجتماعي والحضاري، ففضلا عن قلة مستنده التوثيقي ذي المدلول الهادف، فإن البحث العلمي بالشكل الذي يتطلب التعمق في الكشف عن الوجه الحيوي الداخلي للبلاد، لا زال يحتاج إلى جهود الباحث ذي الفضول العلمي للعكوف على المخطوط وسبر غوره لاكتشاف ما بين ثنايا سطوره.

بيد أن الفهرس الخاص بتلك المجموعات الوثائقية الموضوع من طرف الترجمان الفرنسي «كوفوريه» (COUFOURIER) يثبت، على ما يراه جرمان عياش، أن هناك رسيدا هائلا من الأرشيف الذي يعني بالكثير من مظاهر الحياة المغربية، خاصة الفترة المنطلقة من العقود الأخيرة للقرن الثامن عشر. ومن الغريب، يضيف جرمان عياش أن هذا الفهرس لم يقع نشره إذ لم يعلم المختصون بوجوده إلا من خلال دراسة موضوعية قام بها جاك ريش (JACQUES RICHE) ضمن كتابه «أرشيف المغرب» (Les archives du Maroc).

على أن زمرة من الباحثين الشباب ولوا اهتماما واسعا لهذا النوع الخاص من الوثائق «التي بفضلها يستطيع الباحثون تقديم الشيء الكثير في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب، من ضمنها مصادر الفتاوي الشرعية التي تقدم لنا عددا كبيرا من الإفادات التي تساعدنا على ذلك بحيث تقدم لنا صورة عن النشاط الإقتصادي داخل الوسط الاجتماعي الاسلامي، وتعطي عددا من الإفادات عن مواد التبادل الداخلي والخارجي، والنقود والصرف وأشكال التعامل التجاري والمكاييل، وأنواع الإنتاج والملكية والعلاقة بين التجار والزبناء، وبين البوادي والمدن، وحالة الأسواق وتنظيماتها، ويسعى المفتون إلى تقديم موقف الشرع من كل المشاكل التي تعترض الناس في معاملاتهم الاقتصادية... وبما أن الفتاوي لا تهتم بضبط المعلومات لان السؤال لا يركز على حيثيات مدققة وإنما على معرفة وضعية شرعية معينة، فإن فهم حيثيات النازلة وعلاقتها بمحيط السؤال يقتضي الرجوع إلى

مصادر أخرى لتكملة النقص ومعرفة الظروف التى أدت إلى قيام المشكل موضوع
النازلة»⁽⁴⁾.

واجتهاد آخر فى مجال البحث العلمى انطلاقا من الوثيقة الرسمية نجده عند
الأستاذة فاطمة العيساوى فى مقالها «نموذج لعلاقة المخزن بالحرفيين خلال القرن
التاسع عشر» حيث تبين لها من خلال دراستها للموضوع على ضوء الوثائق الرسمية
بأن هذه الوثائق قد وصفت واقعا معينا بما له وما عليه، وبالتالي لا يمكن إغفال دور
هذه الوثائق كمصدر أساسى من مصادر تاريخ المغرب... خاصة ما يتعلق منه
بالجانب الاجتماعى: فهى تتضمن جزئيات وتفصيل لا نجدها فى كثير من المصادر
والمراجع، بالإضافة إلى أنها لا تقتصر على تقديم مصدر للتأريخ لنخبة فقط، بل أنها
تعرض لحياة الفئات الشعبية مما يجعلها تسد فراغا فيما يخص هذا الباب»⁽⁵⁾.

وما دمننا فى سياق البحث عن المصادر الوطنية التى نستشف منها ما يعيننا على
فهم المسار الإصلاحى فى المغرب، فى خطابه وجدلياته، فإنه يجدر أن نخصص
حيزا لمخطوطات أحد الأعلام المغاربة، نأخذها كنموذج على سبيل المثال لتعميق
نظرتنا فى موضوع الدعوة الإصلاحية فى المغرب. وحتى نفي بهذا الغرض فلا مانع
أن نرجع لوثائق العلامة محمد الحجوى الذى وصفه الباحثون المهتمون بآثاره:
بالسفلى المتور فقيها وتاجرا وموظفا مخزنيا.

ذلك أن الوثائق «الحجوية» المشتملة على مذكرات ومخطوطات تبلغ المئات
يهتم حاليا ثلة المثقفين والباحثين من الشباب بانتشالها وإخراج ما تحتويه من فروع
الثقافة العامة، والفقه والتاريخ، والخطابات السلفية والنهضوية، وغير ذلك من فروع
المعرفة التى تناولها الفقيه الحجوى.

ومن بين الأساتذة الباحثين الذين وجهوا عنايتهم لهذا الأثر العظيم نجدد التذكير
بأعمال سعيد بنسعيد العلوى فى مؤلفه «الاجتهاد والتحديث»، وعبد الاله بلقزيز فى
كتابه «الخطاب الإصلاحى فى المغرب»، ومحمد الصغير الخلو فى ضمن مؤلفه
«انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره» وهو عنوان إحدى مذكرات الفقيه الحجوى
للسلطان عبد العزيز.

(4) ذ/ عثمان المنصورى - مجلة أمل عدد 7 السنة الثالثة 1996 ص 94 و 97.

(5) ذة فاطمة العيساوى - مجلة أمل ص 44.

ويمكن القول بأن هذه التأليف تشكل اليوم مرجعا لا يستهان به في التعريف بمذكرات الفقيه الحجوي التي تعتبر نموذجا للكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين .

وهناك أساتذة باحثون آخرون اهتموا بمخطوطات الفقيه الحجوي وقد تعرفت على بعضهم من خلال مطالعاتي، وأخص منهم بالذكر الأستاذ عبد النبي داكر الذي نشر للفقيه الحجوي على صفحات جريدة العلم (15 دجمبر 1991) رحلته لاقطار أوربا سنة 1919 والتي وقف من خلالها على مدينة الغرب ودعى إلى الاقتداء بها في التعلق بالعلم والديموقراطية .

فهذا المجهود الفكري الذي يبذله الباحثون في آثار الفقيه الحجوي لنفض الغبار عن مخطوطاته، يحثنا أكثر فأكثر على متابعة السير في تعميق النظر إلى مذكراته ومحاضراته المنادية بالإصلاح، وإلى سبر غور مرجعياتها سواء منها المطبوعة او التي في شكل كراسات، مما يشكل مكسبا متميزا يضيفي على الوثيقة الوطنية مصدرا صادقا للتحقيق في التراث المغربي المنسي وإخراجه من رفوف المستودعات ليصير في متناول القراء .

الفصل الثاني

موقع الفقيه الحجوي من مظاهر يقظة الفكر الإصلاحية في المغرب

مفهوم «الإصلاح» في مغرب ما قبل الحماية، يستدعي من الباحث الوقوف ولو لحظة عند تطور السلفية عند العلماء المغاربة. فلقد مر الفكر السلفي في المغرب بفترة الشدود التي تمثلت في كتابات محمد بن جعفر الكتاني التي سارت في اتجاه الرفض والمعارضة لكل تبديع وتحديث، والقول بأن لا سبيل إلى إحياء السنة إلا بأقبار البدعة من أين أتت. وقد كانت الخشية القوية على كيان العقيدة تقف عثرة في وجه كل عمل تحديثي أو إصلاح تبديعي سواء كان الاقتراح من جانب المخزن بإيعاز من قناصل الدول الأجنبية أو من طرف المثقفين المغاربة المتنورين، مما كانت فئات الشعب تتوق إليه، والتعليل كان دائما من جانب الفقهاء المعارضين، هو التحذير من التعامل مع العدو الكافر.

فهذا محمد بن ابراهيم المراكشي يؤلف رسالة في الترغيب في المؤلفات الخطية والتحذير من الكتب المطبوعة وبيان أنها سبب تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه، وهذا الفقيه أحمد بن خالد الناصري يتحفظ تجاه المستحدثات العصرية التي عرضها سفير فرنسا على السلطان الحسن الأول مثل القطار والتلغراف، فيوصي بابتعاد الآيالة الشريفة عنها باعتبارها وسيلة للاستحواذ على البلاد والإساءة للدين وتخريب القيم النبيلة. وهذا الفقيه عبد الحي الكتاني يعتبر آلة الفونوغراف من المناكر بسبب استعمالها كألة تسمع بواسطتها تلاوة القرآن في الأزقة والأسواق، معتبرا أن هذه الآلة أعدت في الأصل للهور والعبث، وقد رد على هذا النظر الفقيه الحجوي في تأليفه «السر المذاع في جواز تلاوة القرآن أمام المذيع».

وفى هذا السياق يرى الأستاذ حميد الصولبى⁽¹⁾ أن هذا النوع من النظر الذى تكون عند بعض الفقهاء تجاه التحديث هو الذى يساهم فى إفشال كثير من محاولات الإصلاح بالمغرب، غير أن هذا لا يعنى انه لم يوجد تيار من الفقهاء الذين استطاعوا بفضل توجهاتهم المتنورة والمعقولة ان يخوضوا غمار التحديث ويجتهدوا فى أموره ويفتوا فى قضاياها ومفاهيمه واشكالاته رغبة منهم فى إنقاذ مجتمعهم من التخلف والدفع به نحو التقدم.

وبالفعل فإن هذا التيار المتشدد لم يبق له الصدى البعيد فى المجتمع المغربى انطلاقاً من عهد السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ وذلك بسبب ما تجلى فى صفوف الفئات العليا من التجار والعناصر المتنورة من موظفى المخزن الساميين وحتى فى الفئات الاجتماعية الوسطى، من خروج عن تقاليد المجتمع المحافظة، وهى أمور كلها من آثار المتاجرة مع البلاد الأوربية ومن آثار الاكتشاف الأولى لنتائج الحضارة الأوربية المعاصرة... «بل أن فئة المعارضين لمستلزمات الإصلاحات لم يكونوا كلهم على هذا النحو من التشديد فى قبول التقنيات الحديثة والموافقة على تداولها وانتشارها، بل كان فىهم الكثير ممن استحسناها وأشاد بها وبمزاياها وأجاز التوسل بها فى أمور الشرع ذاته»⁽²⁾ وبذلك تكون فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد عرفت نوعاً من التطور من حيث المضامين الفكرية الآيلة إلى الانتقال من النظرة التقليدية للتعامل مع إشكاليات العصر، إلى نظرة تنزع إلى التعامل مع مظاهر التحديث والعصرنة فى ضوء اجتهاد يسعى إلى التوفيق بين أحكام الشريعة ومتطلبات العصر.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن الدولة الشريفة كانت منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله تسعى إلى إدخال الإصلاحات التى تستلزمها الجهات الإدارية والعسكرية لمواكبة التطورات الحديثة سواء لمجابهة الأطماع الأوربية أو لإرساء نظام

(1) مجلة أمل العدد 7. السنة 3 - 1996 - ص 90 م.س

(7) سعيد بن سعيد العلوي - الاجتهاد والتحديث - ص 31 و 33 - يسوق الكاتب كنموذج للاجتهاد الفقهي المتنور فى مغرب مطلع القرن العشرين، مسألة قبول خبر حلول شهر رمضان بواسطة التليفون أو التلغراف كتقنيات حديثة لا يعمل بها فحسب فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربى المسلم بل وايضا فى الأمور الشرعية. ومن العلماء الذين أخرجوا الفتوى الشرعية فى الموضوع - الفقيه الحجوي وعبد الله الفاسي وغيرهما -

داخلي تصبح معه الموارد المالية والأطر الإدارية والعسكرية قادرة على كبح الفوضى والتنطعات التي كانت تطبع الحياة السياسية والاجتماعية. وهذا ما كان يحده بالحسن الأول إلى إيفاد البعثات الطلابية إلى المدارس والكلية الأوروبية سعياً في إخراج المشروع الإصلاحي والتحديثي إلى حيز التطبيق. وهو أيضاً نفس ما حدا بالسلطان عبد العزيز إلى الإستمرار في محاولات تحديثية عندما تداعت «الواجهة» الحسنية إلى الانهيار بسبب الأحداث الكبرى التي زعزعت الدولة المغربية، ونعني فتنة «بوحامرة» وتفاقم الزحف الإستعماري باحتلال مدينتي وجدة والدار البيضاء، ثم الإحتياج إلى القروض الأجنبية لمواجهة العجز الكلي الحاصل في الخزينة والناتج عن فترة وصاية الوزير أبا أحمد.

وبالرغم من أن الاجتهاد الفقهي بالغرب بات يساير بشكل أو بآخر خطة الاتجاه في الموافقة «المقيدة» على المستجدات والتقنيات الحديثة، فإن ما يربط بين إرادة التحديث من جهة والخشية من المس بكيان الهوية والاستقلال من جهة أخرى، كان يجعل كل عمل «تحديثي» يتأرجح بين الاستحسان والاستنكار، بحيث لم يحصل قط ذلك الوعي الواضح والعزم القوي لتحدي العوائق والمبررات «الشرعية» لجعل مشروع الإصلاح امراً مفروضاً، بحيث ظل الحال إلى حين الانتقال إلى وضعية الالتزام بميثاق الحماية.

ويؤكد هذا ما عرفت به خطوات الحسن الأول في ميدان التحديث من اعتدال ومن تقيد بالفتاوي الشرعية، وبذلك ظلت آثار البعثات إلى أوروبا مطبوعة في جملتها بتلبية الحاجيات العسكرية التقنية دون الميادين العلمية والاقتصادية والاجتماعية، مما جعل بنيات الدولة، فضلاً عن المجتمع، لم تكن في استعداد للإفادة من ثمرات تلك البعثات العلمية، وهذا ما جعل أفرادها حين عودتهم مهيبين ومدربين، يعيشون على هامش الحياة التي أعدوا من أجلها⁽³⁾.

ولم يكن السلطان عبد العزيز، خصوصاً في مرحلة وصاية أبا أحمد، ليخفي سعيه إلى الاستمرار في خطة التحديث بصورة واسعة وغير مقيدة، وقد تجلت على الخصوص في جلب المصنوعات الأوروبية من غير ما روية، وإشاعتها في الأوساط الاجتماعية فضلاً عن ملئ رحاب القصر الملكي بها، عوضاً عن السعي إلى إنشاء

(3) نفس المرجع ص. 47.

صناعات وطنية، وإلى حد استنكار المراجع الشعبية ذاتها، وإثارة حفيظة العلماء وإجماعهم على الإطاحة بالسلطان الشاب، وعقد البيعة لأخيه عبد الحفيظ كما هو معلوم.

معلوم أيضا ان البيعة الحفيظية بفاس قامت على شروط ترمي في عمقها إلى تصحيح ما كان العلماء يعتبرونه فسادا أخلاقيا، وخللا سياسيا في عهد المولى عبد العزيز، وقد مضى هذا الرأي يسري في جميع الطبقات الاجتماعية إلى حد ظهور تيار سياسى وفكرى أصبح يري في حدث البيعة الجديدة «حركة ثورية» ستلبي المطامح الإصلاحية التي كان يتوق إليها رواد الفكر المتنور من المجتمع المغربى. ولكن الأمل المعقود على الرمزية الحفيظية كان مآله الخيبة والفشل وتصدع في الرأي وفي كل جهد آيل إلى تحقيق المشروع التحديثى.

لكن بالرغم من هذا الفشل الناجم عن الأحداث المفجعة المنذرة بقدم المستعمر، فلم يعجز التيار السياسى والفكرى الناشئ عن تمالك النفس لاسترداد الحماس وتجميع الطاقات المتمثلة منذ مطلع القرن، في جماعة جريدة «لسان المغرب» حيث أن هذا التيار لم تظل تجلياته محصورة في النقد الإعلامى والتقرير الصحفى بل أن المطلب الإصلاحى أصبح كذلك من هموم يراع مجددى الفكر السلفى الذين تجلى عملهم في الكتابة المعمقة والتأليف المطبوع بالمنحى التنويرى.

في هذا السياق يمكن تقديم الفقيه محمد الحجوى (1874-1956) كنموذج متميز لتيار السلفية المتنورة في معالجة إشكالات التحديث في فترة عاصر فيها الحجوى تيار «لسان المغرب». فكان فاعلا فيها ومهيئا سياسيا وعلميا وعمليا للإجابة عن أسئلة التحديث والإجتهد كما طرحها الفكر السلفى في المغرب وعالجهما في مطلع القرن العشرين «فلقد بلغ خطاب التجديد السلفى مدى بعيدا جدا في المغرب مع الفقيه الحجوى، وفي قراءة ما كتبه مؤلف 'الفكر السامى' ما يغرى بالقول بمدقنوات من الحوار مع الخطاب الليبرالى كما نجده في الفكر العربى المعاصر، بل وفي أكثر أشكال ذلك الخطاب جرأة في الدعوة إلى التحديث: تحديث الدولة وتحديث المجتمع»⁽⁴⁾.

(4) نفس المرجع ص. 97.

لذا نرى أن الفقيه الحجوي لم يتجه في الدعوة الإصلاحية التي كان يتزعمها في مطلع القرن العشرين، إلى العودة إلى المعايير الأصولية المجردة، البعيدة عن كل تبديع، بل كان همه هو إدماج العقائدي بالحدائي، وذلك يجعل الحدائفة فاعلة في الإصلاح وبالتالي فهي خطاب من خطابات الدعوة الإسلامية عملا بالقاعدة الفقهية «الضروريات تبيح المحظورات» فالفقيه الحجوي كان همه الاتجاه بالتشريع إلى منهجية الأخذ بالرأي الراعي للمصالح العامة، الرأي الذي يساند الاجتهاد ويتكيف لا مع حاجيات الزمان وحسب بل مع ضروريات التغيير والتطوير والتحديث، وهو مذهب لا يتعارض عند الفقهاء المتنورين مع مذهب أهل الرأي من أهل السنة.

لهذا كان فقيهننا يتوخى من فتاويه في المخترعات العصرية وفي شؤون المال من تجارة واقتصاد «وتأمين» على السلع والمال، استجابة لحياة المسلم. حياة تتلاءم وأحوال الوقت وتقلبات الزمان إذ يقول: «فأمثال هذه الأحكام هي جارية اليوم أحب الفقهاء أم كرهوا، فلأن نجعل لها مخرجا لتجري على نظام الشريعة وباسم الشريعة خير من تعصب لا فائدة منه سوى العزلة، وسقوط هيبة الإسلام، ونبذ أحكامه. فتأملوا رحمكم الله في أحوال وقتكم، وليس في إمكانكم إدارة الفلك حسب إرادتكم، إذ لا يجوز للعلماء إن يضيقوا على الأمة أو الدولة فيما لا مندوحة عنه، وفيما به حياة الهيئة الاجتماعية، فان خلاف علماء الأمة رحمة.» (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي).

الفصل الثالث

انبعاث شخصية الفقيه الحجوي

في واقعنا الثقافي، من المؤسف أن يصبح التكرار للموضوعية - المبني على الرؤيا الضيقة للامور - جدارا يحول دون الرؤية الصحيحة للأعلام والأفكار، ليصير عامل الزمن مدعى للتناسي والنسيان، بحيث يصعب على الباحث تقويم تراجم العظماء ونقلهم في الزمان والمكان للتعرف على حياتهم وقيمتهم العلمية، ووضع تراثهم في الإطار الحقيقي للتاريخ الثقافي والحضاري للبلاد.

إنه لحق ما لاحظته الأستاذ عباس الجراري من ان يوم يزاح الستار عن المكتبة المغربية وما تكمنه من مختلف ألوان التراث... ويوم يعاد إلى هذه المكتبة ما عبث بمصادرها القيمة يد... المستبدين للحيلولة دون وصولها إلى جمهور القراء والباحثين... ويوم يلتفت إلى هذا التراث بجد وصدق ويتاح البحث فيه بموضوعية علمية وفكر متحرر من جميع ألوان القيود، يومئذ سيعاد النظر كليا في تاريخنا الثقافي والحضاري وسيكتب هذا التاريخ من جديد في إطار يبرز الخصائص الحقيقية للذات المغربية، متخطيا مختلف الفجوات والحواجز التي تحول دون تكميل ملامح هذه الذات في جوانبها الوطنية والقومية والانسانية: إذ ذاك تزول النتوءات والتمزقات التي تمنع الرؤيا الواضحة للتاريخ السياسي والفكري والديني للمغرب، والتي تجعل المتسلطين على رواية التاريخ وكتابته يطمسون بقصد أو بدون قصد، معالم من هذا التاريخ إذا كانت مرتبطة بشخصية أو بفترات لا يروقههم إبرازها (انتهى كلام الأستاذ الجراري)⁽¹⁾

(1) تاريخ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها (المقدمة).

كذلك كان الأمر بالنسبة لمحمد بن الحسن الحجوى، المعروف بالفقيه الحجوى الذى قضت ظروف خاصة «بحجب شخصية مؤلف 'الفكر السامى' الذى يكاد القارؤون المغاربة يجمعون على الإشادة والإعجاب به، فى حين يبدو من وجهة نظر مؤرخ الفكر، أنه قد آن الأوان لندرك فى النظر إلى كتابه الحجوى، كنه القاعدة البشرية التى تقضى بوجوب التمييز، فى الشخصية الواحدة، بين شخصين وأكثر من ذلك..»⁽²⁾

لقد ادت الصعوبات التى تكتنف موازين البحث التاريخى فى المغرب إلى إعاقة انتشار الفقيه الحجوى، هذا المفكر المنسى، من دركته الساحقة بعله ما قد يحدثه فى بعض الأذهان هذا «النبش» فى المكتبة المغربية من تصادمات حول رواية موضوعية لتاريخنا، ولكتابته انطلاقاً من فكر متحرر لا دخل فيه للسياسة وللحزبات الشخصية، لذا يحق لكل ذى ضمير ثقافى أن ينبري لمواجهة هذا الأستلاب المؤدى إلى الإجحاف والتكرر لحقيقة التاريخ الفكرى والحضارى لبلادنا.

وانصافاً فى حق الفقيه الحجوى، يرى عبد الاله بلقزيز⁽³⁾ ان هذا الذى أصابه الإجحاف (لاعتبارات سياسية للأسف) لم يكن تعامله مع «الحماية ثمرة خيانة وطنية، وإنما جاء لأسباب أخرى مختلفة»، أوردها الكاتب فى فقرات بالغة ليستنتج «أنه سيكون على التحليل العلمى للتاريخ الفكرى فى المغرب - لكى ينهض - أن يتحرر من قيود 'الفتوة' السياسى الوطنى الذى مورس على كثيرين، منهم الحجوى وابن المواز.. بل وآخرون أحياء من رجال الفكر والوطنية.»

لقد أصبح والحالة هذه من أوجب الواجبات التصدى إلى البحث فى رفوف الخزانات العامة والخاصة من أجل الوقوف على آثار رجالات هذا الوطن ممن كانوا يشجبون الوضع الفاسد القائم فى البلاد فى حقبة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ذلك الوضع الذى كان ينخر كيان الدولة المغربية، ويهدر روح الوطنية، وينذر بقرب الإحتلال الأجنبى. فعلى كاهل المثقفين يقع عبئ إبراز شخصية هؤلاء الرجال ومواقفهم من أجل انقاذ الوطن وفضح ممارسات الفساد التى كانت تصدر عن الولاة والمحميين وحتى عن بعض المتصبيين للفتوى الشرعية.

(2) الإجتهد والتحديث. م. س. ص. 94.

(3) الخطاب الإصلاحى فى المغرب. ص 212 - 214.

علينا إذن وفي المقام الأول ان نساأل مثقفينا ومؤلفينا عن أحجامهم سنوات طويلة واغضائهم عن القيم الفكرية لآثار الفقيه الحجوي، وتناول مادتها بوضعها في إطارها التاريخي الطبيعي، وربطها بمسلسل انبثاق الأفكار والخطابات الإصلاحية والنهضوية في المغرب، واخضاعها للتقصي والتحليل الموضوعي.

فقد يعز علي القول بأن ثلة من مؤلفينا المرموقين قد حاضروا أو الفوا في موضوعات متنوعة مثل تاريخ الفقه الإسلامي ومسألة المرأة المسلمة، وتجديد أساليب التعليم، وانبعاث الفتوى المبنية على الإجتهد الحق للتوفيق بين أحكام الشرع ومستلزمات العصر، وبذل النصح لدولة المخزن المشرفة عل الإنهيار حول ماينبغي القيام به من اصلاح وتحديث لانقاذ البلاد... وكلها مواد فكرية علمية عالجهها الفقيه الحجوي بقوة في كتاباته العديدة، ورغم ذلك فإن هذا التراث ظل لحقبة طويلة مغمورا خامل الذكر، بعيدا عن كل اشارة هادفة إلى مرجعيته، إذ لم يقع الإهتمام بمحاولات بعثه وإدراك أهميته إلا حديثا عندما انتبه بعض المثقفين الشباب إلى مضمونه الفكري والإصلاحي، فكسروا هذا الطوق المضروب حول فكر الفقيه الحجوي ليمعنوا النظر فيه قصد التعريف به ومتابعته بالدرس والعرض على المستوى الثقافي العام، كي يحتل مكانه في المرجعيات الأولى في التدريس والتأليف الفقهي، والخطاب النهضوي، والمصدر الإصلاحي في مغرب مطلع القرن العشرين.

وبالطبع فقبل ظهور التأليف العلمية والبحوث التاريخية الحديثة حول الفقيه الحجوي، كنا نلمح هنا وهناك في كتابات بعض الأدباء المغاربة من الجيل السابق ذكرا مقتضبا للآثار العلمية للرجل. وما نقرأه من خلال شهادة العلامة المرحوم عبد الله بن العباس الجراي في كتابه (التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين) كان على ما يبدو، أول صوت ارتفع للتعريف بمؤلف «الفكر السامي» وغيره من المؤلفات العلمية التقدمية «التي تبرهن على مدى التحرر الفكري للرجل واطلاعه الواسع وقدرته على البحث والمقارنة دون الاخلاذ إلى التقليد، إذ كان يتعمق المسائل ويخوض غمارها غير مقتنع بما يشرح من ظواهرها، بل يغوص مستنبطا أسرارها، وهو بالذات ما رايناه يحفزه في غير ما موضوع، وغير ما مشكل من مشاكل تحدث في العصر، كمسألة التأمين، ومسألة ترجمة القرءان، ومسألة الأوراق المالية وحكم الشرع في زكاتها... وغير ذلك من المواضيع الجريئة التي لم تكن آنذاك تتلاءم والظرف

الزمانى كالمحاضرة حول تعليم البنات التى ألقاها بمعهد الدروس العليا بالرباط سنة 1925 وحضرها جمهرة من العلماء والادباء والكتاب ما بين مغاربة وفرنسيين، فلفتت أنظار الجموع، غير أن بعض هذه الشخصيات عارض هذا التعليم، مما اضطر معه المحاضر إلى القطع دون الإتمام»⁽⁴⁾.

على أن الضمير الثقافى سىرتاح أكثر عند الإعتراف بأهمية الخدمات التى أسداها حديثا ثلة من المثقفين والباحثين الشباب فى تقصى المناحي الفكرية للمفقيه الحجوى، وأخص بالذكر من هؤلاء المؤلفين أو المحاضرين أو كتاب المقالات، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

سعيد بنسعيد العلوى ضمن تأليفه: (أوربا فى مرآة الرحلة) و(الإجتهد والتحديث) حيث يتصدى المؤلف إلى غوص أعماق الفكر التحررى التقدمى المستند إلى السلفية التنويرية، الذى تميزت به كتابات المفقيه الحجوى حول موضوعات خطيرة، بلورت الفكرة الصريحة التى بعثت الرجل على الصدع بخطاباته النهضوية ودعوته الإصلاحية التحديثية.

ففى مؤلف (أوربا فى مرآة الرحلة) يذكر سعيد بنسعيد العلوى ما مفاده أن الخزانة المغربية تتوفر على مجموعة من الرحلات دونت من لدن مثقفين متنورين عايشوا الأوضاع الداخلى والأحداث التاريخية التى طبعت المغرب فى العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد لعبت هذه الرحلات بوجه عام - بدءا من رحلة الصفار (1846) مرورا برحلة الكردودى (1884) ورحلة عبد الله الفاسى (1909) فوصولاً إلى الرحلة الأوربية للمفقيه الحجوى (1919) - دورا حضاريا ونهضويا

(4) بتصورى لهذا الموقف المعارض لتعليم المرأة أتخيل فقيهننا المحاضر وهو يقطع كلامه ويغادر القاعة، ولسان حاله يقول:

يرانى أناس بالخطا متقلدا	وإن كنت لا أبني إلا المجد والعلى
فيسعون فى ذمى ونسف عزائمي	ويأبون إلا أن أكف أو أهملأ
ولكن صدرى لا يضييق بحالهم	فشيمتهم جهل وحسبى أن أعملا
ولست أبالي إذ يقال أنا الفقيه	المشوش بل مجنون خير أن يخذلا
فأى غيور لا يفدى ويزدرى؟	وكل الذى يسعى إلى الحق يبتلى

(الآيات الشعرية للمؤلف)

كان يهدف إلى استعادة الوعي بالذات ومحاولة إدراك ما يميز الآخر من سمات تقدم واختلاف، ومن ثم التوق إلى اكتشاف سر هذا الآخر مباشرة من الداخل اعتمادا على الذات لا على تلقي الدرس القاسي من الخارج، درس المستعمر.

وفي هذا الصدد كانت الرحلة الأوربية للفقيه الحجوي - حسب ما يراه سعيد بنسعيد العلوي - تمثل لحظة بارزة في سيرورة الوعي بالذات واستعادة الوعي أفضل ما يكون التمثيل، مشيرا إلى أن الفقيه الحجوي صاحب الدعوة إلى التحديث وصاحب منحى الإجتهد في الدين وقول في التجديد - تحديث جوانب من الوجود الاجتماعي وتجديد الفكر وكيفيات النظر - كانت «أوربا الرحلة» تحضر عنده في هذه المناحي جميعها، وحديثه عنها فيه دعوة إلى الأخذ بما كان عندها من جوانب التنظيم التجاري ومن إعلاء لشأن العلوم والفنون، وبالتالي يتواجد في الصورة التي يرسمها لأوربا، ما يتوافق مع ما يمكن اعتباره مشروعاً فكرياً اجتماعياً اقتصادياً، أو مشرعاً اصلاحياً تجديدياً. ⁽⁵⁾

وفي كتابه «الإجتهد والتحديث» يبرز سعيد بنسعيد العلوي بأكثر دقة وتحليل الفكر السلفي التنويري للفقيه الحجوي من خلال كتاب «الفكر السامي» وباقي المؤلفات والمخطوطات العديدة للحجوي مثل (ارشاد الخلق إلى الإعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق) و(جواز التأمين على السلع والبضائع) و(مستقبل تجارة المغاربة) و(الأحكام الشرعية في الأوراق المالية) و(تعليم الفتيات لا سفور المرأة) و(النظام في الإسلام) و(بالإقتصاد حياة البلاد) و(إصلاح التعليم) إلى غير ذلك من آثار الفقيه الحجوي المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط.

ويستخلص سعيد بنسعيد العلوي من دراسته لآثار الحجوي «إن في قراءة ما كتبه مؤلف 'الفكر السامي'، ما يغري بالقول ببلوغ خطاب التجديد السلفي ذي المدى البعيد في المغرب مع محمد الحجوي، وبمد فنوت من الحوار مع الخطاب 'الليبرالي' كما نجده في الفكر العربي المعاصر، بل وفي أكثر أشكال ذلك الخطاب جرأة في الدعوة إلى التحديث: تحديث الدولة وتحديث المجتمع، مما يجعل الفقيه

(5) انظر النص الكامل للرحلة الأوربية - رحلة الحجوي - بكتاب أوروبا في مرآة الرحلات لسعيد بنسعيد العلوي - ص 99 إلى 205.

الحجوى (ومعاصره أحمد بن المواز) من المؤسسين البارزين لمكونات الخطاب السلفى الإصلاحى»⁽⁶⁾.

اما عبد الإله بلقزيز فقد تصدى فى كتابه «الخطاب الإصلاحى فى المغرب» إلى إلقاء الضوء بكثير من الحصافة والإنصاف والأمانة الفكرية على إشكالية الخطاب الإصلاحى فى المغرب فى أصوله الأولى وتطوراته التاريخية، فحصر الفترة الحاسمة لبروز هذا الخطاب فى المرحلة الفاصلة بين وقوع معركة إيسلى وما عقبها من محاولات علمية وأدبية ترمى إلى التحديث، وبين اتمام تحرير «الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى» للفقيه محمد بن الحسن الحجوى، «حيث يشكل هذا المؤلف المحطة الختامية فى طور تكوين الخطاب الإصلاحى فى المغرب، إذ فيه ستضح الموضوعات المركزية التأسيسية لتأخذ هياتها التركيبية».

والقارئ «للخطاب الإصلاحى فى المغرب» سيلاحظ ان الكاتب قد اعتمد فى الدلالة على تكوين هذا الخطاب من حيث المصادر والمراجع، مؤلفات الحجوى «كالفكر السامى» و«النظام فى الإسلام»، و«الحق المبين»، بالإضافة إلى مخطوطاته المحفوظة بالخزانة العامة مثل «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره»، و«التقرير التاريخى عن حال المغرب»، و«الاقتصاد حياة البلاد» وغير ذلك من آثار الفقيه الحجوى التى تحفز إلى التحديث وإلى اكتساب السبق الحضارى بفضل التنظيم الإدارى والمالى «اقتداء - يقول الحجوى - بالدول الأوروبية والأمريكية والجايون التى إنما نهضت من سباتها ووصلت على ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها واحترام الحقوق وضبط الأموال وتدريب الجيوش ونشر العلوم والمعارف».

ومن المثقفين الشباب الذين اعتنوا باستكشاف آثار الفقيه الحجوى والتأليف فيها: محمد الصغير الخلو فى من خلال كتابه المخصص للمذكرات والتقارير الرسمية التى كان يكتبها الفقيه الحجوى فى مطلع القرن العشرين ويوجهها للسلطان عبد العزيز ثم للسلطان عبد الحفيظ حول ما ينبغى القيام به من إصلاحات وتغييرات لانقاذ البلاد من التردى الاجتماعى والسياسى والمالى، وقد شكلت هذه المذكرات نموذجاً ساطعاً من الكتابات السياسية والنهضوية فى مطلع القرن، خاصة المذكرة الشهيرة (انتحار

(6) الإجتهد والتحديث. ص 97 - 98.

المغرب الأقصى بيد ثواره) التي وجهها الفقيه الحجوي للمولى عبد العزيز في موضوع ثورة بوحامرة وخلفياتها وعواقبها الوخيمة على أحوال الدولة المغربية. ولم تكن المذكرات مجرد نقد وتعريض بل كانت تتطرق إلى تقديم مقترحات عملية إيماناً منه بأن الإصلاح أصبح ضرورة ملحة في المغرب فلقد قال الحجوي عن المتولين بأن «لا علم ولا نظام يردعهم ولا وازع أخلاق يعظهم، ووصف بعضهم بعدم الكفاءة، والتواطؤ والتبذير، والبعض الآخر بالإرتشاء والإختلاس والتزوير، وكلهم يعملون على تقديم مصالحهم الخاصة، والاستغناء الفاحش على حساب الرعية، والجيش والمصلحة العليا للبلاد... فعلى السلطان أن يجعل كل وزارة مستقلة في نفسها، قائمة بموظفيها وأقسامها وكتابها وأعاونها، لتجري الأشغال على نسق دائم، فلا تتعذر المصالح ولا تضيع الحقوق... وعلى السلطان أن ينظم إدارة يختار لها الأمثل من الموظفين الأكفاء، ويحدد لكل موظف سلطته، ويخوله التفويض فيها، ويلقي عهدتها عليه، ويجعل عليه المراقبة الشديدة في أعماله»⁽⁷⁾.

ويخلص المؤلف إلى القول بأنه يحق لشخصية في مستوى ومكانة الفقيه الحجوي، أن تتقدم بمقترحات إصلاحية، فالرجل له مؤهلات تخوله هذا الحق، بل هذا الواجب. انه بحكم موقعه كفقيه وموظف مخزني متفتح على عصره، وديبلوماسي حنكته التجربة والممارسة، قد تقدم بحصيلته السياسية الادارية والمالية الى السلطان المولى عبد الحفيظ... وذلك ضمن وثيقة استعجالية لتحليل الأوضاع الداخلية والخارجية تحليلاً طبعه الصدق والصراحة وسعة الاطلاع... ولم يكتف الحجوي بهذا المسعى فقط، بل وجدناه قد ألح على ضرورة تزويد البلاد ببعض المؤسسات، والشروع في إدخال إصلاحات ذات طابع دستوري وسياسي، لان عملاً من هذا القبيل بالنسبة للحجوي من شأنه وضع حد لمطامع المستعمر ووضع العراقيل أمامه... وقد اشترط الحجوي في الإصلاح الناجع توفر أسباب نجاحه. ومن أهم هذه الأسباب: التربية والتعليم، والعدالة والأمن، والإدارة الفعالة المراقبة... أي بالقضاء على الجهل والظلم والفساد.⁽⁸⁾

وبالجملة يمكن القول بان هناك الآن حركة بحث وتأليف تعنى بآثار الرجل

(7) انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره الصفحات 6. 7. 9. 38. 61 من المذكرة.

(8) نفس المرجع. ص 12. 58. 59.

وتحاول استكشاف مؤلفاته ومخطوطاته العديدة وإخضاعها للدرس المعمق والتحليل والبحث العلمي الصرف، وكلها تخلص إلى التأكيد بان الفقيه الحجوي الذي عاش فترة انهيار الدولة المغربية، وتكالب الأطماع التوسعية الأوربية على البلاد، كان رجل علم وإدراك سياسي وذهن متفتح على الأنظمة المتقدمة في العالم الغربي. وهذا الشعور القوي بمسؤولية المواطنه جعله لا يفتر عن تقديم المذكرة تلو الأخرى للسلطان عبد العزيز ثم عبد الحفيظ لتقديم النصح المبني على الموضوعية والواقع المشاهد، وعلى النص الشرعي والحكمة الإسلامية ووازع الإجتهد: النصح بالأخذ بأسباب الرقي والتطور الحضاري لاصلاح احوال البلاد وتحديث هيكلها الإدارية وتنظيم البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فالحجوي لا يعجز عن القول في كتاباته بأن السلطان عبد العزيز حاول جهد المستطاع ادخال الإصلاحات الضرورية على الهياكل المخزنية، إلا أنه كان يصطدم بمعارضة رجال المخزن وبالحاشية المحيطة بالسلطان وبعض الفقهاء الجامدين، وكل المستفيدين من بقاء دار لقمان على حالها، بدعوى مساس الإصلاحات المقترحة سواء من جانب ممثلي الدول الأوربية أو من طرف المغاربة المتتورين، إما بالدين أو بكيان الأمة في نظرهم. وفي الحقيقة لم يكن التخوف من ادخال الإصلاحات على جهازات الدولة إلا بغية الحفاظ على المراكز والمصالح الخاصة.

الفقيه الحجوي يقول: «انتحار المغرب الأقصى كان بيد ثواره... نعم، فإذا صح هذا القول بالنسبة لثورة الروكي بوحمارة وغيره من المشوشين على أمن البلاد، فإنه لا يقل صحة بالنسبة للمغاربة المحتمين بالدول الغربية، منهم التجار والأعيان وحتى بعض المتولين من أصحاب المصالح الخاصة، والأمثلة على ذلك أشهر من أن نوردتها في هذا المقام وكتب التاريخ مليئة بها.

إن أحسن تعبير عن الأمل في انبعاث شخصية الفقيه الحجوي نجده عند سعيد بنسعيد العلوي حين يقول بأن الرجل يحظى الآن من لدن الدارسين بنصيب من الإهتمام يرجع إلى غزارة انتاجه وتنوعه بين التاريخ، والمذكرات، والتقاييد والفتاوي، فضلا عن المؤلفات، وأخصها وأكثرها شهرة كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي). ولا شك أن المشتغلين بالتاريخ المغربي المعاصر يجدون فيما كتبه الفقيه الوزير مادة ثرية وغزيرة معا. «وقد يكفي أن نقول بأننا نظفر، في قراءة كتابة

الحجوي، بنموذج ثري ودقيق معا للمفكر المغربي الذي كان شاهدا على فترة عجيبة من فترات تحول كل من الدولة والمجتمع في المغرب، وإعادة تشكيلها في صور لم تكن مجرد إعادة انتاج للصور السالفة في أقل ما يمكن أن نقول عنها. فكتابته هي صدى لكل ما كان يعتمل في صدور المفكرين من افكار وآراء في تلك الفترة، وهي شكل متميز من أشكال الإنتاج الفكري العربي في المغرب... وأخيرا فإن قراءة الحجوي تجعلنا أمام صورة عجيبة ومثيرة، بل ونادرة من حيث قوة الوعي بها، تلك هي صورة الفقيه - التاجر الذي يوجد فيها جنبا إلى جنب، السلفي المتنور والليبرالي المتمسك بالفكر السلفي⁽⁹⁾.

وفي هذا الصدد لا يفوتنا أن نشيد بالمجهود القيم الذي تبذله مجلة «أمل» لتشجيع البحث العلمي النزيه الصادر عن ثلة من الأساتذة الباحثين في التراث المغربي في مناحيه التاريخية والسياسية والعلمية والفقهية والأدبية، فلا أدل على ذلك من البحث القيم الذي كتبه الأستاذ حميد الصولبي ونشرته المجلة حول الفقيه الحجوي «كنموذج لمنهجية الفتوى الفقهية المبنية على مستلزمات التحديث وضروريات الإصلاح» كذلك الأمر بالنسبة لمداخلة الأستاذ بدر المقري حول «تأصيل الهوية الثقافية في الخطاب التعليمي للسلفية» الذي كان يدافع عنه العلامة الحجوي عندما كان يشغل كرسي التعليم بالمسجد الأعظم بوجدة (1907) أيام كان صدى جريدة «العروة الوثقى» بدأ يصل لأذان الدارسين والمتعلمين بالمغرب⁽¹⁰⁾.

(9) الإجتهد والتحديث - ص 97.

(10) مجلة أمل - العدد 7 - 1996 ص 82 و124.

الفصل الرابع

الفكر النهضوي في خطاب الفقيه الحجوي

الخطاب الإصلاحية في الفكر المغربي في مطلع القرن العشرين يستمد مصادره من الأفكار المنبثقة عن حركة النهضة العربية التي رأت النور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من جهة، ثم من عوامل الإتصالات العفوية بالأفكار والمناهج التي حملها الوافدون المغاربة على أوروبا من جهة أخرى.

وإذا كان رواد الدعوة الإصلاحية الذين برزوا على الساحة المغربية في تلك الفترة اتجهوا في سياقين متباينين: سياق تقليدي بنى فكرته على إشاعة الصحة الإسلامية (الكتاني - كنون الخ .) وسياق حديث بنى فكرته على اعتناق النهج الأوربي في الإصلاح (مؤيدو مشروعات فرنسا وإسبانيا)، فإن رؤية إصلاحية متماسكة مبنية على مصادر تجمع بين الثقى والتحديث، ترضي النخب المغربية المتنورة والمتعطشة للإصلاح، وتفي بأغراض المواطنة الأصيلة، لم تكن غائبة عن اذهان زمرة من العلماء الدينين والمتقنين المحدثين.

وهذا المنهج المتنور في الوعي النهضوي كان له ممثلوه ممن برزوا مبكرا على ساحة الخطاب الإصلاحية⁽¹⁾ وكلهم نادوا بضرورة الإصلاح، إلا أن وسائلهم ومقترحاتهم لم تتجاوز الحلول المبنية على النظرة الفطرية والفكرة العامة في الإجتهد التي لا ترقى إلى المسك بالأبعاد الموافية بالجواب الناجع عن مناحي الخلل في

(1) خاصة الكردودي في موضوع تحديث الجيش والصفار في اكتشاف أوروبا مباشرة في رحلته سنة 1845.

المجتمع المغربى للقضاء على أسبابه الذاتية والموضوعية من أجل خلق مناخ جديـد للإصلاح والتحديث .

ففى هذا السياق يمكن القول بأن الفقيه الحجوى جمع بين أفكار التيارين إذ فى الوقت الذى كان هذا الموظف المخزنى العالم يؤمن إيماناً قوياً بأن فكرة الإصلاح والعمل على تحقيقها عمل من صميم الإسلام، كان يعتقد ويدعو إلى اعتناق فكرة التحديث والأخذ بالمناهج الأوربية فى النظام الإدارى والمساواة فى الحقوق واعتماد الاقتصاد وإدارة المال .

ذلك أن الفقيه الحجوى، توضيحاً لمعالم فكرته الإصلاحية الجديدة وترسيخ آثارها على تغير لهجة الخطاب ومحتواه، كان عليه أن يسلك منهجاً جسوراً ينفذ لأعماق التقاليد المتبعة فى إجراء الإصلاحات كما يتصوره المحيط المخزنى على عهد السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ .

لذا نراه فى أحاديثه ومحاضراته وكتابات ومذكراته يصعد فى وجه المخزن وفى وجه أهل التقليد وأرباب الحل والعقد بأن «التنظيم الإدارى والمالى واحترام الحقوق هو السر فى تقدم الغرب وحيازته قسبة السبق فى التمدن والحضارة والإزدهار» فقد عبر عن ذلك بجرأة قل نظيرها باعتبار السياق التاريخى إذ قال ما نصه: «لما نهضت أوروبا نهضتها المعروفة للرقى العصرى، كان أول حجر وضعته فى أساس مدينتها الزاهرة هو العدل وسن القوانين بالتسوية فى الحقوق، إذ لا يعقل أن تترقى أمة وحقوقها مهضومة وافرادها مظلومة»⁽²⁾ وقال: «أن منتديات أوروبا هى السبب الأكبر فى رقى أفكار أهلها، وبالمنتديات يبتدىء الرقى الفكرى فى كل الأمم قبل المدارس، بل هى بزرة المدارس، وبالمسامرات والمحاضرات التى تكون بتلك المنتديات زخرت أوروبا بالعلوم، وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات. وماتم سلطان الجهل على العلم فى بلاد الإسلام إلا بانقطاع الوصلة بين طبقات الأمة، فلا يلتقى جاهل بعالم إلا فى قارعة الطريق، وطرق المدن المغربية ضيقة تضيق عن إمكان المفاهمة، فلا تتحاك الأنظار...»⁽³⁾.

(2) الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى - ج. 1 - ص 14 .

(3) العروة الوثقى - ص 19 .

فكأن فقيهننا وهو ينظر بعمق إلى تفكك المجتمع المغربي يعني على الطبقات الميسورة والمنتورة من الأمة سلبيتها وكأنه يستشرف الدور الطلائعي الذي يلعبه المجتمع المدني في رقي طبقات الأمة بفضل المنتديات والجمعيات الثقافية لبعث التقارب بين الأفراد والجماعات .

لقد عايش الفقيه الحجوي فترة تاريخية شاهدت فيها دولة المخزن والمجتمع المغربي والفكر السلفي تحولا أفضى إلى إفلاس المشروع التحديثي العزيمي (مشروع القناصل) والرمز الحفيظي بآماله وطموحاته الوطنية، ومشاريع فتیان المغرب من خلال صحافة «لسان المغرب». وتحت تأثير كل هذه العوامل كان لابد لفقيهننا أن يتعامل مع التشكل الجديد للبيئة المغربية بتفكير إصلاحي وتحديثي من لون جديد يتجاوز فيه السلفي والليبرالي، بغاية الإتفاق في المبادئ الكبرى للحياة، ولم يزغ الفقيه الحجوي في خطابه النهضوية المبنية على «فقه التحديث» عن الخط الإسلامي المستند على الأصول الشرعية في الحكم - خاصة المدرسة الشاطبية - وهو في الوقت ذاته يعمل على محاورة الواقع العسير المتجلي في التفكير العميق والنمط المتجاوز.

فقد كان الرجل يعي لدرجة المعاناة ما كانت البلاد محتاجة إليه من إصلاحات عميقة، كما أنه كان يعاني الشيء الكثير من تجسيده هو نفسه لصورة حياة مخالفة ومناهضة للإنتاج السالف، وأيضاً من محاورته لقيادة ضعيفة وأفكار عصر مضى لم يعد فيه مجال لتراكيبات إدارية واقتصادية ومجتمعية أكل عليها الظهر وشرب، ولانحلال تعليمي - مدرسي وجامعي - أصبح من المتعين تقويمه بكل ما يلزم من السرعة .

لا يخفي ان الفقيه الحجوي احتل مكانة عليا في الفقه الإسلامي فقد اكد تالفه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» قدرته العلمية والعقلية في مجالات البحث والتفكير والإفتاء في الاقضية الخطيرة الجانب فقها وعبادة، فبرهن عن أصالة فيما قدمه من آراء وما طرحه في قضايا شكلت معالم مضيئة في عظمة الفقه الإسلامي وتاريخه عبر العصور الزاهرة قبل غلق باب الإجتهد⁽⁴⁾. وكان قلمه وهو يسترسل في تحرير فصول كتابه يفيض ليسجل عند كل محطة فقهية ما كان يعتمل في صدره من

(4) تم تصنيف كتاب الفكر السامي ضمن موسوعة الفقه الإسلامي لجامعة دمشق.

احساسات عميقة نحو الإصلاح والتحديث عن طريق الاجتهاد الحق وإعمال قوة الفكر السلفى التنويرى الذى كان يؤمن به أشد الإيمان، وكأنه كان يجد فى إطلاق العنان لبعث الإجهاد الذى اغلق بابه، راحة وتنفيفا لمعاناته.

تلك كانت طريقة تفكيره فى العديد من تأليفه ومذكراته، خاصة: النظام فى الإسلام - المحاضرة فى إصلاح التعليم - مختصر العروة الوثقى - المحاضرة فى تعليم البنات - جواز التأمين على السلع والبضائع - مستقبل تجارة المغرب - ارشاد الخلق إلى الإعتماد فى ثبوت الهلال على خبر البرق... الخ وكلها تناولت بكثير من الدقة مسألة التوفيق بين التصورات الحدائىة وأحكام الشريعة تحفيزا منه على محاربة الجمود، والدعوة لتحريك الهمم، والحث على البعث الإصلاحى فى المجالات الإدارية الاقتصادية والاجتماعية، فضلا عما يللمسه القارئ فى هذا الانتاج الضخم من توضيحات تتميز بحدة الملاحظة والاستنباط فى مجال الاجتهاد والتشريع.

وكما سبق القول فإن محاوره الرجل للواقع المعاش المتجلى فى الخط التقليدى السكونى، والإصرار على فلسفة الرفض لكل ما يحمل تغييرا أو يأتى بجديد، ومجابهته لهذا الواقع العسير لم تكن لتتجسد وحسب فى شدة المعاناة، بل وايضا فى مرارة الإخفاق فى تبني مشاريعه الإصلاحية من لدن محاوريه سواء من القيادة أو من القائمين على شؤون المجتمع، ناهيك فى هذا المقام عن اجهاض مشروع المجلس التحسينى لنظام التعليم بالقرويين، وعن اخفاق مشروع التخلي عن نهج «المختصرات الفقهية والحواشى» وعن مشروع تجديد الكتاب الدراسى بالقرويين، وناهيك أيضا عن المعارضة الشديدة التى قامت ضد الدعوة إلى تعليم البنات، باعتبار هذه الدعوة «مدعاة إلى تحرير المرأة اخلاقا وتفوقا على الرجل». وبالجملة فالفكر العقيم السائد المرتكز على الأنماط المتجاوزة، لم يكن ليستسيغ معالم الفكر التحررى الذى برزت فى خطابات وكتابات الفقيه الحجوى.

الفصل الخامس

تجديد الفتوى عند الفقيه الحجوي

ينعي الفقيه الحجوي باللائمة على المقلدين المتحجرين ويتحسر «لكون الافتاء أصبح في زمانه بيد الفقهاء المعروفين من أهل التقليد ولا يوجد من بينهم في المغرب آنذاك من يدعي اجتهادا أو رتبة ترجيح أو يقدر أن يفوه بها، وأن غاية ما يشترط فيمن ينتصب للفتوى أو القضاء في إحدى العواصم الكبرى أن يكون له إلمام بقواعد العربية ويفهم دقائق معاني الكلام، فالغاية هي أن يعرف مطالعة الكتب ولا سيما مختصر خليل بشرحيه الخرشي والزرقاني وحواشيه، مما صار عند أهل جيلنا المنحط قائما مقام الكتاب والسنة إذ لو توجهوا لكتاب الله وحديث رسوله لآخذوا الأحكام الصحيحة منها، ولهذا فكم من مفت وقاض لا يعرف ماذا كتب، ولا ما حكم به، ولا يميز بين ما اثبت أو نفى، وكم سمعت من فتاوى وأحكام في البوادي والمدن يضحك منها ويبكى على غربة المغرب والدين من أجلها»⁽¹⁾.

لهذا كان الفقيه الحجوي يواجه المتاعب ويتحمل المعاناة في سبيل اقتناع التيارات التقليدية المتحجرة المعادية للتطور التحرري، فكانت وسائل الإقناع عنده مبنية على القياس كأساس للبحث عن كفاءات قولبة الأحكام الشرعية على نوازل العصر. وهكذا يصدع في كثير من كتاباته بأن «السبب في جحود النظام في الإسلام هو أننا تأخرنا كثيرا ولم نشعر بدرجة تأخرنا ومن تأخرنا قياسنا الماضي على الحاضر والسلف على الخلف»⁽²⁾.

(1) الفكر السامي - الجزء الثاني ص 431

(2) النظام في الإسلام - محاضرة مطبوعة للفتوى الحجوي - المطبعة الوطنية 1928 - الرباط - ص 55.

إن البنية التقليدية للمجتمع المغربى «أنجبت» فقهاء ومفتين متمزتين أكثر مما أنجبه الفكر السلفى المتنور المسائر لمستجدات الحداثة مسائرة تأخذ شرعيتها من النص الفقهى لتجتهد من دون ما تبديع، كما هو الشأن عند الفقيه الحجوى وغيره من فقهاء عصره من ذوى التوجهات المتنورة الذين اجتهدوا فى ميدان الإصلاح للدفع بالمجتمع المغربى نحو الأخذ بوسائل التقدم (مثل احمد بن المواز وعبد الرحمان بن زيدان وأبو عبد الله السلىمانى وغيرهم).

ولرد عن بعضهم ممن غلب عليهم الفكر الخرافى فتساهلوا فى أسانيد الحديث لدرجة أنهم أصبحوا يروونها عن «عبد الرحمان شمهورش قاضى الجن». يقول فقينا محمد الحجوى بأن الإسناد الذى هو فخر الأمة الإسلامى لا ينبغى فيه التساهل والاعتماد على الوهم بل يجب التثبت كما كان سلفنا الصالح، وإن الخيال خيال والخيال يغلب الاختيار فىوهمهم سواد الليل بياض النهار. . . . ولكننا نطرح هذا فى سلة الخرافات، والله فلولا فلسفة اصحاب الحديث فى التحقيق والتنقيب والتثبت والاحتياط، ما وصلتنا الشريعة الا بمبدلة، ولكن خلف بعدهم متأخر ون تسامحوا وتساهلوا فقبلوا صحبة «شمهورش» فى اصح الصحيح فارتكبوا العظام التى يحاسبهم التاريخ عليها.⁽³⁾

- لقد تساءل الاستاذ حميد الصولبى وهو يتحدث عن منهجية بناء الفتوى فى الفقه المغربى الحديث وعن علاقة الافتاء بمستلزمات التحديث، تساءل عن كنه الدافع لتأسيس الفتوى: هل كان بمحض تعزيز التداول الفقهى وتدعيم ثقافة السلف ام كان بدافع التجديد والرغبة فى الاجتهاد ومسائرة تطورات التحديث، فخلص الى القول بان حدث توقيع معاهدة الحماية سيفرض على الفقيه المغربى، الواقف بين بنيتة الفكرية التقليدية وضرورة الالتحاق بركب الحداثة، استعمال نظره حول قضايا استحدثت فى مجتمعه ولم يكن له سابق عهد بها، وهو الآن مكلف بالاجتهاد والافتاء فيها بحسب مرجعيته الفكرية وما يمليه عليه نظامه التشريعى الإسلامى، وبالتالي كيف استطاع الفقيه المغربى ان يميز بين التحديث كتعبير عن تطور حاصل فى الفكر والعقل، والتحديث كبدعة استحدثت لتشوش على الدين والمعتقد.⁽⁴⁾

(3) العروة الوثقى - الفقيه الحجوى مطبعة الثقافة - سلا - ص 35.

(4) مجلة أمل العدد 7 - 1996 ص 82.

وفي هذا الصدد اتى الباحث بنماذج من فتاوي الفقيه الحجوي (الى جانب فقيه آخر وهو احمد بن المواز) لمعرفة هل نجح الفقيه المغربي في هذه العملية المنهجية وهو ينتج فتاوي الإصلاح، أم أن طريقته هاته بقيت سجينة رد الفعل والتخوف من كل جديد أتت به الحداثة الغربية. وقد كانت خلاصة تمحيص فتوى استعمال التلفون والتلغراف في ثبوت الهلال، «أن الفقيه الحجوي عالج المسألة بمنظار الفقيه المتنور الذي يتشبث بأصوله الحضارية الاسلامية، وفي نفس الوقت يهيم نفسه وعقله لقبول الحديث والجديد المناسب لتلك الاصول. وعلى مقاصد الشرع وضرورات العصر سيؤسس الحجوي فتواه بالجواز اعتمادا على القياس مادام هذا الجواز مرتبطا أولا وأساسا بضرورة المجتمع المغربي، ومادامت هذه الضرورة لا تخل بأصل من أصول التشريع الإسلامي ولا تتنافى مع مقاصد الشارع»⁽⁵⁾.

لا جدال أن خزانة الفقيه الحجوي تحفظ لنا رصيذا هائلا من الفتاوي الجريئة في نوازل تتصل بانشغالات استحدثتها التطور الذي عرفه المجتمع المغربي في ميادين المال والاقتصاد، وكانت هذه المستجدات التي فرضها العصر على مجتمع ذي بنية تقليدية، تملئ على الرجل التعمق في أصول الشريعة ليستنبط من أغوارها حلولاً يكون من شأنها تقريب المسافات بين مقاصد الشرع وما يفرضه واقع التطور ومستلزمات العصر. ففي هذا المعنى يصيح الحجوي في وجه المقلدين الجامدين «المفتي لا يجوز له الاسترسال في الإفتاء بما جرى به العمل، ويظن أن حكمه مؤبد، بل هو مؤقت ما دامت المصلحة أو المفسدة التي لأجلها خولف المشهور قائمة... ولا يسري عرف بلد على بلد، ولا يحكم بزمان على زمان»⁽⁶⁾.

ويربط الفقيه الحجوي الاجتهاد بالتحديث باعتبارهما ديناميتين تؤثر احدهما على الأخرى، فيرى بأنه كلما تقدمت مظاهر التحديث، برزت معالم الإجتهد وظهر فقهاء الاجتهاد، كما أن استمرارية الاجتهاد لا تخلو من إثارة النزوع إلى التطور والتحديث، لذا يقول «يظهر لي أن ندرة المجتهدين او عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها، فإذا استيقظت من سباتها وانجلى عنها كابوس الخمول، وتقدمت في مظاهر حياتها التي اجلها العلوم، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من

(5) نفس المرجع ص 85.

(6) الفكر السامي - الجزء الثاني ص 410.

طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كالأمم الأوربية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدين مع علماء الدنيا فيظهر المجتهدون».

فدينامية التحديث عند الحجوي مناقضة للتقليد في ميدان الاستنباط الشرعي. فلا تحديث بدون اجتهاد، ومن هنا يتعين الحذر من التقليد، بل نبذه كلما استطاع المنتصب للقضاء والفتوى ذلك، أي أن التقليد «لا يكون سائغا للضرورة، فإذا انتفت الضرورة، وجب نبذه عملا بقوله عليه السلام: يذهب العلماء ثم يتخذ الناس رؤساء جهالا يسألون، فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون (أخرجه البخاري). وفيه قال ابن عبد البر: هذا نفي للتقليد وإبطال له... وقد اجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله»⁽⁷⁾.

«العالم الفقيه إذن - في نظر الحجوي - والعالم بأحكام الشرع ومقاصده يجب عليه أن يكون على صلة دائمة بكل الاكتشافات التي ينتجها التحديث حتى يستطيع بذلك تطور اجتهاداته وتجديد فتاويه وإعطائها طابع الاستمرارية»⁽⁸⁾.

(7) نفس المرجع ص. 460-412.

(8) ذ. حميد الصولبي مجلة أمل ص. 92 (مرجع سابق).

الفصل السادس

فكرة الحرية ومدلولاتها الجديدة

1- الفكر التحرري والاجتهاد: ثنائي متلازم

رغم أن الفقيه الحجوي ترك أكثر من مائة تأليف⁽¹⁾ ما بين ما صنف وما حقق وحاضر واختصر، فإنه لم يكتب له الحضور في الخطاب النهضوي القومي باعتباره يمثل عند الرأي العام الاتجاه الفقهي، إذ ظل هذا التصور هو السائد في المجال الثقافي المغربي إلى حين التسعينات حيث ظهرت الاهتمامات الأولى بأثار الحجوي لتبرهن على حجية الفكر العقلاني والتيار التنويري عند الرجل، وذلك من خلال مجموعة من مؤلفاته المطبوعة منها وغير المطبوعة، ومذكراته المحفوظة بالخرانة العامة والتي تناولت بكثير من الدقة وحدة الملاحظة مسألة التوفيق بين التصورات الحدائية واحكام الشريعة.

ولم يكن الحجوي مقتصرًا في كتاباته على التنظير الأكاديمي بل كان يجعل من كتاباته دعوة لتحريك الهمم وخطابًا نهضويًا ثارة مفتوحًا وثارة مبتوتا في ثنايا كتاباته العلمية في الفقه والتاريخ والسياسة إذ لا يخلو أي كتاب من كتبه أو مذكراته من الحث على البعث الإصلاحية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والادارية فضلا عن التوضيحات التحررية في مجال الإجتهد والتشريع بصفة عامة.

(1) جاء في كتاب الفكر السامي، ص 388. ج. 2 للفقيه الحجوي معددا تواليفه انها بلغت آنذاك (1918) خمسين تأليفا بين مطول ومختصر، ومطبوع أو مخرج أو مسود كما هو مبين في الفهرس، وبعض منها يكون مسامرة أو محاضرة ألهاها في موضوع علمي أو اجتماعي أو أخلاقي أو اقتصادي أو نحو ذلك. . ولحدود سنة 1938 بلغت مؤلفاته 99 تأليفا حسب ماسطره بنفسه في كتابه مختصر العروة الوثقى ص. 70 انظروا القائمة ضمن الملحقات.

والوقوف، ولو على الخطوط العريضة لمناحي الفكر الإصلاحى النهضوى عند الحجوى، سىأخذ الحيز الواسع من الحركة الثقافية والإهتمام بالبحث العلمى لاستجلاء المناحي الفكرية المتعددة التى ميزت مواقف الفقيه الحجوى كرجل دولة وكعارف بأحوال الإقتصاد المعاصرة له، ثم كعالم وفقه مارس علوم الفقه والأصول وبنى صيغة الفتوى على أسس السلفية المتنورة المتفتحة على قيم التحرر الفكرى.

فالاتجاه فى أمور الدين لم يكن فى حد ذاته عند الفقيه الحجوى «السلفى المتنور» علما تحقيقيا يقصد به تأويل أحكام الشرع بهدف التبارى فى «فن» أو «تقنية» صياغة قوالب فقهية مسبقة لتتنطبق على نازلة أو أخرى من نوازل العبادات والمعاملات، بل إن «الاتجاه عند الفقيه الحجوى السلفى الذى لا يبرح موقع الإسلام فى النظر إلى نوازل الحياة المعاصرة لا يعنى العودة إلى الأصول فحسب بل هو يتعدى ذلك إلى التشوف إلى المعاصرة والتطلع إلى توظيف قيم العصر فى نسج الفكر والمجتمع»⁽²⁾. والمثل هنا هو انطلاق الحجوى من دعوته إلى التوفيق بين أحكام الشريعة ومستلزمات التحديث ومتطلبات الإصلاح حين يؤكد أن «علينا النظر للحقائق الراهنة، وذلك باعتبار أحوال أهل زماننا الحاضرة، وأن نربى رجال الاجتهاد للمستقبل... فلتطرح الأمة عنها التعصب، ولتكن مذهباً واحداً وهو اعتبار جميع المذاهب، والأخذ من كل مذهب بما يوافق الأدلة، ويناسب روح العصر، والوقت والحال والمكان والضرورة... فكل من مذاهبنا على صواب فى كل المسائل. إذ لم يكن بينهم خلاف فى العقائد (كما هو الشأن فى المسيحية واليهودية)، وإنما هو خلاف ثانوى فى الفروع فقط التى هى محل الاجتهاد، يأخذ فيها كل واحد بما قام عليه الدليل عنده للاكتفاء فى أدلتها بالظنيات، ولذلك كان كل واحد من الأئمة يجلب الآخر ويأخذ عنه ويثني بعضهم على بعض علما ودينا... فاختلاف مذاهب الفقهاء مفيد لنا إذا كنا نريد أن نهض متمسكين بالشريعة غير متعصبين للمذاهب، والنهضة الحقيقية للأمة والفقه هى أن يوجد فى الأمة فقهاء مستقلون فى الفكر مجتهدون، يأخذون الأحكام من الكتاب والسنة رأساً، عارفين بهما معرفة كافية لكل خلاف وتقليد...»⁽³⁾

(2) عبد الإله بلقزيز «الخطاب الإصلاحى فى المغرب» ص. 24

(3) الفكر السامى - الجزء الثانى ص 410 449 450 . 461

فالحجوي يرى ان حياة الأمم لا يمكن ان تستمر وتزدهر الا بالاجتهاد في أمور الدنيا والدين، وان علاقة التحديث والإصلاح بالاجتهاد والابتكار أمر ظاهر برهنت أحوال الأمم وسيورتها على جدارته وحقيقته، لأن ندرة المجتهدين أو عدمهم هو من الفتور الذي أصاب عموم الأمة في العلوم وغيرها، فاذا استيقضت من سباتها، وانجلى عنها كابوس الخمول، وظهر فيها فطاحل علماء الدنيا من طبيعيات ورياضيات وفلسفة، وظهر المخترعون والمكتشفون والمبتكرون كما في الامم الأوربية والأمريكية الحية، عند ذلك يتنافس علماء الدين من علماء الدنيا فيظهر المجتهدون⁽⁴⁾.

2- مفهوم الحرية عند الفقيه الحجوي

ويربط الحجوي إشاعة حرية الفكر لدى الامم بممارسة علمائها ومثقفها للاجتهاد ممارسة مستمرة لا تتوقف ولا تعجز أمام أي ظاهرة من ظواهر التطور الحضاري والفكري، ذلك أن الاستبداد - يرى الحجوي في نفس السياق - ماح او مضاد للاجتهاد ولحرية الفكر، اذ هي - أي الحرية - من دواعي الاجتهاد، ولا شك أن الأمم الإسلامية لا تشغل مقاما ساميا بين الأمم مادامت ناقصة في هذه الميادين، وهي محتاجة لمجتهدين باطلاق، عارفين بعلوم الإجتماع والحقوق، يكون منهم أساطين لسن قوانين دنيوية طبق الشريعة المطهرة تناسب روح العصر، وتنطبق على الأحوال المتجددة والترقي العصري كما يوجد عند سائر الأمم لجان من الفطاحل المشرعين في مجالس النواب والشيوخ لهذا الغرض... ولا عبرة بأمة لم تعرف حقوقها فتحفظها ولم تأمن عامتها شر خاصيتها فذهبت حقوقها وضاعت ثروتها بين المرتشين والمداهنين⁽⁵⁾. ويضيف الحجوي في العديد من كتاباته ما مفاده أن أوروبا والجبابون وغيرهما من الأمم المتقدمة لم تبني تقدمها على الجهل والظلم والفساد بل على التربية والتعليم والعدالة والأمن والنظام، مما يدل على مدى حفظها لكرامة الإنسان ورفعها لمنزلته. إذ لا يعقل أن تترقى أمة وحقوقها مهضومة وأفرادها مظلومة...

ولعل ما استوعبه الفقيه الحجوي في نسجه للفكر التحرري وتعمقه في مفهوم

(4) نفس المرجع.

(5) نفس المرجع.

الحرية لجدىر بأن يجعل منه صلة وصل بين مرحلتين فى فهم الحرية فى معانيها الجديده، وذلك سيرا مع ما يراه محمد سيلا تركيزا على كتابات الناصرى والسليمانى والكتانى كمرحلة أولى (فى فهم الحرية)، ثم سعيد حجى وعلال الفاسى كمرحلة ثانية إذ يرى «أنه رغم استيعاب ممثلى المرحلة الأولى للمضامين الجديده لفكرة الحرية، فإن تصور هؤلاء لها ظلت تدور فى إطار أخلاقى محظ لم يستوعب مدلولاتها السياسية والفلسفية العميقة، إن لم نقل أنه اتخذ موقف الرفض لمفهوم الحرية التى جاء بها الأوربيون باعتبارها 'مسيئة' للقيم التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى»⁽⁶⁾.

يحق لنا إذن القول بأن مفهوم الاجتهاد الفقهى فى منظور الفقيه الحجوى يتعدى تلك المضامين المحدودة المتصلة عادة بالنوازل والعبادات والمعاملات ليستوعب المدلولات السياسية والاجتماعية وابعاد التحرر الفكرى، كما يربط النسيج الفكرى بتطور مفاهيم الحرية للانتقال به من الأطارات التقليدية إلى المعانى الجديده الآلية إلى التقدم الحضارى والفكرى للمجتمع، وإلى نبذ الاستبداد المضاد للاجتهاد ولحرية الفكر، والمحافظة على الحقوق المشروعة وإشاعة وسائل محو الجهل والظلم والفساد لحفظ كرامة المواطن ورفع منزلته اقتداء بما حققته الأمم المتقدمة.

الحجوى يعد فى نظرى، من الأدمغة الرائدة التى بشرت بظهور دعاة الديموقراطية ممن وضعوا على الساحة الوطنية المبادئ الدستورية التى تمثلت فى جماعة «لسان المغرب» وامتدت خيوطها إلى الحركات التى زامت فترة الإحتلال فهو كان يقول «بأن التنظيم الإدارى والمالى واحترام الحقوق هو السر فى تقدم الغرب وحيازته قسبة السبق فى التمدن والحضارة والإزدهار: فقد عبر عن ذلك بجرأة قل نظيرها باعتبار السياق التاريخى إذ قال مانصه: لما نهضت أوروبا نهضتها المعروفة للرقى العصرى، كان أول حجر وضعت فى أساس مدينتها الزاهرة هو العدل وسن القوانين بالتسوية فى الحقوق إذ لا يعقل أن تترقى أمة وحقوقها مهضومة وأفرادها مظلومة»⁽⁷⁾.

(6) المغرب فى مواجهة الحدائة - سلسلة كتاب الجيب - الكتاب 4. يوليو 99 - فصل فكرة الحرية فى الفكر المغربى الحديث.

(7) الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى. ج 1 ص 14.

الفصل السابع

الفقيه الحجوى وهو يتحدث عن نفسه

من خلال مشواره العلمي والمخزني ومشاريعه الإصلاحية

ان الفقيه الحجوي، وهو يتحدث عن الوضع المتردي للبلاد لم يكن مجرد فاضح للفساد بل كان فاعلا إيجابيا يدعو إلى الإصلاح ويغير المنكر بيده او بقلمه كلما استطاع لذلك سبيلا وكان ذلك بحكم الوظائف المخزنية التي تقلب فيها، ففي الوقت الذي كانت طنجة عاصمة للهيئات الدبلوماسية الغربية، كانت وجدة تمثل الرمز القوي للمقاومة بالنسبة للدولة المغربية إزاء الضغوط والتهديدات التي كانت تمارسها فرنسا على المغرب انطلاقا من ارض الجزائر سواء ما قبل معركة ايسلي او ما بعدها ولم يكن قرب المدينة المجاهدة - وجدة - من قوات الاحتلال الفرنسية ليضعف من صلابة السكان وعلو همة الممثلين المخزنيين المتعاقبين على رأس المنطقة في الوقوف في وجه تحرشات الجيش الفرنسي كلما توفرت لديهم الوسائل الحربية والعسكرية. ومن بين هؤلاء الممثلين كان هناك الفقيه الحجوي الذي شغل منصب أمين ديوانة وجدة ثم «علاف» (المقتصد العسكري) في الحقبة المتراوحة بين 1904 و1909.

وعن هذا يقول في كتابه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي»⁽¹⁾ «توليت امانة ديوانة وجدة، ولما ظهر للمخزن ثمرة أعماله في ضبط أمر الديوانة حتى سار مدخولها ثلاثة أضعاف ما كان قبلي على ضعف النظام واختلال الامن، وتيقن بما هو مشبوت في الدفاتر الرسمية من نجاح الأعمال، حصلت له الثقة، فزاد لي على ذلك

(1) انظر صفحة 384. 385 من كتاب الفكر السامي.

وظيفة مفتش الجيش الذى كان مرابطا هناك لصيانة وجدة من هجوم أبى حمارة، وشغله هناك عن رد وجهته عن فاس، وكان هو معظم الجيش المغربى اذ ذاك، وذلك سنة 1321، فكننت بهذه الصفة نائبا عن وزير المالية فى امور الجيش المالية، وعن وزير الحرب فيما يرجع الى الأسلحة والذخائر الحربىة وما الى ذلك، وبمجرد استلامى للوظيفة أخذت فى التفتيش والضبط، وإسقاط كثير مما كان زائدا فى قوائم الجيش باطلا ولا حقيقة له مما كان من اسباب سقوط المغرب، ويسمى فى اصطلاحهم (المنفوخ)، وحسنت مادة بيع الذخائر والأسلحة، وأحرزت خزنتها كليا، فاقصدت لخزينة الدولة ما ينيف عن عشر الف بسيطة عزيزية يومية كانت تحمل على عاتقها، وتذهب فى بطون لا تعرف الشىء هباء منثورا. . . وقد قصدت بذلك انقاذ الوطن المهدهد، وإصلاح ما فسد، وقد كافأنى المخزن على هذه الأعمال بترقيتى إلى وظيف أعلى زيادة على ما قبله وهو نائب الملك فى الحدود. . . حيث كلفت بتنظيم جيش لحراسة الحدود المغربىة، ثم اسندت إلى سفارة عن المغرب بالجزائر مع وظائفى المتقدمة، والكل متقارب العهد سنة 1321 المذكورة. . . لكننى طرأت على عوارض صحية لتراكم الأشغال مع اشتباك الأحوال السياسىة بالعاصمة فجأة، وعزم المخزن على عقد مؤتمر الجزيرة، فاستعفيت سنة 1323، واستقدمنى السلطان، فقدمت فاسا، وعرض على اسمى عضوا فى المؤتمر، فاعتذرت، وليس كل عذر يبدو ولا كل داء يعالج. . . »

وفى سنة 1330 سميت نائب الصدارة العظمى فى وزارة العلوم والمعارف، أول ما احدث هذا الوظيف فى المغرب آخر أيام السلطان المولى عبد الحفيظ فقبلته رجاء نفع العلم، وفى مدتى انفتحت عدة مدارس ابتدائىة بالمدن المغربىة بعد خلوها منها، وباشرت ادخال العربىة والدروس الدينىة والقرآن العظىم لها، وبسبب ذلك حصل الإقبال على التعليم، وامتألت المدارس شيئا فشيئا، وانتشرت فى عموم المملكة حتى البوادي. . . وفى سنة 1331 باشرت تنظيم المجلس التحسينى لاصلاح التعليم بالقرويين وهو المجلس العلمى الموجود الآن، وهى بذرة لا بد ان تنبت ولو بعد حين. أسست هذا المجلس، وألفت قوانينه التحسينىة وما كان لفظ نظام أو تنظيم يعرف. . . ولا كان يوجد لعلماء ذلك المعهد مرتب أو ترتيب حتى فاجأتهم بذلك، فنفروا عنه، وبعد أن فهم المقصود أهل البصائر منهم بما بذلته معهم من النصيح والبيان، جأر منه من كان

معتليا مقاما يقضي عليه التنظيم بالنزول عنه . . . ثم استعفيت سنة 1332، واسقط هذا
الوظيف من الوظائف المخزنية مدة . . .

ثم رجعت سنة 1339 (1921) لوظيف نيابة الصدارة العظمى في وزارة العلوم
والمعارف . . . ومن أحسن ما أمكنتني القيام به تفقد المدارس من حيث العلوم العربية
والدينية من حين لآخر، وتتبع سيرها، وبث روح النهضة فيها، والميل إلى إحياء
علومنا، والتشبع من العلوم العصرية، وحث المعلمين والمتعلمين على حفظ النظام،
وتوجيه كلية النظر نحو العلم والأخلاق ومكارم الدين . . . فإن ذلك من خير الأعمال
التي يتسنى لنا بها التجديد . . .

وإني لأوصي الشبيبة المغربية التي أوقفت نفسي على ثقافتها، والأخذ بناصيتها
بتوجيه وجهتهم نحو رقي البلاد من حيث الأخلاق الكاملة، وثقافة الأفكار بالعلوم
النافعة، ونشر محاسن الدين الحنيف والكشف عن أسرارها، وإزالة غشاوة الجهل به
عن العقول حتى يقف الناس على معنى الدين الحنفي، وينبذوا كل الأوهام التي
خلطت به من أعدائه . . . وليستعينوا على ذلك بتهديب الأخلاق . فالأخلاق أساس
كل نجاح . . . وليتجنبوا المجادلات الدينية والإختلافات المذهبية . . . وليجتهدوا أن
يتخرج منهم مدرسون ماهرون يحاربون المساوي التي أوجبت انحطاطنا في الهيئة
العالمية، ويحاربون تطرف الأفكار التي اضعفت وقتنا، وليحاربوا عدو الإسلام الألد
داء الأمية حتى يصير جل امتهم يقرأ ويكتب ويحسب . . .

وعليهم بانهاض قومهم ووطنهم اقتصاديا بالإرشاد إلى استخراج كنوزه العظيمة
التي اختلطت بأرضه ومائه، وبث روح جديدة في التجارة والزراعة والصنائع وكافة
أنواع الإقتصاد. وليحاربوا الفقر بالإقتصاد والإختصار من العوائد التي تستنزف
الأموال، وباستنتاج الخيرات من الأرض والمياه، وبإحياء الصناعات الوطنية
والنهوض بها إلى مستوى الرقي الجديد، فبالإقتصاد اصبح العالم مستعمرة
إسرائيلية . . . (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي الجزء الثاني ص 385 إلى
(389).

الفصل الثامن

المشروع الإصلاحى للفقهاء الحجوى

1- مذكراته للسلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ

كان الحجوى يوجه باستمرار إلى السلطان عبد العزيز مذكرات يتعرض فيها إلى فساد الشؤون الإدارية والعسكرية، كما انه كان يكتب عند كل مناسبة أدبية أو تأليف علمي ما كان يخالجه من هموم بسبب اضطراب الأحوال السياسية في المغرب واختلال شؤون الحياة الاجتماعية وتدهور الرصيد الفكرى والعلمى، وهكذا يرى أن "انقلاب الأحوال بالمغرب بدأ بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية الدولة واللجوء للسلف الأوربى، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب وابطاله في الحروب الداخلىة. فقد اختل النظام وضاع الأمن وفسدت الأخلاق، وضاعت الفضيلة والأمانة، وتكالبت الناس على الرياضات الوهمية وجمع الحطام، وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزىزية، وتتابع المحن واطلم جو المغرب"⁽¹⁾.

لقد برهنت سلسلة التمردات ضد سياسة المخزن العزىزى العقيمة عن «واقع الممانعة التي أبداها قسم من المجتمع المغربى في مواجهة التحديث عن النمط الأوربى»⁽²⁾، إذ أن خطة الإصلاح لم تضح من مقدور النخبة المغربىة بل إن إجراءها غدا من مبادرات الفرنسىين حيث عرض عل السلطان مضمونها من طرف السفير

(1) الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى ص 382 - المكتبة العلمىة - المدينة المنورة.

(2) العبارة بين مزدوجتين لعبد الإله بلقزىزى. م. س. ص 107.

الفرنسى . فالمقترحات التى تضمنتها الخطة لم تحظ بأى قبول سواء من لدن السلطان أو من طرف مجلس الأعيان، بسبب عدم توافقها وأحكام الشريعة . وفيما كانت فرنسا تسعى لفرض وجهة نظرها عن طريق «البهلوانية» الدبلوماسية والعسكرية، كانت النخبة تجهد في استنصاح السلطان لانقاذ البلاد من التخلف والانهار . وهو ما لخصه الفقيه الحجوى في مذكرته المشهورة - انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره - إلى السلطان عبد العزيز، ثم في رسالتين مفتوحتين للسلطان عبد الحفيظ .

في هذا الصدد ابرز الاستاذ الخلوفى محمد الصغير في مؤلفه المعنون بعنوان مذكرة الحجوى (انتحار المغرب . .) ما يطبع المذكرات الحجوية من تدقيق فيما بلغته دولة المخزن في العقد الأول من القرن العشرين من تغير في السلوك السياسى والدبلوماسية المنذر بوشك الاحتلال، وفيما صارت عليه الأحوال الداخلى من تدن في التسيير وتدهور في الأخلاق العامة «فالحجوى لم يكتف في المذكرة بالنقد والتعرض للأوضاع المتردية، بل أننا نجده يختم كل موضوع تطرق إليه بتقديم مقترحات عملية في شكل آراء داخل عرضه . . .»⁽³⁾

وسجب الفقيه الحجوى بشدة الموقف الرافض للإصلاح والسائد آنذاك سواء في المحيط المخزنى أو داخل المجتمع، قائلاً بان السلطان عبد العزيز عمل ما في وسعه لتحديث الهياكل المخزنية التقليدية . . لكن لم يحالفه الحظ ولم يكتب له النجاح . . لأن الرأى العام السائد اذاك، وخصوصاً منه الواعى والمؤثر داخل المجتمع المدنى والعسكرى، لم يتسن له استيعاب كنه الإصلاحات المنوى تطبيقها . لقد رفضها مبدئياً لكونها مملاة من الأجنبى ولا يمكنها إلا أن تخدم مصالحه . ونجد المذكرة تتوجه باللائمة والنقد الشديد تجاه بعض رجال المخزن حيث وصفهم الحجوى بعدم الكفاءة والمواطاة والتبدير، كما وصف البعض الآخر بالارتشاء والاختلاس والتزوير . . والاستغناء الفاحش على حساب الرعية، والجيش، والمصلحة العليا للبلاد . ووبرر الحجوى تصديه لتقديم مقترحات إصلاحية للسلطان بقوله «هذه مذكرات لعبد ربه وأسير كسبه عن مدة توظيفى نائباً عن السلطان في حدود المغرب الشرقى الجزائرية وأمينا في ديوانة وجدة قبل النيابة وبعدها، وامين الأسلحة والذخائر الحربية . .

(3) الخلوفى محمد الصغير (م. س. ص 11)

وجب على ابرازها - المذكرة - للوجود حيث الوقت كان مملوءا بالحوادث العظمى . . . (4)

. . . إن مولاي عبد العزيز قد جالت في رأسه فكرة الشورى والديموقراطية واتاه سفراؤه بهذه الأفكار، ففعل بها. وكان أول ما فعله جعل مجلس شورى من الوزراء ينقذ كل يوم للتداول في الأمور المهمة التي تعرض عليهم، فكل من كان له أمر في وزارته قدمه للملك فأمر برجعه للجميع لإعطاء النظر فيه بالمشاورة. وهذه منقبة كبرى تذكر في تاريخ مولاي عبد العزيز فاز بها على من قبله ويكون له الفضل على من بعده. لكن الأمة جاهلة، والوزراء معهم قصور وتنافس، لم يعرفوا كيف يتصرفون في هذه المنقبة التي هي أمانة وضعت بين أيديهم، فاستحالت إلى الفساد الذي بيناه، فصارت مضرّة وصار الشعب لجهله يعدها ثلّة في حق الملك، ويرى أن الملك كان مستبدا، فيبقى مستبدا لا يقيم للوزراء وزنا. فمولاي عبد العزيز كان اطيب سريرة من وزرائه، وعمله لهذه الشورة برهن على نزاهة مقاصده وانه يريد الخير لامته، ويدربها تدريجيا على الشورى، وعلى الديمقراطية، وهكذا ينبغي أن تكون الديمقراطية تدريجيا من شورى الوزراء إلى شورى الأمة جمعا . . .

كانت ثورة «بوحمارة» مناسبة استغلها الحجوى - وبحسرة - لفضح الفساد الذي طال المملكة من جراء سوء تصرف أهل الحل والعقد فأراد أن يصدع بحقيقة ما كان يعاينه معتبرا أن الحقيقة التاريخية يتعين علي كل مؤرخ أن ينصرها، ولذلك لم يترك جانبا من جوانب الفساد المنتشر في البلاد إلا وصفه للسلطان عبد العزيز في مذكرته التاريخية «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره».

ومما جاء في المذكرة «أن السبب الأعظم في الانكسار فساد قلوب رعية مولاي عبد العزيز واتهامه له بالفسق والكفر حتى احتاج لجعل محضر كتب فيه علماء فاس اشهادا لمعاينتهم له يصلي التراويح ليلة سابع وعشرين رمضان . . . واتهامه له بملية للإنجليز، وبيعه الصحراء لفرنسا، وغيرها . . . ثم إن مولاي عبد العزيز كان لين الجانب، شفيقا، لايري في سفك الدماء مصلحة، ولينه الكلي أظهره في مظهر الضعف، فتجرأت عليه الرعية التي لها قلوب حديدية كما أسلفنا، بل تجرأ عليه قواده ومستخدموه، وراجت الدسائس علي السنة العامة بشتم السلطان ووزرائه . . . وكل يوم

تنشر على الألسنة مناقب وأعمال كلها أو جلها لا حقيقة له . . . وكان السلطان عبد العزيز أكثر حفا من بقية السلاطين لتحقيق الإصلاحات لأن بلاطه كان عامرا بالأوربيين من جنسيات مختلفة، ولأن ذهنه كان متفتحا على ما وصل إليه العالم من الإختراعات الحديثة التي يقتني كل جديد منها . . . وكان مولعا بركوب الدراجة (البسكليت) ولم يكن موجودا بالمغرب فعده كفرا، وعدوا كل ما خالف مألوفهم كفرا وجهلا . . . وبالجملة رعية جاهلة بسيطة التفكير .

«فتصدر لتسيير دفة السياسة من الوزراء من لم تتقدم لهم تجربة . . . بل جلهم خلو من المعلومات التي تؤهلهم لإدارة دفة مملكة واسعة ذات منازع ورؤوس غليظة، وقلوب حديدية وسريعة القلب متشاكسين، كل واحد يترصد غيره ليقتنصه ويستبد بالمغرم دونه . . .

«فرأى مولاي عبد العزيز أن الأمر عظيم (امر تقديم مطالب الإصلاحات من لدن سفراء الدول الأوربية) وخطير لا يكفي فيه رأي دولته، ولا بد من مشاركة أمته تقصيا من حمل المسؤولية وحده وإبعادا للمظنة، فأمر عمال كافة المدن والقبائل ببعث جملة من أعيانها للنظر في الأمر، وقد اجتمعت تلك الوفود وانضمت إليها جماعة من أعيان فاس وعلمائها، وصاروا يتلقون من السفير الفرنسى مطالبه لينظروا فيها نظرهم السديد . . . وكان جمع الوفود ما أوقد الفتنة . . . لأن المغرب لم تتقدم له مشاركة الدولة الرأى، ولا ألفت المكافحة السياسية، ولا عرف قط ان تطلب دولة أجنبية تدخلا في شؤون دولته بدون أن تثور ثائرته . فكثر الوشاة وانفتحت ألسن أعداء فرنسا فأصغى الشعب لذلك . . . ثم أن الوفود ما عرفت اوجها لتخليص بلادهم . . . ولم يظهر فيهم رجل رشيد، جلهم كانوا يقولون النظر لمولانا ونحن لا رأى لنا، ولم يظفروا بحل للمسألة ولا وقع إلهامهم لفك رموزها، ومن تكلم منهم مثل الشيخ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني فإنما يأتي بأفكار ثورية متطرفة مرة، فتظهر إلى الطبيب شزرا . ولما رأى مولاي عبد العزيز قصور مدارك الأمة وأنها لم تظفر بدواء تشير به، عقد مؤتمر الجزيرات ولم يعد لاستشارة الأمة، فوقع في غضبها وكان سببا في ثورة أخيه المولى عبد الحفيظ . . . (انتهى حديث الحجوي).

إن اختيار الحجوي لمذكرته كعنوان «انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره» لم يكن يريد منه فحسب الابلاغ لعلم الملك ظروف وملابسات ثورة بوحمارة التي اكتست

نوعا من الخطورة على الشرعية الدينية والسياسية فى البلاد، ولكن أيضا كل أسباب التقهقر والتردى فى سائر جهازات الدولة، معتبرا أن موقعه كفقيه ورجل مخزن متمرس فى الشؤون الدبلوماسية والإدارية والمالية، وحتى العسكرية، تفرض عليه تقديم النصح إلى السلطان وتزويده بأرائه ومقترحاته من أجل مواجهة الحالة التى توجد عليها البلاد.

الحق أن الخلوفى محمد الصغير الذى عرف كيف يتعامل مع الوثيقة، عرف كيف يخرج إلى الوجود محتوى مذكرات الفقيه الحجوى ويستوحى تبويبها وينظم موضوعاتها ويشرح مدلولها ويبرز خصائصها مما يمكن من إعطاء لمحة مختصرة عما نلمحه فيها من آراء واقتراحات حول مسألة الإصلاحات وتطور مفاهيمها وهو الموضوع الذى نربط به فى محاولتنا المتواضعة هذه.

تضم مذكرة (انتحار المغرب بيد ثواره) 117 صفحة وفى ختامها كتابان مفتوحان للسلطان عبد الحفيظ، وتحمل المذكرة بما فى ذلك الكتابان المفتوحان، خطابا إصلاحيا تناول بوضوح أحوال المغرب على المستويين الداخلى والخارجى، وقد رتب الأستاذ الخلوفى موضوعات المذكرة فى حلقات ثلاث «اعتبرها أساسية ومهمة بالنسبة لمضمون المقترحات الإصلاحية التى تداولتها الساحة السياسية والثقافية فى المغرب وهو يواجه أوروبا خارجيا والفتن الداخلية وطينا ومن هذه الموضوعات التى شغلت بال الحجوى: حكومة المخزن والمؤسسة العسكرية والجهاز المالى».

على أن مذكرة (انتحار المغرب) لم تكن هى المصدر الوحيد للأفكار الإصلاحية التقدمية التى أتى بها الفقيه الحجوى، فهناك مؤلفاته العلمية العديدة ومخطوطاته ومحاضراته التى أشرنا إليها آنفا، وهى لم تقتصر على النقد والتعريض بفساد الأوضاع بل أبرزت آراء مبنية على التبرير الفقهي والفتوى الشرعية، كما أتت باقتراحات عملية تميزت بالجرأة فى الخطاب الإصلاحى والدعوة إلى التغيير والتحديث فى المجتمع وفى شؤون الدولة.

وهكذا فنداء الحجوى إلى الإصلاح يتلخص فى إصلاح الجيش بتنظيمه وتجهيزه على طريقة عصرية وفى تنقيته من العناصر الفاسدة التى كانت تستغل مركزها فى دواليب الجيش. كما تناول النداء مجالات تهم إدارة البلاد إدارة عقلانية تتمثل فى:

- إنشاء هيئة الموظفين الذين يتم توظيفهم بحسب اختصاصهم تؤدى رواتبهم بانتظام ويخضعون لمراقبة الدولة وللردع عند انتهاكهم لحرمة المصلحة العامة والمنفعة العمومية.
- جمع القوانين المدنية المكتوبة والعرفية وتدوينها لتكون في متناول الحاكم المخزنى.
- إنشاء إطرار تعليمية، علمية وتربوية عصرية، وإصلاح المؤسسات التقليدية لتطابق روح العصر، وفي مقدمتها إصلاح برامج جامعة القرويين⁽⁵⁾.
- الدعوة إلى تعليم البنات وتخويل المرأة حقها في ولوج ميادين الحياة العامة.
- إصلاح النظام الضرائبى والجمركى، وفي العمل على تشجيع الإنتاج القومى بإحداث معامل للصناعات الحديثة والانفتاح أكثر فأكثر على التجارة الخارجية بمضاعفة وسائل الاتصال بقدر ما يساعد على استخلاص الضرائب عن ثروات تتضاعف لا عن ثروات جامدة.

2- برنامج الإصلاحى

لقد خرج الفقيه الحجوى بالسلوك الإصلاحى من حيز الدعوة النظرية التي تجلت في التعريض بالفساد وفي النصح التقوى إلى حيز الإفادة العلمية بما تشمله من خبرة ومملكة شخصية، وذلك بالحث على وضع مناهج حركية تسلك بالمواطن المغربى سلوكا استيعابيا مدققا في نظرتة لواقع البلاد وللأحداث والأخطار التي تحفها، حتى يقع الانطلاق بالإصلاح من أساس متين وصبوب اتجاه سليم.

والباحث في آثار الفقيه الحجوى لا يستغنى عن الرجوع إلى المصدر الرئيسى للفكر الإصلاحى الذى صاحب مؤلف «الفكر السامى» سواء في حياته العلمية أو السياسية أو الوظيفية، فكتاب «الفكر السامى في تاريخ الفقه الإسلامى»، هذا الصرح العلمى الذى تجلت فيه الفكرة الإصلاحية لفقيهننا، «يعد مرجعا رئيسيا لتاريخ الفقه

(5) تحقق إصلاح نظام القرويين على يد الفقيه الحجوى حينما كان يتقلد مهام مندوب المخزن فى التعليم فى بحر العشرينات، مما سيتأتى الكلام عنه وعن التعليم بصفة عامة.

الإسلامى، ولعل معظم الذين كتبوا فى هذا المجال من بعده عالية عليه، فهو دراسة واسعة لحركة الفقه الإسلامى ونشاطه منذ عصر التشريع، فعصر الإجتهد، فعصور التقليد، إلى وقتنا الحاضر... إلا أننا نجد فى الكتاب مجالات أخرى، فهو يضم مجموعة كبيرة من التراجم لعدد كبير من فقهاء المالكية وغيرهم، ونجد فيه لمحات وخواطر فى السياسة، والتاريخ، والتربية، والتعليم، وواقع المسلمين، وبعض مشكلات المجتمع المسلم العصرية، ومشكلات الشباب المسلم... وانك لتحس بنفس المؤلف وروحه السلفية فى عامة كتابه... فانك واجد فيه موضوعات شيقة حافلة ومناقشات، وانتقادات لاذعة، ظهر فيها انصاف المؤلف ونزعة الإصلاحية، فهو كتاب من غرر النفائس العلمية من كنوز الكتب الإسلامىة.⁽⁶⁾

يختزل الفقيه الحجوى توجهاته النهضوية الإصلاحية فى مجموعة من الصيحات والنداءات التى حفلت بها مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته:

- فكرة النظام والتنظيم فى ميادين الحياة

- الدعوة إلى إصلاح التعليم وتعميمه على البنات

- تشجيع التجارة وتحديث أصولها والدفء بتنمية رأس المال

«فليت المغاربة أن ينظروا من حولهم من الأجانب الذين هم من كل صوب ينسلون وعلى الأرض التى كنا ازهد الناس فيها يتهافتون، وليتأملوا أسباب ارتقائهم، فيجدوا أسبابه منحصرة فى شيئين: تعليم الأولاد بنين وبنات على التربية الصحيحة الاستقلالية التى تؤهلهم للقيام بعظيم المهمات، والاحتفاظ بالمال من نقود وعقار»⁽⁷⁾.

3- فكرة النظام والتنظيم

كان الفقيه الحجوى دائماً مشغول البال بمسألة النظام، وهاجس النظام طالما لازمه فى رحلاته ومشاهداته وتقاريره وكتاباتة. وأسطع دليل على ذلك ما يستشف من

(6) جاء هذا فى تصدير الطبعة الجديدة لكتاب الفكر السامى الذى اعتنى بنشره الأستاذ عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، بالمكتبة العلمية بالمدينة المنورة سنة 1976.

(7) جاء هذا فى تقرير الفقيه الحجوى لكتاب «اللسان المغرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب» لمحمد السليمانى.

مؤلفاته مثل «الرحلة الأوربية»⁽⁸⁾، و«النظام فى الإسلام».

وعلى النظام والتنظيم يجب أن يبنى كل عمل فى فلسفة الحجوى، فهو يعزى تردى الأوضاع السياسية والمالية، والفساد الإدارى، وفساد المتولين، وأسباب انهيار دولة المخزن إلى شىء واحد: وهو الفوضى... .

إن أبغض شىء للمغاربة النظام اسمه ومسماه، فالسفراء الذين كانوا بلندرة وبرلين وباريس وبترسبورغ جاءوا بلفظ النظام، ويرددون على ألسنتهم الإشادة بذلك، لأن الدول حثوهم على الإصلاح إذا أرادوا بقاء استقلالهم، كإصلاح الطرق، وإجراء العدل، وبسط الأمن، وفتح أبواب المراسى للوسق والإتجار... . فشرعوا بالفعل فى تنظيم الجباية المسماة بالترتيب، كما أنهم شرعوا فى تنظيم المالية باستحلاف أعوان المخزن فى المصحف الكرىم، لكن الذين حلفوا كانوا أجراً على الاختلاس من غيرهم» وعندما عهد السلطان عبد العزيز بالإصلاح لمجلس وزرائه، صاح الحجوى: كيف يكون الإصلاح والمجلس الوزارى نفسه محتاج لإصلاح ونظام؟

ومفهوم النظام عند الحجوى من الثابت فى البناء الفكرى الذى اجتهد فى إقامته عبر تقاييده ورحلاته وملاحظاته وخطبه على اختلافها وتنوع موضوعاتها... . «والضعف السياسى فى المخزن المغربى ياتى من كون النظام الذى تسير به الدول الإسلامىة من أقدم اعصرها كان قد هرم ونخرت عظامه وتشوه وجهه بالأخلاق السافلة الفاشىة، وأحد النتائج المباشرة لذلك فى المغرب هى أن السلطان - يقول الحجوى - يضطر لتولية الجاهلین، فلا يحسون، إذ لا علم ولا نظام يردعهم، ولا وازع من الأخلاق يعظهم، والنظام الذى أسسته الدول العصرىة، وسرى مفعوله فى العالم... . لا وجود له ولم تتوفر فى المغرب أسبابه ومعداته»⁽⁹⁾.

فالنظام عند الحجوى هو من الركائز الأساسىة لكل تقدم ونجاح فى الأعمال كلها، وعلى فكرة النظام يبنى مشروعه الإصلاحى فى مجالات التعليم والإقتصاد والتجارة والمال، فعندما تولى منصب مندوب المعارف فى العشرينات صرف همته وكل جهده فى الإبانة عن معوقات التعليم بالمغرب وبدأ بإنشاء «مجلس تحسينى»

(8) انظر النص الكامل للرحلة فى كتاب «أوربا فى مرآة الرحلة» لسعيد بنسعيد العلوى.

(9) الإجتهد والتحديث. ص 73 (م. س.).

بهدف إصلاح النظام التعليمى بجامعة القرويين، كما أولى اهتمامه لمسألة النظام التعليمى بصفة عامة بما فيه تعليم البنات، ثم الدعوة إلى إصلاح الإدارة وتنظيم الجيش وتحديثه، وإرساء قواعد التجارة واستثمار المال على أسس علمية بفتح أقسام التعليم التجارى وولوج المعاهد التجارية بأوربا.

4- وصف الأوضاع الداخلىة وتجليات الخطاب الإصلاحى

إذا كانت المذكرة الموجهة للسلطان عبد العزيز تدور حول ثورة بوحمارة واطلاع العلم السلطانى على حالة تردى البلاد إداريا وعسكريا وأخلاقيا وماليا، فإن اشكالية الإصلاح وآراء الفقهاء الحجوى فى الموضوع، والحلول المقترحة لمواجهة الأزمة التى تتخبط فيها، نجد الأجوبة عنها بتدقيق وبكل جرأة فى الكتابين المفتوحين الموجهين للسلطان الجديد مولاي عبد الحفيظ ما بين 1908 و1912.

ففى أسلوب صريح يقول الحجوى للسلطان مذكرا إياه بواجباته ومسؤولياته «هذه الأحوال وما وصلنا إليه من الارتباكات والاختلال... فلا نجد سفينة ولا منجاة إلا بشيء واحد، وهو بروز مولانا أيدى الله لعيان رعيته، والتحجب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة، والضرب على أيدي الظلمة، وسهره الليل والنهار على ذلك، وهجر كل لذة، وتعهد مجالس القضاة والعمال والمحتسبين، وحضهم على العدل والمساواة بين العباد فى الحقوق والضرائب وغيرها، وحسم مادة الزور، وانتهاز الحقوق ممن يخالف ذلك، وسماع شكاوي المظلومين، وتخفيف آلام البائسين، والبحث فى أمور الخزينة والأحباس. على السلطان ان يقوم بإحصاء الشادة والفادة ليتوفر لديه ما يقيم به... الإنتشار الشديد للجيش وتنظيمه على النسق الأوربي، وتوفير معداته من أكل وشرب وخيام، وتحسين مسكنه وفراشه إلى غير ذلك، وبتفقد معاهد العلم والعلماء، وأن يرتب مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت، ويقدم للتعليم من يستحقه وينشطه برفع درجته... وبناء مدرسة جامعة لتلقى المعارف الوقتية المفقودة من المغرب مع اضطراره إليها».

فعن الجهاز الحكومى

يتابع الفقهاء الحجوى «على السلطان أن يجعل كل وزارة مستقلة فى نفسها، قائمة بموظفيها ويجعل لها من الموظفين والأعوان والكتاب والأقسام ما تجرى بسببه

الأشغال على نسق دائم . . . فلا تتعذر المصالح ولا تضيع الحقوق، حتى لا تقع الواقعة إلا ويقابلها من هو في وظيفته بكل استطاعة واطمئنان . . . فتقل الشكاوي وتضمحل الدعاوي، وتندم المظالم . . . وعلى السلطان أن ينظم إدارة يختار لها الأمثل من الموظفين الأكفاء، ويحدد لكل موظف سلطته، ويخوله التفويض فيها، ويلقى عهدتها عليه، ويجعل عليه المراقبة الشديدة في أعماله، ويكون مولانا ايده الله مراقبا على كل ويا . . . وهكذا فإن الدول الأوروبية والأمريكية والجبون، إنها نهضت من سباتها ووصلت إلى ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها، واحترام الحقوق، وضبط الأموال وتدريب الجيوش، ونشر العلوم والمعارف، ففي التاريخ القديم عبرة وذكرى».

إن هذا الخطاب الإصلاحى الصادر عن الفقيه الحجوى إلى عناية الحضرة السلطانية، لا نجد في المصادر التاريخية التي أرخت للدولة الحفيفية ما يفيد استجابة ملكية او اهتماماً مخزناً بالأمر، الشيء الذي لم يثبط عزيمة الفقيه المصلح الذي ربط الجأس واستقوى النفس . فكتب من جديد للسلطان يقول . . . «وجالت الأيدي الضاربة في إشلاء الأمة الفقيرة الضعيفة، وقطعت أوصالها، ومزقت أحشاءها، ففرقت كلمتها وبغضت اميرها إليها . كل هذا بالظلم الفادح وعدم انتظام الأحكام، واللعب بالرقاب والدماء، وبيع الوظائف جهارا، وبيع رقاب العمال ومن دونهم بعدما يكونون في أعلى الرتب يصلون في قعر السجون لموجب المال لخزينة زيد او عمرو . . .»

أما على الصعيد الخارجى فينتقل الخطاب الإصلاحى إلى التذكير بتهديدات بعض الدول الأوربية طمعا في المزيد من الاستيلاء على مناطق من الوطن، فيصيح: «هكذا عقدت أوربا الأوفاق المجحفة بالحقوق، وباستقلال البلاد، والقروض العظيمة باسم الأمة، والأمة لا علم لها ولا رأي، وأعطيت المشاريع العمومية الكبرى للأجانب الذين لم يكونوا يحلمون بنوال اقل جزء منها فصارت لهم مهداة . . . فمن له مسكة من عقل، أو وطنية يتأمل الاتفاقات . . . ثم يصغى إلى المداولات الخارجية بين المخزن وبين الدول من قديم إلى الآن وكيف كانت مخاطبتهم معه إذاك، وكيف تبدلت وتنوعت بتنوع الأحوال إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن . فإذا تأملنا الاوفاق علمنا منها غايات الأجانب في القطر المغربى، ووقفنا على مهارتهم في سياسة التدرج التي يتوصلون بها إلى المقاصد العظمى . . .»

وعن حالة الجيش

جاء فى كلام الفقيه الحجوى «عدم وجود ضباط مدربين على الحروب ولهم معارف بفنونها، وإنما الذى كان يقود تلك الجيوش الجرارة ضباط أميون، غالبهم لا يقرأ ولا يكتب، ولا معرفة له بجغرافية الأرض ليكون تحريك العساكر على كيفية يؤمن فيها العطب، لان مسألة تحريك العساكر، ومطابقتها لما تقتضيه الفنون العسكرية عليه مدار الانتصار فى الحروب... والذى كان عند المغاربة هو ضباط أجانب يعلمون العساكر، من أجناس مختلفة من إنجليز وفرنسيس وغيرهم، وكل يعمل حسب لغة بلاده، والعساكر جاهلة بها، وأولئك الضباط لا سلطة لهم تامة، ولا قانون للتعليم، لذلك كان مهمهم شغل وظائف هي فى الحقيقة سياسية حصل تعلم او لم يحصل، فلم تظهر لهم نتيجة على طول خدمتهم...»

«وإذا أردنا أن نصرح بالحقيقة قلنا لم يكن للمغرب معسكر منظم على الأسلوب العصري، وإنما وضع اسم نظام فى غير محله، ومن أعجب ما يقال من غير أن يوجد من يخالف المقال أنه لا توجد فى المغرب مأوى للعسكر (تكنة) مثل ما يوجد فى أضعف الممالك الشرقية التي هي اقرب عهد بالتمدن فضلا عن الأوربيين، ولا توجد مدرسة حربية، ولا فرقة هندسة متخرجة من مدارس مهمة بإجازات كافية، ولا مدفعية كذلك ولو جبلية فضلا عن مدفعية ثقيلة...»

«أنشأ مولاي الحسن الأول معملا للسلاح والذخيرة بفاس للتحرر من ضغط الأوربيين فى هذا الباب، لكن مشروعه فشل... وذلك من غش الضباط الإيطاليين الذين كان المعمل تحت نظرهم، وريحوا فيه أموالا جسيمة، وذهبت أموال المعمل وأتباعه أدرج الرياح، واشترى المخزن سلاحا آخر من النجليز وغيره، أما الضباط الطليان فلم تمسهم يد بسوء أو أضرهم ما أفسدوا، ولكن المسؤولية على من يعمل معملا يكون تحت مسؤولية أجنبي لا قدرة له على الأنصاف منه، وكان الواجب أن يعلم ميكانيكيين مغربيين يتخرجون فى أوروبا بأشهر معاملها، ويكونون خصيصين فى فنهم، ويكونون مسؤولين عن أعمالهم ولهم الكفاءة التامة والاقتدار على إدارة المعمل وحدهم. أما الذين كانوا من المغاربة بها أعوانا للضباط فليس لهم معارف لذلك، وإنما كانوا يعرفون كلمات من الإيطالية والفرنسية والبلجيكية، ومن المثبوت فى أفكار المغرب أن من عرف لسانا أجنبيا ولو معرفة بسيطة، عرف كل شيء...»

«أن عزل الركنة عن المالية وإسنادها إلينا كان عام 1322 (1904) . . . فقد وجدنا الركنة يعمر في القوائم اليومية ثمانية وعشرين ألف بسيطة ونيفا فصارت بسبب تسراد جزئى عشرة آلاف ونيف ولولا ما دسه الاضداد من الدسائس لصارت لنصف ذلك . . . وهكذا كان يضيع المال لشراء كثير من البنادق والقرطوس لان الركنة كان يضعه تحت أيدي غير أمينة، فكان يباع منه الكثير جهارا، ولم يكن لذلك دفتر منظم، ولما تسلمته جعلته في محل أمين، بداخل دار المخزن، وجعلت له مغاليق محكمة ودفاتر منظمة، وكنت أتولى الفتح والغلق بيدي لا اتكل فيه على أحد إلا على رفيقي، إن كنت غائبا، بشرط الحضور بنفسه، وما خرجت قرطوسة واحدة إلا قيدت باسم أخذها وبعد التتبت فيه، فأنحسمت مادة الإتجار فيه . . .

«ولما كلفت بالتفتيش في المحلة وجدت عددا من المرضى في حالة وسخة وبلى، والجوع يأكل أمعاءهم، ولا دواء ولا قيم عليهم، وإنما ملقون على قارعة الطريق فجمعت عددا منهم بفندق ابن مصطال بوجدة وكلفت من قام بإيصال الطعام المناسب لهم، وقمت بالنظافة والعلاج، فقامت قيامة قوادهم، وعدوا ذلك تدخلا في وظائفهم، وهددوا بأنواع من التهديد حتى تركت العمل الخيري مكرها، وأعطاهم المكلف حساب الصائر فوجد ما أخذ لكل عسكري من مؤونته قرش واحد يومي، زيادة عما صرف عليهم، فأخذ قوادهم وافرغ الفندق وعادوا للأزقة يتكفون . . .

وعن هذه الحالة المزرية للجيش «النظامي» كتب الفقيه الحجوي بوصفه قائما على مالية الجيش، كتابا لوزير الحرب الفقيه الجباص كتابه المؤرخ في 23 صفر 1322⁽¹⁰⁾ فكان الجواب، على حد قول الحجوي، «عدم الجواب وهو في المعنى أمر بالارتضاء ارتكابا لاخف الضررين مع أن الاكثار من ارتكاب أخف الضررين ربما صار هو الضرر الأعظم.

وعن حالة المالية

ففيما يخص الأزمة المالية التي عرفها المغرب في مطلع القرن، فإنها بالطبع كانت من مخلفات القروض المالية التي كلفتها هزيمة إيسلي وحرب تطوان، ولكن كانت أيضا بسبب ما كانت تكلفه ثورة بوحمارة من نزيف لخزينة الدولة، وفي هذا

(10) أورده الخلوفا محمد الصغبر (م. س.) ص 49.

الصدد ىشفر الخلوفى⁽¹¹⁾ إلى أن الحجوى «كان فعبفر أن ثورة بوحمارة كانت السبب المباشف للنزف المالى الذى عرفته الدولة العزفزة فف فنفقت الطائل من الأموال المتوفرة والمقترضة بالمناسبة، كما أشار الحجوى إلى قضية أخرى زادت فى استفحال الضائقة المالية فأعطانا تفصفلا عنها، مركزا فففه حول عملية سطو القبائل المخزنية والجهوش النظامية على القوافل التجارية التى كانت تقدم من الجزائر إلى المغرب الشرقى، إذ لم تقتصر عواقب هذا السطو على ففوت تسنجات سفاسية بفن المغرب وفرنسا، بل أنها ساهمت كذلك فى تعريف المالية إلى كل أنواع التلف والتبفر بفعاظ من السلطات الرسمية المتواجدة بالمنطقة».

(11) مرجع سابق. ص 53.

الفصل التاسع

إصلاح التعليم

1- نقد نظام جامعة القرويين وإعداد برنامج إصلاحي لها

كان أول ما استرعى اهتمام الفقيه الحجوي فور توليه منصب مندوب المعارف تردي حالة التعليم وتراجع مقوماته خاصة جامعة القرويين التي تمثل استمرارية الهوية المغربية، لهذا لم يتوان في الإفصاح عن مظاهر الضعف المتجلية في التعليم بصفة عامة ونقد نظام جامعة القرويين بما في ذلك الكتب الدراسية وقصور المدرسين من علماء وأساتذة:

ومن أعسر ما تصدى له المندوب السلطاني لإجراء التنظيم الجديد للقرويين هو مواجهته لتغيير النظام التقليدي القائم في تلك الجامعة منذ عصور والذي لم يطرأ عليه تحسين أو تجديد، فلم يكن بد للفقيه الحجوي من مهاجمة المدرسين ونقد الكتب الدراسية المعتمدة في التعليم الديني والفقهي واللغوي وغير ذلك من فروع التعليم.

فبرنامج إصلاحي من الحجم الذي كان يتوخاه الحجوي، كان يحتاج إلى تغيير النهج التقليدي المعتاد في القرويين إن على مستوى المتون العلمية وشروحها وحواشيها أو على مستوى برنامج التدريس التي لم تكن تستند إلى نظام أو ترتيب في سير الدروس: ناهيك عن تفاهة رواتب المدرسين وعن أحوال الطلبة الذين يفدون على جامعة القرويين لطلب التعلم بها. «فالمسألة تبدو أشكل كلما علمنا أن مقاومة عملية الإصلاح للنظام التقليدي السائد في القرويين مقاومة قادها علماء - درس بعضهم في القرويين - وقادها رجال دولة لم يروا في الإصلاح سوى أنه

محاولة لانتاج نخبة جديدة تنازعهم الموقع، وكانت مقاومتهم شديدة»⁽¹⁾.

عن هذا البرنامج الإصلاحى يقول الحجوى:

«ولما حللت فاسا، جمعت علماءها الأعلام، وشرحت لهم الحال، ورغبتهم في تشكيل لجنة لتحسين حال القرويين من بينهم بالانتخاب على نسق انتخاب المجلس البلدى بفاس، إذ كان مرادنا الوقوف على أنظارتهم وحاجاتهم، وأن نبدي لهم ما ظهر لي من إدخال نظام مفيد، وإصلاحات مادية مع إصلاحات أدبية في أسلوب التعليم أيضا، وإحياء علوم اندثرت منها كليا، وتبادل الآراء على عين المكان، ونجعل قانونا أساسيا للقرويين يكفل حياتها ورفيها، ولا نبرم أمرا إلا بعد حصول موافقتهم، بل استحسانهم، فقبلوا ذلك بغاية الارتياح، وشكلوا لجنة من أمثالهم بأغلبية الأصوات تحت اسم 'مجلس العلماء التحسينى للقرويين' تركبت من رئيس وستة أعضاء وثلاثة خلفاء يوم 21 جمادى الثانية عام 1332 (1914 م). وبعد ما وقع احتفال تسميتهم الرسمية بمحضر خليفة السلطان بقصر البطحاء، وأعيان المدينة شرعنا في العمل معهم، فكنا نجتمع يوميا اطرح عليهم مسألة مما كنت أريد إدراجه من التنظيم والتحسين في القانون الأساسى للقرويين، ثم التمس آراءهم، وسمع ملاحظاتهم، فيحرر كل واحد ما ظهر له ويؤخر البت في المسألة إلى جلسة ثانية حتى يطلع المجلس على تلك التحريات ثم يقترح على الرأى المقبول، فيثبت في سجل التحريات أصل المسألة وما أبداه كل واحد فيها، ثم ما وقع عليه رأى الجميع أو الأغلب عليه. وفي الجلسة التي بعدها يسرد عليهم محضر الجلسة قبلها حتى يسلموه، فيثبت في سجل القرارات، وعند ذلك نشرع في إملاء مسألة أخرى، وعلى هذه الخطة كان سيرنا إلى أن تجمع في تلك القرارات مائة مادة ومادتان (102) مقسمة على عشرة أقسام»⁽²⁾.

إن أول ما يسترعى نظر القارئ للتنقيصات التي وردت بشأن إحداث هذا المجلس وطريقة عمله الهادفة إلى تحسين حال القرويين، هو ما كان يمليه الفقيه الحجوى وهو يمارس مهامه كرئيس للمجلس التحسينى من مبادئ التواصل والتشارك ويبحث عليه من تطبيق قواعد التعددية والحرية الفكرية في وقت لم تكن هذه القيم

(1) الخطاب الإصلاحى في المغرب م. س. ص 114 - 118.

(2) الفكر السامى في تاريخ الفقه الإسلامى ج II ص 195.

الديموقراطية قد وجدت سبيلها إلى التطبيق في المجالات الاجتماعية والإدارية بالمغرب، وهو ما جعل الكثير ينفرون من هذا «التبديع» المروع والتحديث المزعج لمقومات الهياكل الاجتماعية والسياسية للبلاد. ولكن الحجوي يأبى إلا أن يستمر في خطته التحديثية التي يعتبرها «منطقة على مبادئ الدين الحنيف والقومية العربية المغربية وشعارها أتم انطباق بحصولها على موافقة علماء المغرب على الطريقة التي شرحناها أنفا بكل حرية وكل استقامة مما لا يمكن أن يتهمنا فيه أحد بتطرف أو ابتداء»⁽³⁾.

لذلك فتح الباب على مصراعيه لمناقشة المواد الدراسية وتحديد أساليب تلقينها وانتقاء مراجعها باعتماد الأصول المغرقة في بلى المختصرات والحواشي. كما أولى الإهتمام لمسألة الكتب الدراسية بالحث على جعلها جامعة للمواد المعرفية بما هو مشهور في المذاهب الفقهية ومسائر لروح العصر «رغبة في بعث العلوم والفنون من اجدها كان الأهمال اخفاها». ففي صفحات عديدة من كتابه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» يتطرق الفقيه الحجوي إلى نقد لادع للأساليب السائدة في تلقين العلوم الدينية من فقه وحديث ولغة ونحو وغير ذلك، خاصة المعرفة الفقهية التي بلغت درجة من الانحطاط ما بات عند مجموعة الفقهاء القائمين بالتدريس لا يوحي بأي حاجة إلى التجديد. «فلقد قضى هؤلاء المتأخرون على الفقه، أو على من اشتغل بتواليهم، وترك كتب الأقدمين من الفقهاء بشغل أفكارهم بحل الرموز التي عقدها... بسبب الاختصار، فضاعت أيام الفقهاء في الشروح، ثم في التحشيات والمباحث اللفظية، وتحمل الفقهاء آصارا وأثقالا بسبب أعراضهم عن كتب المتقدمين... وإقبالهم على التواليف المختصرة المعقدة التي لا تفهم إلا بواسطة الشروح، واختصروا في الشروح، فأصبحت هي أيضا محتاجة لشروح وهي الحواشي... أحاطوا بستان الفقه بحيطان شاهقة، ثم بأسلاك شائكة. والقوا العثرات في طريق ارتقائه، حتى يظن الظان أن قصدهم الوحيد جعل الفقه حكرة بيد المحتكرين، ليكون وقفا على قوم من المعممين... ليكون حرفة عزيزة، وعينا من عيون الرزق غزيرة...»

«ولما اغرقوا في الاختصار... فات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار. وهو جمع الأسفار في سفر واحد، لتقريب المسافة وتخفيف المشاق وتقليل الزمن،

(3) مرجع سابق ص. 197.

فانعكس الأمر، إذ كثرت المشاق في فتح اغلاق المتن، وضاع الزمن من غير ثمن... بحيث صار مختصر خليل لا يفهم ما فيه إلا بستة أسفار للخرشي، وثمانية للزرقاني، وثمانية للرهوني. والجمع اثنان وعشرون سفرا ن مع طول الزمن المتضاعف في الدرس والمطالعة في تفهم العبارات المغلقة... انتهى كلام الفقيه الحجوي.

بهذه الشهادات والانتقادات... صار الحجوي الفقيه السلفى المتتور، يعبر عن قلقه من تخلف النظام التعليمى فى القرويين، فىصيح «بأن طلاب الفقه محتاجون الى كتاب دراسى بين الصراحة، واضح لا يحتاج إلى شروح، جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون النادرة والمستحيلة» ومن ثم ينطلق، معززا بالأمر السلطاني وبمعية أعضاء المجلس التحسينى لوضع برنامجه الإصلاحى للتعليم الدينى بالقرويين، مستوعبا للنصوص المعتمدة والكتب الدراسية المستمزجة، والنظم الإدارية الخاصة بتحسين وضعية الأساتذة، وإجراء الامتحانات وتحصيل الشهادات.

ويتحسر الفقيه الحجوي على بقاء مشروعه فى سلة المهملات بفعل المناوئين والمناهضين لمشاريعه، وهم جماعة المقلدين المعادين لكل تحديث أو تغيير فى الأنسجة السياسية الإدارية والتعليمية للبلاد، وهو ما يرويه الحجوي فى كتابه «الفكر السامى» من انه لو كتب للقانون التنظيمى لجامعة القرويين الخروج إلى حيز التطبيق، لكان محيا للقرويين، مجددا لهياتها التدريسية تجديدا صحيحا متينا ذا مستوى نظامى عصري يبلغ به العلم والدين والآداب والثقافة أوج الكمال والفخار، ولكن مع الأسف المكدر - يقول الفقيه متحسرا - تداخل فى القضية ذوو الأغراض الشخصية، فبينما نحن بنى ونصلح، ونرمم بفاس، قد شرعوا فى الهدم والتخريب فى الرباط بغير فأس وما كدنا نختتم القانون المشار إليه حتى صدر أمر شريف برجوعنا، ولم يبق من مشروعنا إلا أن راتب المدرسين ضعف أضعافا... وأبقى المجلس صوريا لا حياة له ولا ظهور إلا فى الحفلات الرسمية والمقامات التشريفية، وهكذا يفعل التحاسد وحب الإثارة بين نبلاء المغاربة الذين اشربوا فى قلوبهم حب إثارة الأغراض الشخصية على المصالح العمومية والدينية»⁽⁴⁾.

يذكر الفقيه الحجوي فى ترجمته بكتابه الفكر السامى، انه، اثر إجهاض مشروع

(4) مرجع سابق ص 197 (حول المعلومات عن المجلس التحسينى للقرويين، راجع عبد الرحمان بن زيدان (الدار الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ص. 146 . 166).

إصلاح النظام التعليمي للقرويين بسبب ما حاكه ضده في الرباط من كانوا معتلين لمقام يقضي عليهم بالنزول عنه، استعفي في ذات سنة 1332 من منصبه كئائب للصدارة العظمى في العلوم والمعارف، واسقط هذا الوظيف من الوظائف المخزنية مدة... ثم لما أنيطت به من جديد نفس الوظيفة سنة 1339، كان أحسن ما أمكنه القيام به تفقد المدارس من حيث العلوم العربية والدينية من حين لآخر وتبع سيرها، وبث روح النهضة فيها، والميل إلى إحياء علومنا، والتشبع من العلوم العصرية، وحث المعلمين والمتعلمين علي حفظ النظام، وتوجيه كلية النظر نحو العلوم والأخلاق ومكارم الدين⁽⁵⁾.

وفي الفترة بين 1332 و1339 لم يخلد الفقيه المجتهد الي الراحة بل ظل يدافع عن أهدافه النهضة الإصلاحية وقد تجلت صياغتها في مجموعة من المقالات والمحاضرات، تأكيداً لما عرضه في كتابه (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) الذي أتم تحريره في نفس الفترة حول مشروعه الإصلاحي للنظام التعليمي في المغرب من اوجهه الفقهية والمعرفية العصرية علي حد سواء.

وهكذا فالي جانب تمسكه بالمعايير التي ركز عليها في إطار المجلس التحسيني ضوابط تطوير التعليم الديني بجامعة القويين، لم يكن الحجوي بغافل عن التفكير في أحوال التعليم العصري بالمدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا، بل «لم تكن هذه الرغبة عند الحجوي - كما قد يظن - صدى باهتا للمشروع الاستعماري الذي قضى بإدخال هذا النظام الحديث للإستيلاء نخبة جديدة تحتاجها إدارة الحماية... وإنما للدعوة إلى الإصلاح والتنظيم بحسبانها جزءاً من رهان داخلي على إعادة بعث الحياة في العلم والاجتماع الإسلاميين... فالحجوي دافع عن هذا النظام ودعى إليه، وكتب عنه، بل قدم تصورا كاملا له قبل أن يسقط المغرب في قبضة «الحماية» الاستعمارية، فقد عبر في كتاب مفتوح إلى السلطان عبد العزيز عن وعي مبكر بالحاجة إلى ترتيب «مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت» وترتيب الكتابات والمسائد «على نسق تكون به أشبه بمدارس ابتدائية»⁽⁶⁾.

(5) مرجع سابق ص. 387

(6) عبد الإله بلقزيز - الخطاب الإصلاحي في المغرب ص 126 (في نفس السياق صاغ فقيه آخر وهو أبو عبد الله السليماني المدعو الأعرج مشروعا مهما لاقرار نظام مدرسي عصري على النمط الفرنسي =

فكيف تجلى مشروع إصلاح التعليم العصرى وتعميمه عند الحجبوى؟

أولى الفقيه المصلح عنايته - إلى جانب انشغاله برد الاعتبار للتعليم الدينى - إلى الإبانة عن معوقات سير المناحى الأخرى لتعليم سيرا صحيحا شاملا للجنسين، يفى بحاجة تلاميذ الابتدائى والثانوى، وطلاب المعاهد العليا فى تلقى تعليم عصرى يخدم مصلحة البلاد ورفيها، فىقول:

«وغلبت الأمية على رجالنا ونسائنا، وحصل التأخر فى سائر علومنا حتى النحو وغيره من العلوم العربىة... إذ لا سبيل لأن نصير أمة معدودة من الأمم الحية إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، وتعميم التعليم الإبتدائى حتى يصير جل افرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون باللسان العربى الفصحى، بحيث يعرفون مطالعة الكتب البسيطة السهلة يستفيدون منها دينهم ودنياهم، ومطالعة الجرائد، وأخبار ما يقع فى العالم ليستوي الناس فى ادراك ما لهم وما عليهم، ويتساوى السوقي والعالم، والوزير والصانع فى معرفة ما هو نافع لها ليحسوا جميعا بالألم، ويعرفوا موضعه، ويتطلبوا أدواءه، فينهضوا بأجمعهم لنفعهم ودفع ضرهم، ويفهموا ما يلقى إليهم من الخطاب وما هي عليه حياة غيرهم من الأمم ليجاروها فى معترك الحياة»⁽⁷⁾.

بقراءة هذا النص مع انزاله فى سياقه التاريخى، نتأكد من الأهمية القصوى التى يعلقها الفقيه المتنور على مؤسسة التعليم فى انهاض الشعب المغربى وتوفير أسباب تطلعه للالتحاق بركب التقدم ومجاراة غيره من الشعوب فى ارتقائها وتساوي ابنائها رجالا ونساء فى الحق فى التعلم، ورفع الأمية الضارة بالحرية والكرامة، وفى الإيمان بحقه فى التطور والتقدم والطموح إلى حياة أفضل «علما بأن المشكلة الأولى التى مازالت تعرض سبيل تقدم المسلمين واستئنافهم لدورة حضارية جديدة هي الأمية المتفشية على أوسع نطاق فى البلدان الإسلامية»⁽⁸⁾.

«فالوعى العميق برسالة التعليم عند الفقيه المجتهد فى صياغة شروط التقدم هو

= ضمن كتابه (اللسان المغربى عن تهافت الأجنبى حول المغرب) وذلك عام 1911 أى سنة قبل الإحتلال.

(7) الفكر السامى. ج II ص 396.

(8) ندوة الايسيسكو المنعقدة بالرياض سنة 1994 حول أوضاع العالم الإسلامى.

ما يؤسس فكرة توزيع المعرفة توزيعا عادلا، بحسبانها رأسمالا اجتماعيا تتساوى فيه الحقوق والأنصبة، ويمتنع فيه نظام الإمتياز التقليدي الذي كان يجري فيه تفويتها لفئة دون أخرى عملا بقاعدة التمييز - الواعية واللاواعية - بين «العامة» و«الخاصة» ممن يؤول إليها الحق حصرا. وليس من شك في أن هذا التصور الجديد للرأسمال العلمي الرمزي يقرب رأسا على عقب النظام التقليدي لانتاج النخب الذي ينغلق على عائلات علمية معلومة دون سواها⁽⁹⁾.

ويتجه الفقيه المجتهد إلى الأسباب التي أدت إلى تردي التعليم عموما فيعزيها إلى افتقار المؤسسة التعليمية إلى كتب دراسية عصرية يستطيع معها الجيل الصاعد فهم النصوص وتحصيلها وتمكن من تعميم المواد المعرفية في سائر أطوار التعليم، وعلى الأولاد والبنات سوية.

2- لماذا تجديد الكتاب المدرسي

ذكرت جريدة الإتحاد الاشتراكي المغربية بتاريخ 7 فبراير 1997 ضمن دراسة حول المكتبة المغربية في عهد الحماية، بقلم الأستاذ أحمد زيادي بأن «محمد بن الحسن الحجوي يعد من أوائل الذين اهتموا بالكتاب المدرسي إذ القى عدة محاضرات في هذا الشأن داخل الوطن وخارجه».

وبالفعل ففي محاضرة ألقاها سنة 1350 بالمؤتمر الرسمي التونسي الأدبي، حول «كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية» قال: من المتعين علينا أن نؤلف كتباً وطنية دراسية في كل علم نحن في حاجة إليه موافقة لحاجتنا ومطابقة لتفكيرنا، وتكون على ثلاثة أصناف آخذاً على النحو كمثل في الصياغة: صنف للمدارس الابتدائية يجمع بعض قواعد النحو الضرورية التي لا بد منها في إصلاح المنطق والكتابة. والصنف الثاني كتب تؤلف لتلاميذ الثانويات تكون اجمع للقواعد من الأولى وأرقى تعليماً منها وتشتمل على جملة من شواهد الكلام الفصيح، والصنف الثالث كتب تؤلف لأصحاب التعليم العالي في القرويين والزيتونة وأمثالها تجمع قواعد النحو ولا تشد عنها شادة... وتأتي لكل قاعدة بأصولها من الكلام العربي

(9) الخطاب الإصلاحي في المغرب. م. س. ص 127.

والقرءان العظىم والسنة الصحىحة وتجمع ما هو متفرق من القواعد فى الألفىة وشروحها بحدىث لا بقى الطالب محتاجا للبدح عن قاعدة ما فى كتاب من كتب النحو المتفرقة والنى لا ىتسر لكل أحد امتلاكها: . . .

«لا أرىء كتبنا تختصر من الكتب السالفة الذكر اختصارا بل أرىء ممن يؤلف فى النحو كتب الدراسة، أن ىثور ثورة مهولة جرىئة على النحوىىن، فى كسر السجىن الذى سجنونا وسجنوا فىه أنفسمهم. . . فىنبذوا وراء ظهرهم الأسلوب الذى التزموه وهو تضخم علم النحو وتكثىره وصىرورته علما عظمىة الجئة بالعمامة والثىاب حتى صار شىخا مخوفا، فحرموا من نفعه عموم الأمة وكانوا سببا فى إبعادها عن لغة القرآن وعن لغتها المحبوبة، وحرموها من التقدّم وزوال الأمىة.

«أرىء ممن يؤلف أن ىقلب وضعىة العلم رأسا على عقب أعرابا وتصرفا، فىلنبد تلك التعارىف المعقدة ولنبد عنا كل حجج النحوىىن وتوجهاتهم الخىالية التى لىست علها مسحة من القبول، ولىقتصر على الاستدلال بالسماع الصحىح الذى تلقاه ثقة أهل الفن كالخلىل وسبوىه وىونس الاصمعى وأمثالهم من العرب الموثوق بعربىتهم، فىلّىتجنب تلك الحجج الخىالية التى هى فلسفة باردة ضخمت بها الكتب وضاع فىها الوقت. . .

«ولىنبد عنا كل خلاف كوفى أو بصرى أو بغدادى، وكل تحزب لفرىق ضد الآخر، فالعلم لا وطن له. . . فلا معنى لبقاء الخلاف بعد ثبوت السماع إلا تكثىر الشغب والجمود والجحود على التحىز لفرىق دون آخر، فلغة العرب لىست بصرىة ولا كوفىة. . . وإنما العرب كانت تنطق حسب أذواقهم السلىمة وفكرتهم البدوىة البسىطة المستقىمة، لا شعور لهم بما تخىله النحوىون ولا بما تفلسف به الفرس البصرىون والكوفىون، فمصلحة الأمة فى تقصىر علم النحو، فىلّىتجنب المؤلف هذه الأحاجى المستردلة. إن كل هذه القواعد التى لىست لها فوائد ىجب نبذها وتجنب حشرها فى كتبنا الدراسىة، إذ بأمثال هذه القواعد وهذه التحجىرات والنزاع فىها وفى توجهاتها الفلسفىة الباردة طال علم النحو وضخم. . .

«وهذا علم البىان اكثروا فىه من الخىال فصىروه صعب المرتقى وضخموه بخلافات السكاكى والزمخشرى وغيرهما، حتى أنك إذا تطلبت قاعدة من قواعد لا تجدها إلا فى وسط مستنقعات من الأوهام والأبباح الجوفاء. وهكذا علم الأصول

ضخمه بعلم المنطق والجدل واللغة والتوحيد بل حتى التصوف فصار وسط هذه العلوم لا يبصر إلا بمكبرة كاشفة كهلال تحت الغمام.

«أناشدكم الله أيها المؤتمرون أن تأخذوا بيد هذه اللغة العربية الجميلة الراقية من أصل وضعها والتي أضعها أهلها بحب الفخفة العلمية والألغاز الاختصارية، فلا يدخل فن في فن، ولا يكثر من القشور حتى يفنى اللب، بل يقتصر على القواعد الصحيحة النقية لتفرغ في قالب عربي صميم مصقول، مفهوم بنفسه من غير اصطلاح، بل في أسلوب عربي سالم من كل إبهام أو إيهام أو تعقيد.

«إننا محتاجون لكتب دراسية لتاريخ إفريقيا الشمالية المجيدة، فمن العيب المزري بنا أن نأخذ تاريخ بلادنا عن كتب غيرنا، بل ينبغي التعجيل بتأليف كتب الدراسة لجميع علومنا على اختلاف أنواعها ولأصناف التعليم الثلاثة، فإني لا أنقص من قيمة التوالمف الإسلامية المتقدمة ولا أقلل من أهميتها، بل لأصحابها الفضل والجزاء العظيم ولكن الأزمان تغيرت والأحوال انقلبت والأفكار تبدلت، ولكثرة الإحتياج إلى العلوم الدنيوية أو العصرية ضاق الوقت على شبابنا، والعاقل من يلبس لكل حال لبوسه . . . فلا يتم نظام المعهدين العظيمين - القرويين والزيتونة - إلا بكتب الدراسة الموافقة لروح العصر، وبذلك تنتعش اللغة والأدب وتدب في علومنا حياة قوية، ويرتقي المعهدان إلى المستوى المطلوب (انتهى موجز المحاضرة)⁽¹⁰⁾.

ويتحسر الفقيه المحاضر على اجهاض مشروعه الرامي إلى قيام حركة تنافسية لتأليف الكتاب المدرسي، فيخبر جمهور المؤتمرين بأن النظام الذي الفه بمعاوضة مجلس القرويين التحسيني سنة 1332، كان مشتملا على باب تأليف كتب الدراسة والإجازة عليها، لكن حالت الأقدار دون فتح الباب المذكور . . . ويتعلق الأمر بالقسم السابع من الضابط الأساسي لقرار النظام التعليمي بالقرويين ويشتمل على خمس مواد في المجازات على تأليف الكتب ولا سيما الدراسية، وكيفية امتحان التوالمف التي يطلب أصحابها الجوائز.

(10) طبعت المحاضر بالمطبعة الفنية بالعاصمة التونسية بتاريخ سادس شعبان 1350 (10 دجمبر 1931) مخطوط في الخزانة العامة بالرباط عدد ج. 115 - سيجد القارئ النص الكامل للمحاضرة في الملحق رقم 2.

3- الدعوة إلى تعليم البنات

من الأهداف التى كانت تصيغ المشروع النهضوى للفقيه الحجوى، أن يوزع التعليم ولو فى مراحل الأولى، بالتساوى بين البنين والبنات وذلك سواء فى الحواضر أو البوادي «إذ لا سبيل لأن تصير أمة معدودة من الأمم الحية، إلا بتعميم القراءة والكتابة بين الحواضر والبوادي، وتعميم التعليم الإبتدائى حتى يصير جل أفرادها رجالا ونساء يقرؤون ويكتبون»⁽¹¹⁾.

النص يبدو لنا فى الوقت الحاضر تافه وبديهي، لكن عندما نضعه فى سياق التاريخى نتخيل إلى أى حد كانت الدعوة إلى تعليم المرأة مدعاة إلى تحريرها من ربيعة أنانية الزوج ونفى عنها ثقل الضغط الاجتماعى بتضييق الخناق على الفتاة وحبسها داخل البيت وهى لا زالت فى سن مبكر. لذلك يرى الحجوى «وجوب تعليمهن وتهذيبهن تعليما يلىق بديننا ويزين مستقبل أولادنا ويصيرهن عضوا نافعا فى هيئتنا الاجتماعىة. فلا غنى لنا عن إعانتهم فى تربية رجال المستقبل، الذين عليهم مدار حياة البلاد، وتعليمهم فى التربية ونظام البيت وقواعد الصحة والدين وحفظ القرآن أو بعضه، والحساب والجغرافيا والعربىة والأدب الحقيقى لا الخيالى ونحو ذلك مما يعينهن على مهمتهن ويضئ لهن الطريق»⁽¹²⁾.

ويمكن القول بأن مسألة تعليم المرأة - وهى فكرة بلغت الاوج فى الدعوة إلى التجديد - استأثرت كثيرا باهتمام الحجوى واحتلت حيزا كبيرا من كتاباته ومحاضراته مما أثار حفيظة كثير من فقهاء التقليد وحتى من رجال المخزن بشن حملة ضده، لذا فعندما القى محاضراته الشهيرة حول تعليم الفتيات بمعهد الدروس العليا بالرباط سنة 1925، وحضرها علماء مغاربة وفرنسيون جرؤت عليه جماعة المعارضين لتعليم البنات واعتبروا ذلك جرأة لا تغتفر، مما اضطر معه المحاضر إلى القطع دون الاتمام⁽¹³⁾.

(11) الفكر السامى فى تاريخ الفقه الإسلامى - الجزء II - ص 396.

(12) نفس المرجع ص. 379.

(13) انظر ترجمة الفقيه الحجوى وآثاره بمؤلف المرحوم عبد الله بن العباس الجرارى - التأليف ونهضته بالمغرب - مكتبة المعارف بالرباط طبعة 1. 1985. ص 138 - المحاضرة قدمت تحت عنوان «المحاضرة الرباطية فى تعليم الفتيات بالديار المغربية» - طبعت بتونس فى 47 صفحة - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط. رقم ح 205.

وأمام هذه المعارضة الشديدة لم يكن الحجوي ليتراجع عن دعوته إلى تعليم المرأة وربط مستقبل الأمة المغربية وتقدمها بحسن تعلم المرأة وثقيفها، إلا ليستدرك أن دعواه ترمي إلى «تعليم الفتيات لا إلى سفور المرأة» مؤكداً على «تحرير المرأة في الإسلام دون سفور». وفي هذا الصدد يتساءل سعيد بنسعيد العلوي «عما إذا كان هذا الاستدراك وتوضيح الموقف راجعا إلى التأثير بالضجة التي خلفتها محاضراته الأولى» بغضب الفئة المحافظة من رجال المخزن واستياء المتشددين من علماء الدين «أم أنه تراجع شخصي مصدره حصول تطور في نظرتة إلى الأشياء»⁽¹⁴⁾.

ومهما يكن من أمر فإن المسعى الذي يرمي إليه الفقيه الحجوي من تعليم المرأة وثقيفها هو تحريرها من بعض التقاليد الضارة بها والوصول بها إلى رتبة التحصيل والاجتهاد في فروع المعرفة، ولذا يبقى «صوت الدعوة إلى تحرير المرأة في خجله وتحفظه بل وفي تردده بين الإقبال والإحجام، بين التقدم والنكوص. أمرا يصح اعتباره مؤشرا دالا على صعوبات داعي التحديث والتغيير في مجتمع ثقافي ذي بنية ذهنية تقليدية»⁽¹⁵⁾. وكما يبقى الحديث عن معضلة المرأة في العالم الإسلامي في وقت مبكر، حديثا يكشف عما للفقيه الحجوي من خصوبة في الفكر، ويؤكد بعد نظره وأسبقيته في الرأي، لأن اهتمام القانون المعاصر بموضوع المرأة المتأجج والدفاع عن حقوقها ضمن حقوق الإنسان واعتبارها عاملا من عوامل التنمية العامة تجعلنا نرى استبصار الحجوي لمدى أهمية المرأة في الحياة الاجتماعية.

(14) «الوطنية والتحديثية في المغرب» كتاب صدر أخيرا للدكتور سعيد بنسعيد العلوي.

(15) نفس المرجع.

الفصل العاشر

التعليم وعلاقته بالاقتصاد والمال

لم تكن إشكالية إصلاح التعليم عند الفقيه الحجوي هي وحسب، محاربة الأمية وإنهاض البرامج التعليمية وتحديث الكتاب المدرسي، وتوزيع التعليم بين الرجال والنساء وبين البوادي والحوضر على حد سواء، بل هي أيضا الدعوة الحثيثة إلى إشاعة التعليم التجاري وتكوين جيل جديد يحقق التواصل بين تعليم تقليدي بما يتضمن من مكونات للهوية، وتعليم حديث بما يقتضي من معارف عصرية تفي باغراض الارتقاء الاقتصادي والتقدم الاجتماعي. ومن هذا المفهوم الجديد للتعليم انطلق الفقيه الحجوي في دعوته إلى «تعليم الأولاد بنين وبنات على التربية الصحيحة الاستقلالية التي تؤهلهم للقيام بعظيم المهمات والاحتفاظ بالمال من نقود وعقار».

فكيف إذن سيتحقق هذا التحديث عند الفقيه الحجوي وهو يلتزم الوقوف بين الدعوى إلى العصرية والحرص على مراعاة ما يقتضيه الحكم الشرعي؟ الجواب: «بالبحث في سبيل المقاصد الشرعية الحقة، أي تلك التي لا يكون الإسلام بموجبها غريبا عن العصر وخارجا عنه، لتحصل إعادة فتح الباب الذي اغلق فطال إغلاقه قرونا ودهورا في أرض الإسلام: باب الاجتهاد»⁽¹⁾.

هكذا تصدى الفقيه السلفي المتنور إلى تمهيد السبيل لقرار الثالث الذي يركز عليه الاقتصاد الحديث: التجارة - التأمين - المعاملات البنكية.

(1) سعيد بن سعيد العلوي - الاجتهاد والتحديث - ص. 81.

1- المفهوم العصرى للتجارة عند الفقيه الحجوى

يرى الفقيه التاجر ان لا قيمة ولا مستقبل للتجارة فى المغرب الا بفتح اقسام التعليم التجارى وانتشار الأسس الحديثة بين التجار فى معاملتهم الداخلية والخارجية وهذه الأسس تبنى على قواعد المحاسبة وامساك الدفاتر التجارية وتتبع حركة السوق واحواله فى الداخلى والخارج بقراءة الجرائد والمنشورات المتخصصة. ولتحقيق ذلك فهو يعقد كل الامال على فئة التجار المبتورين وعلى الشباب الطافحين «فعليهم بانهاض قومهم ووطنهم اقتصاديا بالارشاد الى استخراج كنوزه العظيمة التى اختلطت بارضه ومائه، وبث روح جديدة فى التجارة والصناعات وكافة انواع الاقتصاد ليحاربوا الفقر بالاقصاد، والاختصار من العوائد التى تستنزف الأموال، وباستنتاج الخيرات من الأرض والمياه، وباحياء الصناعات الوطنية والنهوض بها الى مستوى الرقى الجديد، فبالاقتصاد أصبح العالم مستعمرة اسرائيلية» (2)

يقول فى محاضرة شهيرة له عن «مستقبل تجارة المغرب» القاها فى المجلس البلدى بفاس امام جمهور المثقفين ورجال وارباب الاعمال الاجانب: «حيث تعلق الأمر بالتنبيه على بعض ما ينبغى ادخاله من التحسين على التجارة الأهلية مع ارشادات الى ما فى نموها وتداركها بما يشهدها من انواع المزاحمات الأجنبية والبعثات الأوربية المتقاطرة من الجهات الست على البلاد المغربية فاقول بان التجارة هى محاولة الربح بالمبادلة... فهى حياة الأمة، اذ لا يتصور فى الوقت الحاضر ارتقاء امة لا تجارة لها ولا مال، وبها تقوم الأعمال العظيمة والاصلاحات الجمّة فى حياة الامّة. وان تجارة اليوم والغد غير تجارة الأمس بمراحل، بالأمس كانت التجارة كلها بيدكم، لايزاحمكم فيها غيركم، فتاجر اليوم يلزمه ان يغير الأسلوب القديم ويخلع ربة التقليد المذموم والجمود المشؤوم ويبنى الأساس الجديد على اصول اربعة فى نظري:

1. ان يجعل رأس ماله اضعافا مضاعفة اكثر من ذى قبل... ذلك ان المزاحم لك هو الأوروبى الذى يدير الملايين تتلوها قروض البنوك التى تضاعف رأس ماله، وكذلك مع الفبارك والدور العليا فى اوربا وامريكا... فكيف يمكن للوطنى مضاعفة رأس ماله ليتناظر به الأوروبى؟

(2) الفكر السامى، الجزء الثانى ص. 389.

جوابه: يعقد الشركات وترك المنافرات وطرح التقاليد التي لا تفيد، والتزام الصدق والجد والحزم لتحصل الثقة . .

2. ان يغير الأسلوب القديم الذي كانت عليه التجارة المغربية الى اسلوب حديث يوافق عصره، وذلك بتكثير الايراد من البضائع ليصل الربح الى ما يكفي . . و مهما كثر الداخل والخارج تعين الضبط بالدفاتر التي هي سياج المال، وذلك بتعلم مسك الدفاتر على الأساليب الوقتية بغاية الضبط والاتقان والا عرض رأس المال للخسران، وأصبح ضحية الخطأ والنسيان. ومن الأصول التي ينبغي للتجار الوقتيين العمل بها، الاكتفاء بالربح القليل، فقد افادت التجربة ان قليل الربح، مع دوران رأس المال ثلاث او أربع في السنة، خير من كثير من الربح مع دورانه مرة او مرتين . . . والتجارة في هذا الوقت اشد حاجة الى الرحلة لاستطلاع احوال عالم التجارة وتغيير اساليبها، وملاقة رجالها . . أفلا نعقد شركات لبناء فبارك لمصنوعات تغنينا عن مصنوعات اوربا، مع وجود المواد الأصلية في أرضنا ووجود أودية فيها من قوة الكهرباء ما يصير أرضنا ارض صناعة وغناء باهر؟ فلأي شيء يجلب الكاغيط من الخارج ومواده كلها من أرضنا؟ ولأي شيء يجلب الملف (بسكون الام) والمصنوعات الصوفية، وموادها تذهب من أرضنا فتصنع وترجع .

3. ومن اصول التجارة، الاعلانات واشهار محل التجارة في الجرائد بالكتابة على المحل وعلى البضائع، ولا بد ان ينفق التاجر على ذلك، سنويا . . . وجل الأصول التجارية لا يتصور الوصول اليها على حقيقتها الا بتعلم علم التجارة . . فاروبا وامريكا، اللذان هما سوق التجارة العصرية وعليهما مدارها، جعلوا لها مدارس خاصة مع ان في كل كلية من كلياتها قسما خاصا بالتجارة والفلاحة والصناعة، وانظروا الى اليهود الساكنين معكم بفاس قد أحرزوا مقاما في التجارة عجزتم عنه، وعقدوا شركات وأصبحوا اصحاب فبارك وشركات . . . وقلما تكون عملية اقتصادية مهمة في مدينتكم الا وهم داخلون فيها وانتم تنظرون وتتعجبون والحال انهم لا يفضلونكم في صفة من الصفات . . .

فلأي شيء تقدموا وتأخرتم؟ تقدموا لانه قدمهم العلم بالتجارة واخركم الجهل بها، بخلتم على العلم فبخل عليكم. العلم ان اعطيته كلك اعطاك بعضه، قدموا اولادهم لعلم التجارة واخرتم اولادكم فتاخرتم. إني لا أرى للتجارة المغربية نجاحا

مع الجهل بفنون التجارة، فيجب عليكم ان تنتبهوا لحالتكم هذه وتستيقظوا من منامكم الطويل . التاجر عندنا يدير خمسين الف فرنك فاذا بلغ حد الشيخوخة بنى دارا ان كان من الفائزين، في حين ان من تعلم العلوم العصرية من جيرانه (يقصد اليهود) يدير حركة الملايين ويحصل على الثروة الكبرى بفضل معلوماته . علموا اولادكم وتنافسوا في ذلك، واجعلوا بينهم منافسة، علموا اولادكم الاقتصاد، علموهم التجارة والفلاحة واتقان الصناعة لئلا تذهب الثروة، علموهم لتأمنوا على مستقبلكم من الفقر والاملاق المهدد لكم . . .

4. احوج الناس الى تعلم مكارم الأخلاق واكتسابها التاجر الذي هو مضطر لمخالطة الناس، واول الأخلاق الواجبة في التاجر النشاط وعدم الملال ليضبط تجارته ويقوم بها احسن قيام . . ثم الخلق الحسن: فمن كان شرس الأخلاق ضيق الصدر لم ينجح غالبا . كما يجب عليه ان يكون صبورا على مضض الدهر متحملا شكورا لربه على كل الأحوال . فالريح هو جزاء الصبر (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) . ومن الأخلاق التي يفتقر اليها التاجر ان يكون مفكرا في الاستنتاج: كيف يشتري وممن يشتري في وقت الشراء وكيف يبيع ولمن يبيع في وقت البيع، مترصدا للأوقات . . . مفكرا في الفرص الاتضيع، فبضياعها تضيع الارباح . . . ومن أمهات الاخلاق في التاجر الصدق، والأمانة، فاياكم وغش السلع والتدليس في عيوبها، ومن جملة الامانة التسوية بين الناس في الأثمان . . . (انتهى ملخص المحاضرة)⁽³⁾

من استقراء كلام الفقيه الحجوي عن التجارة المغربية وكيفية النهوض بها والتركيز على أهمية التعليم التجاري، نذكر بعض مضامين الخطاب النهضوي عند قاسم امين حين وضع في كتاباته عامل الاقتصاد قبل غيره من العوامل اذ يعتبر بان اهم عامل له أثره في حال الامة هي حالتها الاقتصادية . وبتركيزه على العامل الاقتصادي يستهدف قاسم امين الانتقال بالمجتمع المصري من مرحلة الاقطاع (ملاكو الأراضي) الى المرحلة البورجوازية الخليفة باعمال التقدم والتحديث⁽⁴⁾ .

ولا نجازف اذا قلنا كذلك بان الفقيه الحجوي كان سباقا الى ذالك التساؤل

(3) مخطوط في الخزانة العامة بالرباط (ج. 115).

(4) الفكر الديمقراطي واشكالية الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة للمؤلف حسن أحمد الحجوي ص 226 .

الذي طالما شغل بال الطبقة المتنورة في بلده حين تساءل: فلأي شيء تقدم التجار الأوروبيون واليهود وتأخر التجار المغاربة؟ وعلى غرار شكيب أرسلان يجيب الفقيه التاجر بكل وضوح وجرأة «تقدموا لأنهم قدمهم العلم بالتجارة وأخركم - مخاطبا حضور التجار - الجهل بها» وهكذا فباستنهاض طبقة المتاجرين في مختلف السلع، يحث الحجوي هذه الطبقة على اعمال التحديث باستغلال رسالتها استغلالا عقليا، ويحفزها على اشاعة التنافس الاقتصادي بوضع التجار في المرتبة الاثقة بها علما وعملا. وبخطابه المركز على اهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات، فانه يرمي - على غرار قاسم امين - الى ضرورة بناء القاعدة الاقتصادية للطبقة البورجوازية في مواجهتها للاقطاع، وكل ذلك يرمي الى خلق بورجوازية تعمل على تحديث المجتمع المغربي.

2- إشكالية نظام التأمين

وهو ما يسميه الفقيه المجتهد بضمان السكرتاه ويخصص له حيزا واسعا في كتاباته ومحاضراته خاصة الفصول الواردة في الجزء الثاني من كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي. ففي هذا المجال يصبح توسيع مفهوم الاجتهاد عند الفقيه الحجوي وسيلة شرعية للأخذ بما يقتضيه روح العصر من تعامل مع التقنيات الحديثة التي اصبحت ادارة الاقتصاد واستثمار المال مرتكزة عليها. وهكذا نرى الفقيه المجتهد يتأمل «نازلة» الضمان التجاري فيجتهد في التوفيق بين الحكم الفقهي ومستلزمات الأنظمة الحديثة لكي يتأتى للمجتمع الاسلامي الأخذ بالطريقة الشرعية التي تحقق ضمان القيم التجارية والمالية على غرار ما يجري به العمل في المجتمعات الحديثة.

ومن ثم يفتح الفقيه الحجوي مناقشة مسألة «التأمين» في مبنائها العام كوجه من وجوه الدفع الى تحديث المجتمع المغربي والدولة المغربية في نفس الآن، فيقرر بأن «مما وقع في وقتنا على خلاف التوسعة فتوى بعضهم بمنع الضمان المسمى (سكرتاه) على الأموال ثم اختلفوا فمنهم من علل بالغرر، ومنهم من علل بالقمار، ومنهم من قال: انه كفالة بجعل...»

فأما من حكم منهم بأنه غرر، أي انه قاسه على بيع الغرر المنهى عنه شرعا فقد أخطأ وكان قياسه قياسا فاسدا، فليس في الضمان بيع ولا معاوضة وانما شيء تافه

يدفعه الإنسان كتبرع لشركة تضعه في صندوقها الذي هو كصندوق احتياطي، ثم تكون ملزمة بالتعويض على الدافع اذا اصابته كارثة مقابل ما أخذت منه، فشبها بالتبرع أقرب وأقوى من شبها بالبيع .

وأما من قال انه من الميسر والقمار المحرم بنص القرآن، فهو خروج عن جميع الاستنباط المعقول . اما الفتوى بكون الضمان «كفالة بجعل» فهو خطأ أيضا للفرق العظيم بين الصورتين .

فصورتنا انما فيها مال مكفول وليس فيها كفالة ذمة لذمة، ولا جعل فيها اصلا لاتفاق المالكية أن الجعل لا يستحق الا بتمام العمل، وهذا شيء تافه جدا يدفع مسبقا . . .

فلننظر الى أقرب الأشياء شبها بالسكرتاه فنقيس عليها . فالأظهر والأقرب ان تلحق بباب التبرع، وان لم تكن منه، فمراعاة للمصالح المرسله التي هي من الأصول التي بنيت عليها الشريعة . . . ثم يشفع الفقيه المجتهد الاستنتاج الفقهي بالأمثله الحية المأخوذة من الواقع المنظور ليتابع القول: «فكأنها (السكرتاه) عندي جمعية اكتبانية خيرية لإعانة المنكوبين بنظام والتزام، تاخذ من مائة الف رجل شيئا قليلا تعوض به نكبة رجل مثلا، واستنباطها من قاعدة القليل في الكثير كثير . . . وعلى كل حال هي معاملة عمت بها البلوى لاتساع نطاق الأعمال التجارية والصناعية والزراعية برا وبحرا . . . اذ لولا عملية الضمان ما بقيت شركة تجارية مهمة، ولا معمل ولا مراكب بحرية او نحوها الا واصيب بكثير من النكبات . . . وكيف تكون امة ماجدة في هذا العصر خالية اليد من هذه الأمور؟ اذن تكون مستعبدة لغيرها، واستقلال الامم الحقيقي في هذه الأزمان لا يكون الا باستقلالها اقتصاديا وصناعيا(*) . وكل يعلم ان مبتكرات الوقت الحاضر لا نظير لها في الغابر، لذلك حدثت لها معاملات جديدة فعلى الفقهاء ان لا يجمدوا في احكامهم على التضييق والتشديد المضيق للمصالح، والوقوف مع الأنفاظ والمألوفات التي ألفها من قبلهم، بل عليهم ان يلاحظوا أوجه انطباق النصوص على حاجيات العصر الحاضر وما تقتضيه مصلحة المجتمع الذي يعيشون فيه مهما وجدوا سبيلا لمساعدة المنصوص والمجمع عليه(5) .

(*) التشديد منى

(5) الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى، ج . الثانى، ص . 504 وما بعدها

3- المعاملات البنكية

يبنى الفقيه المتنور دعوته إلى الإصلاح على التوسع في مفهوم الاجتهاد بما تقتضيه ضروريات العصر وملاحقة ركب التقدم من دون المساس بجوهر الشريعة، لذلك نراه يندد بالجمود على الألفاظ والمألوفات والأحكام التي جعلت كلها تعبدية في باب المعاملات التي بناؤها على جلب المصالح ودفع المضار ولا دخل لاحكام العبادات فيها، فيقول: «من أدرك منا رتبة الاجتهاد، فله ان ينظر فيها بما يوافق احوال وقته او في المسائل التي لا نص فيها... فهذا يتسع صدر نصوص الفقه، وياتساعها تصير ذات مرونة صالحة لهذا العصر الذي تغيرت فيه قوانين العالم كله بما يلائم المخترعات والأحوال الوقتية التي لا سبيل لدفعها ولا مناهضتها، وما تجددت حال او ظهر اختراع، او تغيرت سياسة الا وتراهم يغيرون قوانينهم لئلا تمنعهم من التقدم، ولئلا تكون حجرة عثرة في طريق نهوضهم، فتوجب السقوط وضياع الوقت والحياة والشرف»⁽⁶⁾.

ولما كانت المعاملات البنكية من المستجدات الدخلية على بلاد المغرب بحكم ارتباطها بالمعاملات التجارية والمالية مع البلاد الاجنبية، عرضت على الحجوي مسألة المعاملات البنكية، فأجاب فيها بصراحته المعهودة بان تلك المصارف - أي البنوك - تمسك السكك والنقود وتشتغل بالحوالات وقبض الديون واعطاء السلف وقبضه بمنفعة الربا الحرام شرعا، الا ان الفقيه المتنور يرى ان لا ينبغي منع الناس من المعاملة بالاوراق المالية معاملة خالية من كل ربا... «وصورتها ان تدفع للبنك الدراهم في فاس مثلا ثم يعطيك بدلها حوالة على فرعه في الرباط او مركزه بباريس باجرة معلومة تدفعها اليه طلبا لخفة الحمل والاسراع في مقابلة الضمان، ويكتب الورقة باسم الدافع وانه لا يقبض ما فيها الا هو او من ينوب عنه، ويضع البنك خطه وطابعه عليها. فاذا ضاعت لصاحبها رجع للبنك وادلى بالعدد المرسوم عليها فاعطاه ورقة اخرى بدلها وقبض قدرها، وهي المسماة في اللغة الدارجة يطرة أو شيكا... تسمى في اللغة وعند الفقهاء سفتجة (بفتح السين)، وأشار إليها الشيخ خليل في باب القرض بقوله («كسفتجة الا ان يعم الخوف»)، فهو تشبيه في المنع لما فيها من انتفاع

المسلف بخفة الحمل، لكن كون المسلف هو الذى يدفع أجرة للبنك على عمله، دليلا على عدم قصد السلف بمنفعة، فلذلك يصح أن يقال بجوازها، وأيضا الشيخ خليل أباحها للضرورة بقوله «الا أن يعم الخوف»⁽⁷⁾.

لم يكن موضوعنا هو متابعة الشروح التى وردت فى فتوى المعاملات البنكية كما تجلت فى تقرير الفقيه الحجوى فى صورها الدينية والدنيوية، وإنما القصد التنبيه إلى أن الحديث عن البنك ولو بتردد وتحفظ مؤثر دال على أن رياح التحديث بدأت تحرك الفقيه المغربى لتعصف بالجمود الذى يخيم على الذهنيات المتحجرة وتذكر بمقولة فقيهننا المتحدث عنه «بأن الشريعة الإسلامية ما جاءت الا لخير الأمة ولرقيها ورفاهيتها، ولم يجعل الله قط شريعة ضد الرقى وضد صيانة بيضة الإسلام، فيجب التوسع فى أبواب المعاملات خاصة بما لا يخالف المنصوص والمجتمع عليه لئلا نجعلها عثرة فى سبيل رقى الأمة الإسلامية. وكما نهينا عن القول بالتحليل بغير دليل كذلك نهينا عن التحريم بغير دليل. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.»⁽⁸⁾

(7) «الأحكام الشرعية فى الأوراق المالية» - فتوى للفقيه الحجوى - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

(8) «جواز التأمين على السلع والبضائع» - فتوى للفقيه الحجوى - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

خاتمة

في خاتمة هذا العرض الخاص بفكر الفقيه الحجوي وآثاره، نختزل في جملة من القواعد الاجتهادات التي ركز عليها فقيهننا فلسفة موقعه وآرائه من الأحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان المغرب يعيش في ظلها عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

هناك في الأساس ما ميز الفكر السلفي عند الفقيه الحجوي من مواكبة واضحة لمستلزمات التغيير ومقتضيات التطور، وذلك برجوعه إلى النظرية الشاطبية المبنية أساسا على مقاصد الشريعة كأداة لحل المعضلات الناشئة عن الإكتشافات العلمية والتقنيات الغربية في شتى مجالات الحياة، متجها عن طريق الاجتهادات الشرعية والفتاوي المتنورة، إلى إشاعة مبدأ القبول بما يوجد عند «الآخر» من علوم ومعرفة ونظام. فقراءة الرحلة الأوربية مثلا تمكن من فهم الحس النهضوي الذي يختزله الحجوي، بالنسبة لبلاده، في فقدان النظام، وتسلب غير الأكفاء على مناصب الدولة، مما راح معه مؤلف «الفكر السامي» يدعو إلى إقرار النظام، والتجديد في الإدارة والاقتصاد.

ولفهم الفكر الاصلاحى جيدا عند الفقيه الحجوي نذهب مع سعيد بنسعيد العلوي في القول بأن الرجل لم يكن متفرجا سلبيا على الفترة التي يتحدث عنها، بل كان مرآة لما كان يعتمل في صدور المفكرين من أفكار وآثار في تلك الفترة، فنحن أمام مسؤول سياسي لم يكن شاهدا على أحداث جسام في مرحلة خطيرة من تاريخ المغرب المعاصر وحسب، ولكنه كان في تلك الفترة أيضا ممثلا فاعلا ومقررا إلى

درجة ما، فصورته هى صورة الفقيه- التاجر الذى يوجد فيها جنباً إلى جنب السلفى المتنور واللىبرالى المتمسك بالفكر السلفى... ففى قراءة ما كتبه مؤلف «الفكر السامى» ما يغزى بالقول ببلوغ خطاب التجديد السلفى ذى المدى البعيد فى المغرب مع محمد الحجوى، وبمد فنوت من الحوار مع الخطاب «اللىبرالى» كما نجده فى الفكر العربى المعاصر، بل وفى أكثر أشكال ذلك الخطاب جرأة فى الدعوة إلى التحديث: تحديث الدولة وتحديث المجتمع... (1)

وفى تقريره التاريخى عن حال المغرب بعد الحماية، يتخطى الحجوى المواقع التقليدية ليطال «إصلاحات الحماية» ويندد بانزلاقاتها، فهو يطالب «الإقامة العامة» لا بالالتزام بكيفية صريحة بمقتضيات عقد الحماية، بل يطالب بتدارك وإصلاح ما تم إفساده من أمر فى ممارسة الحماية ذاتها: كجعل حد لنزع الملكيات، وإصلاح القضاء، والتخفيف من الضرائب... الخ (2).

وفضلاً عن هذا النشاط العلمى التنويرى لم يكن الفقيه الحجوى قاصراً على الوسط الذى هو منه - أى طلبة القرويين - فاحب إليه كان مخالطة طبقات أخرى من صوفية وتجار وعوام ممن يرى فى مخالطتهم فائدة توسيع مداركه بالحوار والاقْتباس. فهو يقول: «اننى والله لا أبخس حق ناس أفاضل فقيهه انفسهم، منورة أفكارهم وان لم يعرفوا مصطلحات الفنون، بل كانوا معدودين من الأميين المشتغلين بالتجارة أو غيرها من أسباب الحياة، إذ من المعلوم أن ذكاء الأمة ورقى فكرها كان متمثلاً فى زمرة من عوام فاس تفوقوا على بعض علماء بقية المغرب لوجود نبراس عظيم يستضيئون به وهو معهد القرويين الذى انتشر بحر عرفانه فتدفق على منتديات فاس ودورها وبساتينها، فقلما تجد مجتمعاً لا يوجد فيه عالم يجتمعون عليه ويقتبسون من معلوماته...»

«ومن لطائف فاس وجود منتديات طبيعية، ففنادق التجار وحوانيت الاسواق على ضيقها يتكون منها مجالس عفوية تجمع النابه والخامل والمتفقه والجاهل فيستفيد هذا من ذاك، ويقتبس الغافل من الذكى، والجاهل من العالم علماً وفكراً. لذلك نجد طائفة التجار بالأخص لها معرفة بالجغرافيا والسياسة والتاريخ وغيرها بسبب رحلتهم

(1) الإجتهد والتحديث ص.ص. 68-69-97.

(2) مخطوط فى الخزانة العامة بالرباط تحت عدد 254/ح - م.س.

إلى أوروبا والشرق وأمريكا وغيرها تفيدهم عقلا وقانونا في التفكير .

«بل تجد منزل كل تاجر نابه متددى من مندديات الأدب والسياسة فتجد فيه جرائد ومجلات الشرق والغرب وكل كتاب في الاجتماع أو الاقصاد أو غيرهما . وقل من الأعيان من لا تجد في بيته مكتبة ولو صغيرة . . .

«كان سيدي العباس بن جعفر العمراني الجوطي يشتغل التجارة ويتقن الحساب ويعرف ظواهر الجغرافيا والتاريخ وله إمام بأحوال العالم أوروبا والشرق وأمريكا وإن لم يرحل ولكن خالط أهل الرحلات . . . ومما يدل على ذكائه أنه من نعومة أظفاره اعتنى بحال بلده فكان لا يقع أدنى تغيير في الأسواق التجارية أو السكك المتعامل بها إلا قيده في دفتر خصصه لذلك ، فما مضى زمن حتى صار دفتره مرجع فصل الدعوي التي تتعلق بهذا النظام الاقتصادي مما يرجع للنفقات وترشيد المحاجر والمعاملات التجارية وما أشبه ذلك . كما كان يقيد أهم الوقائع والوفيات على أميته ، فهو وإن كان أميا بمعنى أنه لا يعرف مصطلحات الفنون ، فقد كان مرجع القضاة والعدول . . . يرجع إليه في مهمات وعويصات يعجز عن حلها أصحاب هذه الفنون ، على أنه لو ربي في مدرسة وكان في أمة حية لكان من أشهر علماء الاقصاد ، فكنت أستفيد من مجالسته فوائد لا تقل عن الفوائد التي أجدها في القرويين . . .

«وكان الحاج محمد القباج قد جال في الشرق واستفاد من جولته المعرفة المؤسسة على المشاهدات مع فصاحة لسانه وثبات جنانه- وقلما ترى فاسيا أقام بمصر إلا وهو أفصح من الفاسيين ومن المصريين معا وأثبت جنانا وأحضر جوابا- ولقد أخبرني أنه تلميذ لجمال الدين الأفغاني وانه كان يحضر دروسه الليلية التي كان يلقيها على الشيخ محمد عبده وأقرانه . وهناك كان رفيقا لعبده والمويلحي (صاحب كتاب عيسى ابن هشام) وسعد زغلول وعبد الله نديم وأمثالهم من أدباء الشرق ، واستفاد من مجالستهم فوائد لم تكن مع أحد في المغرب في وقته ، وهو الذي أذاع فضل جمال الدين الأفغاني وعبده وأمثالهما وعرف المغاربة بأخبارهم وأحوالهم . . .

«وكان الحاج المدني بن عبد السلام التازي مع كونه أميا ، يتكلم على ديوان ابن الفارض ويشرح منه الغامض الذي يعجز عنه مهرة الرجال ، ويتكلم على فتوحات ابن العربي وغيرهما من كتبه ويحسن الكلام في ذلك بما يقل نظيره عند الفلاسفة الصوفيين ، فعلى أميته كان معدودا من خواص أصحاب الذوق الصوفي والمعرفة

النادرة، وذلك نتيجة مجالسة أهل العلم والذوق في المنتديات الفاسية، كمنتدى عبد القادر المجاوي الذي كان مخزنه منتدى الأدباء وحديقة العلماء، تجد فيه غرائب الكتب والمجلات والجرائد المستجلبه من المشرق العربي⁽³⁾.

وهكذا اذن كان الفقيه الحجوي يلمح من خلال بعض المجتمعات المتأصلة أو المتأثرة بمعهد القرويين نشأة نواة بورجوازية مغربية أطلت على خارج بلادها وتأثرت بما يجري عند «الآخر» واجتهدت في بلورة آفاقها المعرفية في صورة ذاتية تمثلت في إقامة منتديات تلقائية، «إذ بالمنتديات، يثبت الحجوي، يبتدئ الرقي الفكري في كل الأمم قبل المدارس، بل هي بزرة المدارس، وبالمسامرات والمحاضرات التي تكون بتلك المنتديات زخرت أوروبا بالعلوم وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات.

او ليس فيما يصنفه ويدعو إليه فقيهننا استشرافا لنشو مجتمعات مدنية في بلادنا؟.

(3) مختصر العروة الوثقى، ص. ص. 19-21-22-23.

تحقيق حول إحصاء تأليف الفقيه الحجوي

هذا المجهود الذي يبذله الباحثون في الكشف عن اثار الفقيه الحجوي من خلال بعث مخطوطاته وتأليفه الغير المطبوعة، يشكل لا محالة مكسبا فكريا يضيف علي الوثيقة الوطنية مصدرا صادقا للتحقيق في التراث المغربي المنسي، واخراجه من رفوف الخزانات والمستودعات لجعله في متناول الباحثين والقراء.

والدكتور سعيد بنسعيد العلوي عندما طالعنا بطبعة ثانية منقحة من كتاب «الاجتهاد والتحديث».. أتني بتدقيقات حول بعض المخطوطات الوطنية التي لم يكتب لها بعد أن تري النور. ومن بينها خمسة تواليف للفقيه الحجوي لم يقتصر مؤلف «الاجتهاد والتحديث» علي تحقيقها وترتيبها، بل أانا بالمتن الكامل لها، وهي كتالي:

- ارشاد الخلق الي الاعتقاد في ثبوت الهلال علي خير البرق - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
- جواز التأمين علي السلع والبضائع - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط - حرر بالرباط في 22 صفر 1356 هـ.
- مستقبل تجارة المغاربة - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط - فاس 12 رجب 1339 هـ. 24 مارس 1921.
- الاحكام الشرعية في الاوراق المالية - فاس الخزانة العامة بالرباط عدد 115/ج ميكرو فيلم 926

- تعليم البنات لا سفور المرأة - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط . طبع بتونس .
ج / 205

وفي الصفحات التالية سيجد القارئ الكريم القائمة الكاملة لفهرست تأليف الفقيه الحجوي، سواء منها المطبوعة أو التي لازالت في شكل كراسات ومخطوطات حسب ما دونه هو ضمن مؤلفه «مختصر العروة الوثقى» من ص 70 الي ص 78 - مطبعة الثقافة بسلا - 1938 - وقد أضفت إليها ما أمكنتي تحقيقه من بيانات وأرقام استدلالية تفيد الباحث .

مختصر العروة الوثقى فهرست

الامام أبي عبد الله محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري
مدرس العلوم العالية التفسير والحديث والاصول
بالقرويين وغيرها
بارك الله للاسلام
في أنفاسه

1357 هـ - 1938 م

(مطبعة الثقافة - سلا المغرب الاقصى)

توايف هذا العبد الضعيف

جرت العادة بختم الفهرس بها ونحن نراعي جبر خواطر العوائد إذا وافقت الهوى فأقول:

- (1) أول تأليف خطته يمناى سنة 1317 تويلف أدبي لغوي في حل اللغز المشهور «إن هند المليحة الحسنا، وأي من اضمرت لخل وفاء» مع جمع الأفعال المعتلة التي تبقى على حرف واحد والتي لا تبقي منها إلا على حركة دون حرف مع فوائد لغوية وأدبية.
- (2) أول تأليف الفته في الفقه «في اقتداء من كان ببلد الانجليز برؤيا هلال المغرب في رمضان دون هلال مصر» وقد قرظه لي شيوخي سيدي جعفر الكتاني وسيدي احمد ابن الجيلاني وسيدي الحاج محمد كنون سنة 1317.
- (3) صفاء المورد، في عدم القيام عند سماع المولد. أول ما طبع من تواليفي بفاس سنة 1337 وأول كتاب ظهر من نوعه بالمغرب على عهد النهضة الأخيرة عن فكر استقلالي سلفي مستند للكتاب والسنة غير مكترث بأقوال تعتمد على الخيال.
- (4) الحق المبين. وهو نضال عن التاليف المذكور طبع بتونس.
- (5) سوط الافهام والافحام. مثله، طبع بالجزائر.
- (6) مستقبل تجارة المغرب: محاضرة اقتصادية القيت بثانوية فاس وطبعت بتونس.
- (7) تعليم المرأة تعليما عربيا ابتدائيا: مسامرة القيت بالرباط في المؤتمر الادبي وطبعت بتونس.

- (8) النظام فى الاسلام: محاضرة ألقىت فى المؤتمر السادس بالرباط وطبعت به ومحصله أن الإسلام دىن نظام وأدلة ذلك كتابا وسنة وتارىخا.
- (9) الفكر السامى فى تارىخ الفقه الإسلامى أجزاء أربعة طبع الأول بالرباط والثانى والثالث بتونس والرابع بفاس. وأصله: محاضرة ألقىت بفاس فى ربىع الآخر سنة 1336 ثم اكملت كتابا ضخما شرق ذكره وغرب.
- (10) الفتح العربى لافرىقا الشمالية ودفع المثالب عنه: ألقىته محاضرة فى الخلدونية بتونس وطبع بها.
- (11) نقد كتب الدراسة فى إفريقيا الشمالية: محاضرة ألقىتها فى مؤتمر الآداب بتونس وطبع بها.
- (12) تفسير الآيات العشر الأولى من سورة قد أفلح: وهو درس ألقىته على علماء الزيتونة سنة 1336 وطبعه بها وهو أول ما طبع لى خارج المغرب.
- (13) تطور الإنشاء بالمغرب الأقصى: محاضرة أدبية تارىخية ألقىتها فى مؤتمر الآداب بفاس وطبع ملحقا مستقلا «بمجلة المغرب» بالرباط.
- (14) حكم ترجمة القرآن العظيم: طبع بها أيضا.
- (15) التعاضد المتىن، بىن العقل والعلم والدىن: محاضرة ألقىتها بمكناس ونشرتها «السعادة» بالرباط ثم اختصرتها ونشرتها مجلة الزيتونة وتطبع مستقلة بتونس وهو من التوالىف المهمة فى الدين والاجتماع.
- (16) أدلة نجاسة الخمر. نشرته «مجلة المغرب» فالتوالىف المطبوعة أو التى تحت الطبع 14.

والتوالىف التى لم تطبع

- (17) انتحار المغرب بىد ثواره: وهو مذكرات لى تارىخية قىدتها مدة توظىفى بوجدة نائبا عن السلطان فى الحدود تارىخ الثورة الحمارية والحصيرية والرىسونية والحفىظية وما ىتعلق بحدود الجزائر والمغرب وما عاناه المغرب من أهوال وأسباب الاحتلال فى الاختلال وبيان عن أوفاق الحدود سنة 1901 - 1902 وتدقیقات واقعية لا توجد فى غیره عن معاينة ىجب إصلاح ما ىخالفها مع وثائق

رسمية لا تحتتمل الشك .

- (18) نظام القرويين هو أول نظام عرف للقرويين بالمعنى العرفي ألفته بمعونة مجلسها التحسيني لما ترأسته لأول مرة ونظام ذلك المجلس وذلك سنة 1332 .
- (19) تاريخ إفريقيا الشمالية المسمى المناظر الجمالية . نحو اربعة أجزاء ضخام خرج منه جزءان مبيضان إلى الدولة المرينية والباقي مسود .
- (20) مختصرة خرج منه جزء إلى الدولة المذكورة وهو بيد الناس منذ سنة 1340 .
- (21) تفسير سورة الإخلاص في سفر جعلته ختما لدروس التفسير التي كنت ألقيا بالضريح الإدريسي والقرويين وكان الختم سنة 1339 بالضريح المذكور .
- (22) نقد تاريخي على كتاب نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بيد سليم ابن عبد الحميد العثماني .
- (23) الفهرست المسماة العروة الوثقى بمشيخة أهل العلم والتقى مختصرها هذا .
- (24) قصيدة لأمية في تهذيب الناشئة المدرسية . أولها قم يا فتى . وقد أسموها بأولها وهي منتشرة بينهم وقد شرحها بعض الأصحاب بشرح لطيف لا بأس به .
- (25) نقد التعليم الابتدائي بالمغرب : ألقى محاضرة في المؤتمر سنة 1341 للمعهد العالي بالرباط وهي أول محاضرة عربية القيت في الرباط لم يتقدمها سواها .
- (26) برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق . في سفر ضخم في الحكم بين نزاع الوهابيين والأشعرية ، ممتع جدا كاشف للبدع المحدثه ولما لكل واحد من الفريقين بفكر مستقل غير متحيز .
- (27) الفرصة الثمينة في مختصر تاريخ الترك بقسمطينة في أربع كراريس .
- (28) اختصار الابتسام عن دولة المولى عبد الرحمان بن هشام .
- (29) كراسة في تلخيص النزاع في القبض والسدل وتحقيق المناط فيه وثمرته
- (30) الأحكام الشرعية في الأوراق المالية في حكم زكاتها والمعاملة بها وما هو أصلها تاريخا وعمليا وأحكامها الاقتصادية والفقهية وقرظه جماعة من نخبة علماء المغرب وتونس وانتشر ولم يطبع .
- (31) النفس النفيس في ترجمة الوزير ابن ادريس .

- (32) رسالة فى أصل مذهب الروهابىة وحصر موضوع الخلاف بىنهم و بىن غيرهم مختصرة .
- (33) مسامرة الزائر برحلة الجزائر: وهى فى جزأىن لطيفىن ألقىتها بالمدرسة الثانوىة لما كانت بسوىقة ابن صافى بفاس وهى أول مسامرة وقعت بفاس على عهد النهضة الأخرىة فكنت أول من فتح باب المحاضرات بفاس بل بالمغرب .
- (34) الرحلة الاورىة عام 1919 ألقىتها محاضرة أىضا .
- (35) حدىث الأنس عن تونس: ملخص رحلاتى الثلاث لتونس عام 36 و39 و44 وكل من هذه الرحلات مشاهدات وتوارىخ وجغرافىا وأخلاق ومسائل علمىة .
- (36) رسالة فى ثبوت خطبته صلى الله عىه وسلم بعرفة يوم عرفة ردا على من أنكرها .
- (37) الأحادىث الصحىحة و غير الصحىحة التى ورد فىها سهوه صلى الله عىه وسلم فى الصلاة وهو جواب عن سؤال للفقىة سىدى محمد بن على دىنىة قبل أن يؤلف فى المسألة ولكنه لم يستوف الجواب فى مؤلفه .
- (38) الأمالى الحدىثىة وهى بعض ما كان ىجرى من المذكرات والمراجعات بىنى و بىن الشىخ أبى شعىب الدكالى فى المجالس السلطانىة .
- (39) رسالة ضد نسبة الكذب للصحابة رضى الله عنهم وتاوىل ما يوهمه لثبوت الأدلة بخلافه .
- (40) نقد مقالة من ىقول: السلام عىك ىامن العوالم كلها فى طى قبضته
- (41) رد على من زعم أن العار بالمصحف الكرىم إكراه فأباح به المبتوة .
- (42) تصحىح مقالة الوىسى فى رده على عبد الملك التجموعتى القائل إن علمه صلى الله عىه وسلم إحاطى كعلم الله لا فرق إلا بالحدوث والقدم واستندت فى التصحىح إلى أدلة قطعىة من كتاب وسنة وبرهان عقلى وهى من أنفس ما كتبت كحاشىة على الرسالتىن معا .
- (43) رسالة فى الرد على من زعم أن آل البىت لا ىعذبون بذنوبهم وأنهم معصومون .
- (44) أخرى فى الرد علىه حىث قال إن إرادة الله ىجوز تخلفها .

- (45) الخلافة في الاسلام . وهو كتاب واسع في أصل الخلافة ومستندها في الأحكام وتصوير حقيقتها .
- (46) رسالة في أن المسجد المنسوب لعقبة بوجدة ليس هو لعقبة الفاتح .
- (47) القول الفصل في أدلة أقصى الحمل ، ورد من زيف كلام الفقهاء بكلام الأطباء والرد عليه بكلام أطباء آخرين
- (48) دليل إثبات صفات السمع والبصر والكلام لله .
- (49) ما قيل في النعال النبوية التي توجد بفاس .
- (50) رفع الخفا ودفع الجفا عنمن قال ضرب الدف بين يدي المصطفى .
- (51) الخلاف الفقهي في البسملة مبني على اختلاف القراء في قراءتها .
- (52) الطائع أو التائب لا يجوز تعذيبه بالجواز الشرعي وان جوزه العقل .
- (53) جواب هل نبتت الدباء على فم الغار عند الهجرة النبوية .
- (54) جواب من استشكل انشقاق القمر مع قوله تعالى «وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا» وأجوبة عن إشكالات اخرى مدهشة في الموضوع .
- (55) تلخيص السيرة النبوية لم يتم بعد .
- (56) تلخيص المغازي النبوية وتواريخها . تام
- (57) جواز إيلام الحيوان بالذبح مع منع تعذيبه والجواب عن ذلك عقلا ونقلًا .
- (58) الرد على من زعم أن طلاق العوام كله بائن .
- (59) أدلة الدلك عند مالك في الوضوء والغسل .
- (60) اصل الظهار في الجاهلية وهل كان طلاقًا .
- (61) وجه تخصيص الحديد في قوله تعالى «أنزلنا الحديد» والثناء عليه دون ما هو أنفس من الذهب ونحوه .
- (62) المنتخبات الجعفرية من خطب وأشعار ومقالات أدبية تدرّب عليها النشأة المغربية .
- (63) إرشاد الخلق إلى الاعتماد في الهلال على الهاتف والبرق نحو كراستين .

- (64) طبىب الأنفاس فى تأرىخ بناء الأضرحة والزوايا بفاس وهو مختصر من روض الأنفاس العالىة .
- (65) محاضرة فى الآداب الءىنىة والأخلاقىة والاءتماعىة المأخوذة من سورة الحجرات : القىتها فى المدرسة الحرىبة بمكناس محاضرة .
- (66) حاشىة لطفة على الزرقانى وبنانى والرهونى قىءتها عىها عند الطلب وعند إلقاء الءروس الفقهىة كطرر على الكل .
- (67) حواش على صحىح البخارى أىضا مثل ذلك انتقادات على شراحه الحافظ وءیره .
- (68) أءرى على هامش سنن أبى ءاوء السجستانى .
- (69) حواش أءرى على التفسىر كءلك .
- (70) أجوبة أسئلة عالم البءىة الفقىه السىء محمد الرافعى .
- (71) تحقىق انتقاء على فرض اعتقاء نظم ونثر فى مسائل وقعت المءاكرة فىها مع مولانى أءمء بن المامون البلىغىتى رحمه الله .
- (72) ءواب مبىن لمن سأل ما هو القصد من حج المسلمىن .
- (73) مسألة الضمان التءارى المسمى (لاسورانس)
- (74) ءواز الصلاة على ءىر الانبىاء استقلالا .
- (75) ءواز المسح على ءوارب ءىر ءءلء .
- (76) ءواز المسح على الرءلىن مباءرة لضرورة .
- (77) أساس التهذىب الاسلامى وهو كتاب مءرسى أخلاقى .
- (78) أصول التربىة عند المسلمىن .
- (79) الءىن نصىحة وهو كتاب ءامع للسىاسة والاصلاح الاءتماعى قءم للءضرة الملوكىة .
- (80) تأرىخ علم التصوف وقء اءرج ملءصه فى الفكر السامى .
- (81) مختصر تأرىخ النحو والصرف اءرج فىه ملءصه أىضا .

- (82) تعليم الفتيات لاسفور المرأة غير التأليف السابق واوسع منه لم يطبع
- (83) جواب سؤال من القاضي سابقا السيد حجي زبير السلوي لأي شيء اختاروا انشقاق القمر دون الشمس وهي أعظم وأبلغ في المعجزة.
- (84) دلالة المعجزة على صدق الرسول هل هي عقلية أو طبيعية ونفائس أبحاث مذهشة لا تجدها في غيره.
- (85) بحث في جواب السيد احمد بن مبارك اللمطي في المسألة ومراجعات مع زبير المذكور.
- (86) تلخيص كبرنامج لمسائل اشتمل عليها كتاب ابن تيمية موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول والبحث في بعضها.
- (87) معضلات العصر: جواب عن أسئلة ثلاث وردت من الشيخ حافظ ابراهيم ريشطي أحد أعلام شقودرة «ألبانيا» الاول عن لبس البرنيطة اضطرارا، الثاني: قبض مرتب كبير من دولة أجنبية في غير عمل. الثالث مقالات التيجانيين.
- (88) حاشية على بهجة السيوطي شرح الالفية.
- (89) مختصر رحلة ابن عثمان المكناسي لاسبانيا ومالطة المسمى انس السائر في اختصار البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الاسرى من يد العدو الكافر.
- (90) أجوبة شافية عن أسئلة وردت من عالم جدة بل الحجاز محمد حسين ابراهيم حديثه ومرتلة بمذهب الحنابلة في مسألة الصفات الالهية وغيرها في سفر.
- (91) بالاخلاق تسود الأمم: توليف في عدم جواز لعن يزيد بن معاوية.
- (92) المطر من السحاب لا من نفس السماء.
- (93) الرحلة الاندلسية الفيشية.
- (94) أطوار المعارف بالمغرب.
- (95) دفاع الايد عن صفاء المورد.
- (96) مجموع به خطب ومقالات كنت ألقياها في التعليم مما كان من أسباب نهضة المغرب العلمية والأدبية.

- (97) إبطال دعوى بعض أهل فارس من الراضة أنهم عشروا على مصحف على كرم الله وجهه بوجه نقلية وعقلية .
- (98) محاضرات ألقيتها في الأدب سنة 1357 بثانوية الرباط .
- (99) السر المذاع في جواز تلاوة القرآن أمام المذيع وهذا ما أمليته في يوم 15 رمضان 1357 من غير استعانة بأي كتاب .

بيانات إضافية عن بعض تأليف الفقيه الحجوي

الرقم المعطى للتأليف ينطبق على
الرقم الموجود بفهرست
مختصر العروة الوثقى .

- 3 - صفاء المورد - الخزانة العامة بالرباط 112/ح
- 4 - الحق المبين . مطبعة النهضة تونس 1339 هـ .
- 6 - مستقبل تجارة المغرب . مخطوط في الخزانة العامة بالرباط 113 /ح
- 7 - تعليم الفتيات لا سفور المرأة . مخطوط في الخزانة العامة 205/ح
- 8 - النظام في الاسلام : المطبعة الوطنية الرباط 1928 . محاضرة قدمها الي المؤتمر السادس لمعهد الدراسات العليا بالرباط سنة 1346 / 1928 ونشرت ضمن أعمال المؤتمر بالرباط
- 9 - الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي - المكتبة العلمية المدينة المنورة 1977 - والمطبعة الجديدة، د . ت . فاس
- 10 - الفتح العربي لافريقيا الشمالية ورد المثالب عنه طبعة بتونس سنة 1931 . نورد نصها في الملحق .
- 14 - حكم ترجمة القرآن العظيم - مخطوط بالخزانة العامة 115 / ح
- 15 - التعاضد المبين بين العقل والعلم والدين . مخطوط بالخزانة العامة بالرباط . 113 / ح
- 17 - انتحار المغرب بيد ثواره . مخطوط في الخزانة العامة 123 / ح

- 19 - المناظر الجمالية فى تاريخ افريقيا الشمالية . الموجود منه السفر الاول فقط)
اصله أربعة أجزاء) الخزنة العامة بالرباط 110 / ح وميكرو فيلم رقم 921
- 22 - نقد تاريخى على كتاب نسب الى النبى صلح - الخزنة العامة بالرباط 113 / ح
- 23 - مختصر العروة الوثقى . مطبعة الثقافة سلا سنة 1938
- 26 - برهان الحق فى الفرق بين الخالق والخلق . الحكم بين نزاع الوهابية والاشعرية
- مخطوط فى الخزنة العامة بالرباط 114 / ح .
- 28 - اختصار الابتسام عن دولة المولى عبد الرحمان ابن هشام وختصر به كتاب
«الابتسام عن دولة ابن هشام» لادريس الجعايدى (1266 - 1849) ويعرض
الكاتب لاحداث بارزة : احتلال فرنسا للجزائر - حملة نابليون على مصر -
الدعوة الوهابية بالحجاز . . . وقد أضاف له الحجوى بعض التعاليق
والانتقادات . الخزنة العامة بالرباط . 113 / ح . ميكرو فيلم رقم 925
- 30 - «الاحكام الشرعية فى الاوراق المالية» . مخطوط فى الخزنة العامة بالرباط .
115 / ح ميكرو فيلم رقم 926 .
- 63 - ارشاد الخلق الى الاعتماد فى الهلال على الهاتف والبرق . مخطوط فى الخزنة
العامة . 112 / ح
- 73 - مسألة الضمان التجارى المسمى (لا سورانس) . الخزنة العامة 114 / ح
ميكروفيلم 926
- 93 - الرحلة الاندلسية - مخطوط بالخزنة العامة بالرباط 126 / ح

يليه قائمة كتب أو مخطوطات أخرى توجد بالخزنة العامة بالرباط ولم يرد ذكرها
بفهرست العروة الوثقى ويظهر أن أغلبها لاحقة لطبع كتاب مختصر العروى الوثقى ،
وهي :

- 1 - أهم الاخبار عن حرب التأثير والاستعمار- مذكرات عن الحرب العالمية الثانية
وما عاصرها من أحداث داخل المغرب وخارجه ، فى ستة أجزاء مخطوطة
بالخزنة العامة بالرباط - عدد 122 / ح ميكرو فيلم 931

- 2 - «ماله من يقوم بركن دون آخر من أركان الاسلام». مخطوط بالخزانة العامة بالرباط 115 / ح
- 3 - «الرحلة الاوربية» أو رحلة إلى فرنسا وانجلترا - حققها سعيد بنسعيد العلوي ونشرتها كلية الآداب بالرباط سنة 1995 في ملحق الكتاب: «أوروبا في مرآة الرحلة» لسعيد بنسعيد العلوي
- 4 - المحاضرة الرباطية في اصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية - طبعة بتونس .
- 5 - «نقد كتب الدراسة للعلوم العربية في افريقيا الشمالية.» محاضرة القاها بالمؤتمر الرسمي التونسي الادبي في 14 / 12 / 1931 - طبعت بتونس - المطبعة الفنية - نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . - المجلد عدد 15 / 1937 - اوردنا نصها الكامل بالملحق.
- 6 - «العلاقات العلمية بين الزيتونة والقرويين.» مقال منشور في «المجلة الزيتونية» بتونس - المجلد 5 / الجزء 5 / 1944 .
- 7 - «الخبر عن دولة السلطان مولاي عبد العزيز.» وهو يتضمن أيضا أخبارا عن السلطان عبد الحفيظ - الخزانة العامة . 128 / ح
- 8 - تقرير تاريخي عن حال المغرب بعد الحماية - مخطوط في الخزانة العامة بالرباط 254 / ح.
- 9 - «بالاقتصاد حياة البلاد» مخطوط في الخزانة العامة 113 / ح.
- 10 - محاضرة في اصلاح التعليم العربي - مخطوط في الخزانة العامة 115 / ح
- 11 - «المعارف في المغرب» مخطوط في الخزانة العامة 158 / ح.

ويليه ملحقان نورد فيهما النص الكامل لمحاضرتين قيمتين ألقاهما الفقيه الحجوي بالمؤتمر الرسمي التونسي الأدبي سنة 1931، وطبعتا بتونس في مجلد يوجد بحوزتي.

- الملحق 1 - الفتح العربي لإفريقيا الشمالية .
- الملحق 2 - نقد كتب الدراسة للعلوم والعربية .

الملحق رقم 1

محاضرة في موضوع:

الفتح العربي لافريقيا الشمالية ودفع المثالب عنه

ألقاها يوم الأربعاء 12 شعبان 1350 الموافق ل23 دجنبر 1931 بالمدرسة الخلدونية بتونس العاصمة.

وتعرض للأحداث التاريخية والدينية التي عرفتها افريقيا الشمالية قبل الفتح العربي الاسلامي، وما يربط الأمازيغ من روابط متينة بالفاتحين العرب والديانة الاسلامية السمحاء التي اتوا بها لبلاد البربر، مما نتج عنه اندماج منقطع النظير بين العنصرين سيعطي ثماره الحضارية على مر العصور.

البربر أباة ضيم لا يقيمون على ذل، ولا ينالهم من يريد اساءتهم الا بعد اخضاعهم بالقوة العتيدة، فهم كانوا يؤلون التملص من ملكة الروم والتخلص من ظلمهم واستعبادهم، لكن لما جاء العرب داعين إلى الله، ووقفوهم على أسرار ديانتهم وأدابهم الاجتماعية وعلى العدالة الكاملة النزاهة، مالوا إليهم وإلى آدابهم، وأثروا الاندماج فيهم والتمسك بمدنيتهم على طبق ما كانوا يصبون إليه من الاستقلال الكامل.

مقتطف من محاضرة الفتح العربي.

الفتح العربي

لافريقيا الشمالية ودرع المثالب عنه

لفضيلة الاستاذ البارع الهمام والمصلح الكبير الذي انقادت له الافئدة بزمام الفقيه النظار

سنيدي محمد الحجوي

وزير المعارف والمفتخر الجملي لتليدها والطارف القاها محاضرة بالمدرسة الخلدونية بطلب من هيئتها السنوية يوم الاربعاء الثاني عشر من شعبان والثالث والعشرين من ديسمبر ١٣٥٠م فكان لها الوقع بين ذلك الملا والجمع.

وبليها محاضرتها بالمؤتمر الرسمي التونسي الالابي

المفتوح بسادس شعبان عام ١٣٥٠ والرابع عشر من ديسمبر عام ١٩٣١ التي اكبرها القوم وحققت للبصراء ما لحضرة الاستاذ من الفيرة على تقدم المعارف العربية والعلوم وكان الكل السنة ثناء على ما ابداه من الاختيار الحسن كيف لا وهو ابن الحسن

م

(تنبيه) وقع سقوط البطر الفاصل بين القصيدة الثانية والثالثة وطالع الديباجة كافي في ارجاع كل ال ربها حسب ترتيبها الرتبي

طبع بالمطبعة الفنية بنهج الكنيسة عدد ٧٦ ونهج المفتي عدد ١٩ تونس - تليقون ٤٤ - ٤٨

باسم الله الرحمن الرحيم
 وصلى الله على سيدنا ومولانا وعلى آله وصحبه وسلم

بمناسبة زيارة الأستاذ الأكبر مندوب المعارف الإسلامية بالسلطنة الشريفة المغربية سيدي محمد الحجوي لحاضرة تونس بقصد المشاركة في مؤتمر اللغة والآداب والفنون العربية في شعبان سنة 1350 رغب من جانبه هيئة الخلدونية أن يتفضل بمحاضرة علمية في قاعتها فأجاب لذلك تكريماً وعين موعد المحاضرة ليوم الأربعاء 12 شعبان 23 ديسمبر 1931 على الساعة الخامسة تحت رئاسة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام سيدي محمد الطاهر ابن عاشور.

وما وافت الساعة الخامسة من اليوم حتى كانت قاعة الخلدونية الكبرى غاصة بجمع عظيم من العلماء والأدباء وأعيان المتوظفين وسراة الأمة وكانت معابرها وأسطحها مكتظة بالمئين.

ولما دخل القاعة فضيلة الأستاذ الإمام رئيس الحفلة تقدم لاقتباله رئيس الخلدونية وأعضاء مجلس الإدارة وحياه الحضور بالتصفيق الحاد وبعده بلحظة وصل فضيلة المحاضر الجليل في بعض خواص أصدقائه فتقدم لاقتباله فضيلة الأستاذ الإمام ورئيس الخلدونية ومجلس إدارتها وقابل عموم الحاضرين دخوله بتصفيق عظيم وبعده الإستراحة برهة بمكتب مجلس الإدارة خرج صاحباً الفضيلة برفقة رئيس الخلدونية في عاصفة من التصفيق فاعتلوا المنصة وجلس فضيلة الأستاذ الإمام وليمينه فضيلة المحاضر الجليل ولشماله رئيس الخلدونية وأحاط بالمنصة في مقدمة الحاضرين نخبة من وجوه الأقطار الإفريقية الثلاثة فمن المغرب مولانا أبو شعيب الدكالي وزير العدلية سابقاً والمولى الشريف سيدي عبد الحي الكتاني عضو المجمع العلمي العربي والمولى الشريف سيدي عبد الرحمان بن زيدان نقيب الإشراف بمكناسة ومن الجزائر فضيلة مفتي قسنطينة سيدي محمد المولود بن الموهوب والسيد علاوة بن علي الشريف النائب المالي ومن تونس جناب رئيس ديوان مدير المعارف نائباً عن جنابه

وفضيلة الشيخ سىدى عبد الرحمان البنانى المفتى المالكى وجناب ملىر المدرسة الصاىىة وجناب سىدى محمد القلعى رلىس محكمة الاستىناف المىنى وجناب المىعى العمومى لىى محكمة التعقىب ورؤساء اللىوائر العىلىة وكشىر من رؤساء الأقسام الإىارىة ورلىس قىماء الصاىىة

وأعلن فضىلة الأستاذ الإمام افىتاح الحفلة فاعطى الكلمة لرلىس الخلىونىة فوقف باسم معهد ابن خلىون مرىبا بالزائرىن من رجال القطرىن ومرىبا بالعربىة فى أشىاص أصدق من ىمىلونىها ومنوها بالرابطة التى تربط الأقطار الثلاثة بعربى وثىقة عماءها الإسلام والعربىة وذىر الحاضرىن بأن هذه القاعة التارىخىة التى تحظى اللىوم بوقوف المحاضر الهمام قد حظىت قىل بفقىة الإسلام العظىم الشىخ محمد عبده المصلح الكبىر وبشر بنهضة أبناء العربىة وانىشالها مما كادت أن تقع فىه .

ثم وقف فضىلة الأستاذ الإمام وبعىد أن هىأت عاصفة التصفىق الشىةة قدم للمحاضرىن فضىلة المحاضر الجلىل فألقى محاضرتة الفائقة ونصها :

نص المحاضرة القىمة

الحمد لله كما ىنبغى لجلاله وكماه . والصلاة والسلام على النبى العربى وأصحابه وآله . وسائر إىوانه النبىن والتابعىن بإحسان إلى يوم اللىن .

أما بعىد سادتى أىوانى أىىى مجمعكم المبارك هذا باسم العلم وأهله وأشكر فضل من نقل القىم والله بوقفنا جمىعا للائىلاف وترك الخلاف .

سىدى رلىس الخلىونىة إننى عنىما وصلتنى دعوتكم لهذا الجمع وأنا فى الرباط أخذتنى حالة إعجاب وتأثر وسرور ذلك أنى فى زمن شىبىتى ونعموة أظافرى كنت رفعت طلبا لسلفكم السىة البشىر صفر رحمة الله أن يقبلنى تلمىذا فى هذه المدرسة عنىد تأسىسها فحالت دون تلك الأمانى ما كان ىحول بىن تواصل القطرىن الشقىقىن ولما أن قرأت كتابكم علمت أن عزىمة الإنسان لا بىد لها من نفوذ ولو بعىد حىن فىها أنا الآن اعىبر نفسى من تلامىذها ولست أقوم هنا لا تكلم على دفع المىالاب عن الفىتح الإسلامى لإفرىقىة بقصد أن أفىىكم بل كىلمىذ ءىل فى الامىحان يعرض أطروحته على أنظاركم فان وافقتم فذلك وان أرشىدمونى لاصلاح أغلاطى كنت لكم شاكرًا .

وأعتذر لمن طلبوا مني إلقاء درس بالزيتونة تذكارا لعهد سنة 1336 - إذ كنت ألقيت هناك درسا في افتتاح سورة قد أفلح المؤمنون وكان أول صلة علمية بين القطرين بعد خمودها السنين الطوال - بضيق الوقت الذي لم أجد فيه فلتة وإني اعد الخلدونية بنت الزيتونة وأرجو لهما تمام التعاضد على تنوير الأفكار بهذه الديار .

الفتح العربي لإفريقيا الشمالية

- ودفع المثالب عنه -

ان ابتداء الفتح العربي لإفريقيا الشمالية كان سنة 22 هجرية الموافقة لسنة 243 مسيحية لما غزا عمرو ابن العاص برقة وهي انطابلس ثم طرابلس (وهو إذ ذاك وال بمصر من قبل عمر ابن الخطاب) فهو أول رئيس جيش عربي دخل أرض إفريقيا على عهد الإسلام ثم توالى الجيوش على عهد عثمان ابن عفان مدة ولاية واليه على مصر عبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح ثم علي عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أرسل لها معاوية بن حديج السكوني ثم بعده أرسل عقبة بن نافع الفهري الذي بلغ سنة ستين إلى أقصى المغرب الأقصى والصحراء والسودان وتبع ذلك محله التواريخ ثم ثاروا عليه وقتلوه وقد اشتعلت إفريقيا نار حرب إلى أن جاء حسان بن النعمان الذي أخمدها ومهدا ونظم الجيش بالنظام الإسلامي المشرقي وجعل الأسطول وحسم مادة دسائس الروم الشرقية وادخل الأنظمة الشرقية للديار الإفريقية .

هنا قد يسأل السائل (1) عن سبب غزوهم لإفريقيا (2) وما هي المدنية التي ادخلوها إليها (3) وعن سبب بطيء امتدادهم فيها (4) وعن سبب الثورات التي قامت ضدهم (5) وعن سبب الاختلاف بين رؤساء العرب أنفسهم الذي كان يتسبب عنه بعض الفتن ثم يتساءل سؤالا آخر وهو ماذا عمل العرب في إفريقيا هل أصلحوا أم أفسدوا وهل عمرو أم خربوا وهل كان نظرهم قاصرا على نشر الدين أم لا وهل نشره بالسيف أو الدعاية والبرهان وهل كان عملهم كعمل من قبلهم من الروم والوندال والرومان والقرطاج الذي هو استنزاف المال أو أفضل أو أردل وما هي الفروق بين عملهم وعمل من قبلهم .

وهذه الأسئلة كلها سنورد أجوبتها مع ما يؤيدها من برهان أو خطابة فنقول :

★ سبب غزو العرب لإفريقيا ★

إن العرب بعد ما عزوا مصر ومهدوها وغرسوا فيها مدنيتهم العربية الجديدة تاقت نفسهم لامتداد سلطانهم على إفريقيا الشمالية (وكل منهما كانت تحت النفوذ الرومى فكما انتزعوا رأية الروم من مصر وركزوا رأيتهم الإسلامية كذلك أرادوا أن يفعلوا فى إفريقيا وقد نجحوا) فاستأذن عمرو بن العاص عمر بن الخطاب فى غزوها وبعد تمنع عمر ومراجعة عمرو بن العاص له اذنه وكانت إفريقيا متأججة نارا بسبب الفتن كما نبينه فجاء العرب لنشر الأمن والراحة منتهزين الفرصة السانحة . ولم يكن قصدهم إبدال نفوذ بنفوذ أو ضعف بقوة بل إبدال فتنة وظلم وقساوة وفوضى وفساد أخلاق بهناء وسلام ونظام وعدل ومكارم دين وأخلاق ورفق وإنسانية ورحمة . كانت إفريقيا متأججة نارا بالفتن . أولا بين الروم المفترقين ولايتين ولاية بقرطاجة وولاية بسببيلة وكل يحارب الآخر والإفريقيون تزهق أرواحهم ضحية الفريقتين الأجنبيين عنهم والبربر أيضا يثارون على الروم لكثرة المظالم واستنزاف الأموال بدون حد ولا نهاية وكل قبيلة تفترس الأخرى من البربر والنظام مفقود لعدم السلطة الوازعة وخراب معاهد العدل وعمران البلاد كل يوم يزيد خرابا فلا حد يقام ولا حق يسان على أن نفوذ الروم الشرقية لم يصل فى عنفوانه إلا للمملكة التونسية وبعض الشواطئ الجزائرية والمغربية ولم يصل لدواخلهما ولم يلتفتوا لتهديب أو تعليم .

ما هي مدينة العرب التى ادخلوها لإفريقيا؟

إن مدينة العرب هي دينية روحية أدبية أخلاقية اجتماعية عمرانية ذلك أن العرب لما جاءهم الإسلام هذبهم وهذب أخلاقهم بما هو معروف لكل أحد فإن القرآن العظيم جاء متمما لمكارم الأخلاق التى جاءت بها الكتب المقدسة قبله وجاء بالعدل والمساواة فى الحقوق وكانت مفقودة من الأرض تقريبا فسوى بين جميع أجناس الأرض فى العدالة كيفما كانوا وعلى أى لون خلقوا وبأى دين تمذهبوا ودليل هذا القرآن والسنة ففي القرآن العظيم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى السنة النبوية الصحيحة قال عليه السلام كلكم من آدم وآدم من تراب . وخطب عليه السلام عام حجة الوداع فقال أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام الحديث إلى غير ذلك مما هو معروف لكل أحد وجاء بصلة الأرحام والنهي عن ارتكاب الفواحش والآثام وحفظ

النسل وتكوين العائلة المتينة لتتكون منها الأمة فجاء بنظام العائلة وهو النكاح وحرمة السفاح وجاء باحترام حقوق الناس الشخصية وبالملكية الشخصية أيضا ولكن لم يجعل سلطة شخصية لمخلوق على الآخر ولا يحتاج من يريد أداء عبادته نحو ربه إلى رخصة ولا وسيطة من أحد بل يقابل ربه منه إليه متى شاء وفي أي مكان شاء وجاء بأداب الاجتماع والألفة ومواساة اليتيم والضعيف ولو كان أعدى عدو والوفاء بالعهد وبالشفقة والرحمة بالإنسان فهو الذي عرف حقوق الإنسانية وأنقذها مما كانت متألمة به من الرزايا بل جاء بالرفق بالحيوان الأعجم قال عليه السلام دخلت امرأة النار في هرة أمسكتها فلا هي أطعمتها وسقتها ولا هي أهملتها تأكل من خشاش الأرض وقال عبرت امرأة بغيا وجدت كلبا يلهث فسقته فشكر الله لها وغفر لها الحديث وقال في كل ذي كبد رطب صدقة .

وجاء بأنواع الآداب التي تضمنها فصاحة القرآن والسنة ولا حاجة إلى الزيادة على هذا القدر إذ هي معلومة مدروسة ومكارم الدين الإسلامي كثيرة لا يمكن استيفاؤها هنا .

فالعرب بعدما مضى لهم من البداوة والتفرق قبل الإسلام لما تمسكوا بمبادئه وتخلقوا بأخلاقه بسبب تهذيب الرسول عليه السلام لهم حصل لهم ثقة بأنفسهم وإيمان بشريعتهم وأخلاقهم وثقة بوعد الرسول لهم أن يمتد سلطانهم مهما تمسكوا بمبادئهم هذه وبلغوها لغيرهم فقاموا قومة رجل واحد وانحدروا على سائر الأمم انحدار السيل لا يرده شيء دون بلوغ نهاية فانتشروا في الشرق والغرب يبلغون تلك المبادئ العالية للأمم التي كانت أشوق ما يكون إليها حيث وجدوا الأمتين العظيمتين (الفرس والروم) اللتين كانتا قد بلغتا شأوا عظيما في المدنية المادية والقوة السلطانية واقتسما ممالك الكرة الأرضية بينهما تقريبا قد اشرفنا على السقوط بسبب فقد العدالة والمساواة في الحقوق وسفالة الأخلاق فاسقطهما العرب وبنوا على أنقاضهما مجدهم الطارف وصار العرب يتتبعون رأيهم أينما وصلت انتزعوها وركزوا موضعها الرؤية العربية الاسلامية التي هي رؤية الوحدة الادبية والدينية ليست متعصبة لجنسية بل هي رؤية العدل والاحسان والمكارم التي جاء بها القرآن فكل من دخل تلك الجامعة وتمسك بالوحدة الادبية الدينية فهي رأيتة لا تمنع جنسا من الناس دون جنس كما تقدم في حديث (كلكم من آدم) بل الاسلام ينكر التعصب الجنسي قال عليه السلام

(اسمع واطع ولو أمر عليك عبد حبشى الحديث) بل كل من دخل تحت نظامهم وبقي متمسكا بدينه وادى جزية في مقابلة ذلك فله ما لهم من العدل وعليه ما عليهم

جاء العرب افريقيا ويدهم القرآن الذى من أول مبادئه هذه الآية الكريمة (ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فوجد الأفريقيين متعطين لدين يكون مبدأه الذى يدور عليه محوره هو هذا المبدأ القويم .

فلما ظهرت طلائع العرب ودعاة القرآن والشرع الاسلامى بالحدود الافريقية استبشر البربر بضالتههم المنشودة وصاروا يتركون صفوف الروم وينضمون لصفوف العرب ويقبلون الدخول فى الدين الاسلامى أفواجا من غير كبير عناء ولا سيف بل بالدعاية والبرهان والاقناع .

وغير خفى أن العرب الذين أتوا فاتحين لم يكونوا ذو عدد كاف حتى يقدروا وحدهم على اخضاع أمة البربر الكثيرة العدد الممتدة من شواطئ البحر الابيض المتوسط بحدود مصر الى شواطئ المحيط الغربى وحدود السودان ويجبروها على ابدال ما الفته من الدين هذه أمة عظيمة وقوية وحربية بطبيعتها مع مناعة جبالها التى هي حصون طبيعية فلو قاومت أقل مقاومة ما أمكن للعرب تدويخها فى ميتين من السنين بل لا مطمع لهم فى ذلك فضلا عن مدة السبعين سنة التى تم فيها الفتح أو أقل ولكن أمة البربر لما بلغ لها حكماء العرب وعلمائهم حقيقة الدين والادب الذى يدعو اليه والنظام العربى فى ملكتهم وجدوهم اشوق شىء لنظام يكفل حياتهم ويرقيها والى دين بعيد عن الخرافات والوثنية التى هي مستشظة ورذيلة فى نظر كل انسان له أدنى ميز لذلك أقبلوا على مبادئ العرب واعتنقوها وعمروا صفوفهم وأعانوهم على الفتح والتقدم فى البلاد .

يدلك على قلة عدد العرب الفاتحين ما قاله المؤرخون أن أكبر جيش دخل افريقية هو الذى وجهه عبد الملك بن مروان مع حسان بن النعمان لأخذ ثار عقبة بن نافع وقد بالغ بعض المؤرخين فقال أنه أربعين ألفا والأقرب ما قاله صاحب رياض النفوس أنه ستة آلاف نفس لما لا يخفى من بعد المسافة وعدم تسهيلات النقلة وأيضا ان الجيش الذى فتح به عمرو بن العاص هو مأخوذ من جيش مصر ولم يثبت أن عمر بن الخطاب أمده بجيش عظيم لفتح افريقية وأن فتح عمرو بن العاص لمصر كان أولا بثلاثة آلاف مقاتل على ما هو التحقيق فهذا ما يدل على قلة الجيش العربى

الذي فتح افريقية من حيث العدد أما من حيث الإعتقاد والقوة الإيمانية والآداب الإخلاقية فقل أنه من أعظم الجيوش ولا اشكال .

أضف إلى هذا أن العرب في آدابهم وأخلاقهم ومعيشتهم البسيطة أقرب الأجناس إلى البربر مع قرب الجنسية والتشابه في أكثر العادات المعيشية متباعدين بطبعهم عن المفضخة الرومية والبذخ البيزنطي وكل ما هو من حيز التكلف ولنصف إلى هذا قرب اللغة أيضا البربر كلها تقدم فيهم استعمار الفينيقيين الذين هم اخوة العرب وكانت لغتهم قريبة جدا من العربية أو هي هي فاختلطت لغتهم بلغة البربر ولذلك تجد لغة البربر ممزوجة بمفردات وتراكيب من لغة العرب وليس هو شيء حدث بعد الفتح الإسلامي كما يظن كثيرون بل هو من عهد الفينيقيين فيما أظن لان اللغة البربرية أقدم من الفتح الإسلامي بلا شك .

وإذا جردت من العربية لم تبق كافية لقدر الضرورة في الافهام وأيضا يمكن أن يقال امتزجت اللغة من عهد اقبال اليمن الذي منهم افريقش اليمني الذي فتح افريقيا قبل الفينيقيين وترك فيها جيشه وهم كتامة وصنهاجة على قول الكلبي وغيره من مؤرخي العرب فلما جاء الفتح الإسلامي وجد هذه التمهيدات أمامه كلها فسهلت امتزاج العرب بالبربر واندماج كل أمة في أخرى وسهل التفاهم بين الأمتين وعدم دخول وسطاء التراجمة بينهما ومن أولئك الوسطاء تأتي بليه قلب كل حقيقة وتنافر الجنسية واللغة والدين هي الفوارق العظيمة التي تبعد ما بين الأمم ولا يمكن ادغامها ولا ابدالها بحال من الأحوال .

ومما سهل الفتح العربي وامتزاج الأمتين دعاية العرب إلى دين مقبول لكل عاقل متجرد عن كل كلفة وقبوله بالدعاية والبرهان لا بالسيف ولا بالعنف .

وان مكارمه ما كانت تغطي على اذن بربري حتى سمعها من فم العرب الذين جاءوه لنشر السلام مع تشريكه في السلطة وعدم الإستبداد عليه فإن النبي عليه السلام كان يولي على قوم أشرفهم ويقبل من المحسن احسانه ويجازيه عليه ويغض عن المسيء وهكذا أمراؤه بعده .

فهذه الأصول الذي اسس عليها الإسلام وقواعده الاجتماعية اذا تأملها الإنسان انكشف له سر سرعة دخول النفوذ العربي لافريقيا وسرعة السياحة فيها وسرعة ذهاب دولة الروم وعدم احتياج العرب للاتيان بجيوش عظيمة تعد بعشرات الآلاف ولا لنفقة

باهظة على بعد شقة العرب وشاسع المهامد التى تقطع ما بين المدينة المنورة وأفريقية آلاف الكيلومتر وهكذا بين دمشق وأفريقيا ثم بين بغداد وأفريقيا.

كل هذا سهله لىن جانب السلطان العربى والقرب الجنىسى والقرب اللغوى والدعاية الدينية البرهانية. نعم كانت هناك لا محالة دسايس من جانب الروم ضد العرب تعمل عملها فى البربر فكان هناك زعماء تعمل فىه الدسايس والتنافس والرشاء والوعود بنوال الاستقلال فكانوا يرتدون عن الدين أو يتظاهرون بالعصيان مثل ميسرة الخفير المضغرى وعكاشة بن أيوب الفزارى وغيرهما بل منهم من ادعى النبوة عنادا على دين الإسلام وتحديا له مثل صالح بن طريف البرغواطى المصامدى، ومنهم من كان يتأثر من ظلم بعض ولاة العرب له وهم ليسوا بمعصومين من الظلم أو الغلط كما وقع من كسيلة وغيره ولذلك وقعت ردتهم اثنتى عشرة مرة كما قال الشيخ ابن أبى زيد القيروانى وليس المراد ردة الشعب جميعه وإنما هى ردة بعض الزعماء الذين عملت فىهم الدسايس كما سبق ويتبعهم الجمهور فيتغلب خزبهم على من بقى متمسكا بالدين فإذا جاء المدد من الشرق وتقوى حزب المتمسكين بالدين تغلب على الحزب الآخر فيرجع الكل للدين لأن الإسلام لا يجبر أحدا على الدخول فىه أصلا وإنما يخيره بين دفع الجزية أو الدخول فى الدين أو الحرب نعم من ارتد بعد اسلامه لا يقبل منه إلا الرجوع للدين أو القتال كما قال تعالى (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر) فإذا رأيت فى التواريخ أن واليا قاتل بنى فلان حتى اسلموا فليس معناه أنه أجبرهم على مفارقة دينهم من أول مرة فهذا لم يكن فى الإسلام إلا مع كفار قريش لما كان صدر منهم مع المسلمين من الاجبار على الردة أو مفارقة الوطن فقولوا بالمثل اما غيرهم من لدن ان كان الاسلام فلا اكراه فى الدين إلا على هذه الصفة التى اسلفنا.

ولو كان المسلمون يجبرون غيرهم على مفارقة الدين من اول الأمر ولا يقبلون فى مملكتهم غير الاسلام ما رأينا اليهود متمتعين بالحرية الدينية فى جميع ممالك الاسلام وبالأخص فى افريقيا بل لهم فيها شبه الاستقلال الداخلى إذ كل مدينة لها اعتبار من حيث الغنى والمال إلا وتجد بجانبها مدينة صغرى تسمى ملاح اليهود لكبرائهم فيها نفوذ اشبه بالاستقلال وهم محتفظون فيها باللسان العبرانى والدين اليهودى والعوائد القومية الاسرائيلية بل كم من مدينة تجد أغلبها يهودا كمدينة دبدو

في الجنوب الشرقي من تازة وتجد اليهود مختلطين في قبائل نائية في رؤوس الجبال ومداشرهم مثل أهالي افريقية لهم عوائدهم وديانتهم لا يمسه أحد بسوء وذلك برهان ساطع على أن العرب لم يمسا الديانات بسوء مسالمون لليهودية والنصرانية إلا من ناهضهم بالسيف ورام انتزاع السلطة منهم فعند ذلك تجدهم أصحاب الدفاع المجيد لأنهم أباة الضيم لا تلين فقاتهم إلا لمن غالبتهم فغلبتهم بقوة ساحقة وذلك كله يوضح لنا أن العرب لم يجدوا في افريقيا تدينا متينا للنصرانية ولا بيعا ولا كنائس اللهم إذا كان ذلك في المدن التي كانت للروم كقرطاجنة وسبيطة وغيرهما من المدن التي أجلوا عنها الروم ويانجلاء الروم لم يبق من يتعبد فيها فذهبت واندثرت أو هدمت في جملة ما هدم من معالم الروم قطعاً لامل الناس من عود دولتهم.

فهذه الحقايق التي لا نشك فيها ولا يرتاب فيها منصف خلاف ما يشيعه اضداد الاسلام عنه في تواريخهم وفي كتب الخرافات وغيرها من أن الاسلام وجد البربر متدينين بالنصرانية فاكرههم على الإسلام وهدم بيع النصرانية وكنائسها ولم يبق لها أثر وهذا كلام لا حقيقة له ولا ينطبق لا على الحقيقة والواقع ولا على قانون الاسلام في فتوحاته أما قانون الاسلام الذي هو في القرآن وفي السنة فقد بيناه فيما سبق وأنه (لا إكراه في الدين) وأن امراء المسلمين ممنوعون شرعا من أن يبدوا أمة بالقتال إلا بعد أن يخيروها في أمور ثلاثة ثم بعد ما تختار الحرب ويغلبونها فانهم لا يجبرون على ابدال الدين وإنما يخيرونها بين الجزية والاسلام.

واما الواقع الذي لاشك فيه فهو أن الاسلام لم يجد عند البربر ديناً وما كانت همة الروم متوجهة لنشر دين أو ثقافة أو تهذيب وإنما كانت همتهم في جمع الدرهم والدينار أينما ظهر وكيفما أمكن الوصول إليه تاركين البربر في همجتهم نعم الرومان قبل الروم كانوا ينشرون النصرانية بالسيف ويلزموا بها البربر كرها كما ألزموا بها أمتهم الرومانية حسبما صرح به مؤرخوهم لكن الدين الذي ينشر بالسيف والإكراه كله لا ثبات له ولا يحل من القلب في المحل اللايق به بل يكون ديناً سياسياً ظاهرياً وهو ما نسميه نفاقاً وباقل شيء يذهب بل مهما وجد الإنسان حريته خلع عنه ريقته والإسلام أبشع شيء في نظره هو النفاق ولا يحذر شيئاً أكثر من المنافقين وليس العرب هم الذين أعطوا الحرية للبربر في خلع دين النصرانية بل خلعوه قبل العرب بقرون وذلك على عهد الوندال فان أمة الوندال كانت غير متدينة بل كانت ضد دين النصرانية فلما

تمكنت من أرض إفريقيا طردت الرومان عنها وألزمت البربر نبذ النصرانية فنبذوها مسرورين حيث كانوا مكرهين وقد قتل الوندال رهينة النصرانية وشردهم وهدموا الكنائس ولاشوا دين النصرانية وعفوا آثاره من إفريقيا ولما جاء الروم بعدهم ووجدوا إفريقيا نابذة للدين ولم يكن لهم هم في ذلك ولم يعم نفوذهم تركوا ما كان على ما كان.

أما لو أسس الروم نصرانية ثانية على دعائم ثابتة وعن اختيار ودعاية وبرهان لما اضمحلت ولا ذهبت ولو فرضنا أن العرب أرادوا هدمها ما استطاعوا ولا أمكنهم إجبار البربر على الإسلام وترك النصرانية إذ كل دين يكون جبوا فهو سريع الزوال ووجود اليهودية آمنة مطمئنة في جميع نواحي إفريقيا دليل صحة نظريتنا وإلا فلا يمكن الإبقاء على اليهودية وتعفية النصرانية التي هي أقوى منها وأشد. من الذي يقدر أن يتصور إبقاء النصرانية بالشام وفي جبل لبنان بلصق عاصمة الخلافة وتعفيتها من إفريقيا وكيف يمكن محو هذه الديانة القوية الجانبة والشديدة الأزر من مملكة عظمى ممتدة من مصر إلى السوس إلى أقصى السودان كل ذلك مما لا أشك في بطلانه وليس هو بمعقول وإنما هو من خرافات أصحاب المبالغات.

قد قص التاريخ علينا أن كسيلة البربري لما أساء إليه عقبة الفاتح وكلفه سلخ شاة ثار ثورة مهولة وثار معه مئات الألوف فقتلوا عقبة وطردها العرب إلى حدود مصر وخرّبوا القيروان. أفتصور أحد مع هذا أن يجبروهم إبدال اعز شيء عند الإنسان وهو العقيدة. كلا ثم كلا. نعم نقل بعضهم أن عبد المؤمن بن علي الموحدي لما استنقذ السواحل الأفريقية من يد النرمان الزم من وجده على النصرانية هناك بالإسلام ووجد الدين فذلك أبعاد لدسايس النرمان الذين وجدوا أقوى ظهير منهم وقد جعل مثله علي بن يوسف اللمتوني في الأندلس لما ظهر من نصاراها من الخيانة الكبرى عند حملة الفونس على الأندلس وفساده فيها والعذر لهما واضح فيما فعلا شرعا وقانونا والكل لا يحمل على العرب بل الدولتان بربريتان فلا ملام على العرب.

وعلى الإجمال فالبربر بطبعهم ميالون الى الاستقلال وهم أباة ضيم لا يقيمون على ذل ولا ينالهم من يريد إساءتهم إلا بعد إخضاعهم بالقوة العتيدة فهم كانوا يؤلون التملص من ملكة الروم والتخلص من ظلمهم واستعبادهم لكن لما جاء العرب داعين الى الله وواقفهم على أسرار دياتهم وآدابهم الاجتماعية وعلى العدالة الكاملة النزاهة

مالو اليهم والى آدابهم واثروا الاندماج فيهم والتمسك بمدنيتهم على طبق ما كانوا يصبون اليه من الاستقلال الكامل وحيث كانوا خالين من الديانة التي تهذبهم وبعضهم كانوا عبدة أو ثان على دين أجدادهم الأولين نبذوا ذلك وبعد ما نبذوا ديانتهم القديمة والخرافات التي ملات ادمغتهم الخالية من كل فضيلة تمذهبوا بدين الاسلام الذي وجدوا فيه احسن نظام اجتماعي يكفل لهم فضيلة وحياء منتظمة فاعتنقوه مسرورين بل صاروا من حماته واشد المدافعين عنه والناشرين له كالعرب او اكثر فتيين ان الاسلام لم يجد في افريقية دينا يعتبر عند البربر ولم يجدهم الا وحوشا ضواري لا تهذيب ولا نظام ولا فضيلة في حياة بهيمية ولم يجدهم نصارى اصلا وانما وجد بينهم بعض سراذم من بني اسرائيل الذين شردهم بختنصر والرومان من بيت المقدس فاقهرهم على ديانتهم بشرط الجزية كما فعل مع كل كتابي كما سبق فكان هم العرب منصرفا كله لتهذيب البربر وتعليمهم ونشر مبادئ الدين الإسلامي بينهم بالإقناع لا بالاقذاع فاقبلوا على الدين ودخلوه افواجا وقبلوه عن طيب خاطر .

فالعرب هم الذين يحق لهم ان يفتخروا بفضلهم على البربر حيث صرفوا همتهم لتهذيبهم وتكميلهم وإدخالهم في حضيرة الإنسانية وهم الذين ذوقوهم حلاوة الدين وطعم العدالة وأصول الاجتماع الإنساني ولم يكن هم العرب في تنف ريش الدرهم والدينار كما كان من قبلهم وابقاء البربر كافراخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر لأنهم في نظامهم المالي لا يأخذون إلا الجزية ممن تمسك بدينه وهي شيء يسير يؤديه كل بالغ قادر على الكسب مرة في السنة أعني نحو عشر فرنكات تقريبا وهو أقل مما يؤديه المسلم المتوسط الغني في السنة في الزكوات في مقابلة ما يطلب به المسلم من التجنيد والزكوات والأعشار لثلا يتداخلوا مع الذمي في شخصيته ولا في تجارته وأرباحه مهما كانت فكان الذميون أسعد حالا مع العرب من كل دولة تقدمتهم فمن كان مسلما لا يحل أن يؤخذ منه إلا الزكاة التي هي اثنان ونصف في المائة من راس مال التجارة أو عشر الحبوب في الفلاحة أو ما يقرب من ذلك في المواشي ولا يؤخذ من المسلم غير هذا إلا خراج الأرض بمعنى أنه ان كان بيده أرض اخذت عنوة في الحرب يؤديه كل سنة أيضا على قدر ما تحمله الأرض وهو ليس بمحجف بها نعم إذا الجأت ضرورة حربية بحيث فاجأهم عدو ولم تفي مالية الدولة بمصاريف الحرب فإنه يفرض شيء على المسلمين ايضا يسمى معونة بقدر الضرورة لا يحجف بهم فهذا ما

كان عليه نظام الإسلام وهو من الأسرار العظمى في تقدم مملكتهم وسعة أراضيهم وممالكهم وهو النظام الذي جمع بين ليونته وتهذيب الأمم بمزايا الدين مع احتياج البربر إليه هو الذي مهد لهم آسيا وإفريقيا وملكها لهم في مدة وجيزة وهي مدة جيل أو جيلين وما جاء الجيل الثالث وهم يطؤون أوروبا من غربها وشرقها بأقدامهم مصليين سيوفهم .

لم يكن همّ العرب في التسلط على غيرهم من الأمم والتحكم فيهم بظلم وعتو كما كان من قبلهم بل كانوا ينشرون العدل بغاية النزاهة أعني أغلب حكاهم ولا غرابة أن يقع من نزر منهم خلاف ذلك وكان همهم نشر الأمن والسكينة وقطع جرثومة الفساد وتأمين السبل والمتاجر وما أنت ترى تخفيفهم على التاجر حتى في الزكاة جعلوها ربع ما يجب على الفلاح تقريبا وكان همهم نشر الدين على نسق قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فخدموا بذلك الإنسانية المتألّمة وأزالوا آلامها وأسقامها وهذبوا الأمم المحتاجة للتهذيب فكان الإفريقيون أسعد حالا مع المسلمين من كل دولة تقدمتهم كالروم والرومان وغيرهم الذين كانوا ينتزعون الأرض انتزاعا من أهلها سواء أخذوهم عنوة أو بأمان ويوزعونها على عساكرهم وبني جلدتهم من الروم والرومان لتمكين قدمهم من الأرض ويطردون أهلها عنها إلى الفيافي فمن ذلك الحين عمرت الصحراء واقفرت إفريقيا من أهلها فلما جاء الإسلام أزال ذلك كله فاطمأن الناس في أرضهم آمنين إلا من حارب وأفسد الأمن فإنه إذا أخذ عنوة ضرب على أرضه الخراج الذي لا يجحف به هكذا فعل عمر وأبطل مادة انتزاع الأرض من العنوين فعمرت البلاد بهذه التسهيلات فالإسلام بنظامه العجيب اللين هو الذي عمر إفريقيا وحسن حالة أهلها كما كانت عليه قبل وهذب أهلها وعلمهم وأرشدهم إلى طريق الحياة الهنية .

ولما جاء حسان بن النعمان وقضى على دولة الروم بتخريب قرطاجنة التي كانت موردتهم من البحر ومنيع دسائسهم ضد العرب والتي كانت مصدر التهيج للبربر ضد الإسلام تيقن صدق ولاء البربر نحوه ونظم جيش الإسلام على نسق نظام الشرق ادخل البربر فيه ومنحهم الولايات فقد ولى ولدي الكاهنة داهيا التي حاربت وحاربت من قبله من الولاة وقتلت عددا عظيما من العرب على جيش بربري يبلغ اتنى عشر ألف كل واحد منهم على ستة آلاف وصار يولي البربر الولايات ويقطعهم الإقطاعات

ولم يبخصهم حقهم وإن كانوا هم الثائرين عليه بالأمس قال في معالم الإيمان (فمن زمن حسان بن النعمان الذي أدخل البربر للجيش صارت الخطط في افريقيا للبربر فكان يقسم ا لفي والأراضي بينهم فحسنت طاعتهم هـ . ج 1 ص 61) وهكذا لما جاء موسى بن نصير بعده سنة 87 نظم منهم جيشا عتيدا وفتح به الأندلس تحت راية مولاه طارق بن زياد البربري ولما فتح الأندلس أقطعهم الإقطاعات وولاهم الولايات ولم يبخصهم حقهم فكثرت ثروتهم وصلحت أحوالهم ونمى عددهم فبسبب هذا كله اندمج البربر في الجنسية العربية وصار كبرائهم وملوكهم يأفنون أن ينتسبوا للبربرية بل ينتسبون للعروبة فإننا نرى صنهاجة وهم شعب عظيم منهم ودولة عظمى يأنف ملوكهم أن ينتسبوا بربرا ويزعمون أنهم عرب من نسل جيش افريقش اليميني كما تقدمت قصته وهكذا كتامة ينتسبون عربا يمنية وهكذا فعل زناة الذين هم الفرقة العظمى المنافسة لصنهاجة انتسبوا عربا يمنية أيضا ومنهم من ينتسب لمضر كبنى زيان الدولة التي كانت بتلمسان معاصرة لبني مرين وهكذا ادعى اخوانهم بنوا مرين أنهم عرب وكل هؤلاء الدول كانت بربرية الجنس عربية اللسان والآداب لا سلطة للعرب عليها سوى امتزاج أفراد من العرب بها من موظفين وجنود وغيره ومع وجود دواعي الأنفة من النسبة للعروبة لوجود الملك والدولة في البربر واستقلالهم به الاستقلال التام كانوا على خلاف ذلك ينتسبون للعروبة ما ذاك إلا لأن العرب أحسنوا لهم ولآبائهم وكانوا ذوي نفوس عظمى ومبادئ شريفة وكان فضلهم على هذه القارة واهلها عظيما بل كان أهل افريقيا ينظرون العربي فوق البشر ومنقذ البشر ولا يستحق ان ينسب الفضل لسواه وكانوا في عيون البربر نزهاء ونورا يستضاء بهم لم يتصور عاقل أن تعمد دولة عظمى مثل من تقدم فتترك نسبتها البربرية وتتجنس الجنسية العربية ولو كان للعرب أفعال ذنية وأعمال عدوانية لعدوا الإنتساب إليهم نقيصة وعارا ولو بلغوا من القوة ما بلغوا فما سمعنا قط بقبيلة في المغرب تنتسب رومانية أو فندالية أو رومية بل ولا فنيقية مع أنهم من جنسيتهم ولسانهم فيما نظن هذا برهان كاف على ما هو العربي في مخيلة البربر حتى أن ملوكهم العظام يمتون للعربي بالنسب وهو مقهور تحت سلطانهم لعمري أن هذا لكاف في فخر العرب واعتراف بحسن ملكتهم وسياستهم ذات المرونة وما خلدوه من الآثار الجميلة في النفوس والود في قلوب البربر .

والذي أضاع التنصيص على أعيان المآثر والمفاخر وعلى تدقيقات كيفية إدارتهم

لدولاب البلاد هو عدم اعتناء أهل هذه الديار بتدوين التاريخ أو دون فضاء في الحروب والخطوب ولكنه لم يضع على وجه الإجمال وبقيت آثاره تدل عليه وليس بعد العيان بيان .

العرب البدو

الداخلون في المائة الخامسة لهذه الديار الإفريقية

إن ماقرنانه من الفضل والفخر هو للعرب الأولين الفاتحين المهذبين للبربر الذين جاءوا تحت راية عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وزهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير وغيرهم من الأمراء فقد كانوا سادة متحضرين علماء وذوي بيوت عالية وقد كان فيهم بن عباس وأخوه وابن عمرو بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار والحسن والحسين سبطا الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو لبابة دفين قابس وأبو زمعة دفين القيروان ومعاوية بن حديج السكوني وحنش الصنعاني وعبد الملك بن مروان وأمثال ممن لا يحصى كثرة وكانت فيهم أنفار الجيش من البدو ولكنهم بدو هذبهم الدين ولهم نزاهة وأخلاق عالية ووقوف عند حدود الأدب فلم ينقل عنهم ما يشين تاريخهم بل كل ما يرفع مكانتهم في القلوب وممن قدمها آخر المائة الأولى عدد من التابعين بقصد التعليم والتهديب فقد بعث عمر بن عبد العزيز بعثا فيه عشر من علماء التابعين ليعلموا الأدب والدين وهم: 1 أبو عبد الرحمان الحبلي رئيس البعثة - 2 بكر بن سودة الجذامي احد فقهاء مصر - 3 اسماعيل بن عبيد الملقب بتاجر الله - 4 أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي أول قاض بالقيروان - 5 حبان ابن ابي جبلة القرشي - 6 أبو مسعود التجيبي - 7 جعيل بن عاهان الرعيني - 8 اسماعيل ابن عبيد الله ابن أبي المهاجر المخزومي الذي أسلم على يده عامة البربر بالدعوة والموعظة الحسنة وكان زاهدا ورعا مقيما للعدل والدين - 9 طلق بن جابان الفارسي - 10 موهب بن حبي المعافري . فكل واحد منهم كان بمنزلة فتح مدرسة عظمى لما تخرج عنهم من التلاميذ النافعين فيحق لإفريقيا أن تفتخر بحلولهم بها كما يحق للعرب أن يفتخروا بما خلدوه من المآثر والهدى إلى المكارم والمفاخر وكل هؤلاء وغيرهم ممن كان يأتي هذه الديار من الدعاة للدين والناشرين للعلم والتهديب احتسابا لله هم الذين هذبوا إفريقيا بعلمهم وأدبهم وورعهم ووعظهم وأحوالهم الزكية بثوا علما كثيرا وأخلاقا عالية وأفادوا الإنسانية وأنقذوها مما كانت فيه من المحن وبهم وبأمثالهم

تخرج من البربر علماء وفقهاء وشعراء وكتاب وفلاسفة وحكام نزهاء وإداريون وقواد ذورا نجدة ومعرفة حتى أصبحت بهم أمة البربر متحضرة صالحة لأن تحكم نفسها بنفسها وقامت فيها دول عظمى ما كانت لتحلم بها أيام الروم ولا من قبلهم كدولة صنهاجة الأولى ولمتونة والموحدين والحفصيين ويني مرين ويني زيان وغيرهم وتحلوا بآداب بل دخلت في قلوبهم معارف لم تكن تظن في أذن بربري من قبل .

أما العرب البدو سلطهم الفاطميون في القرن الخامس على دولة صنهاجة الهرمة سوط عذاب للسلب والنهب فأوليك قوم لا تهذيب لهم ولاهم متمسكون بآداب الدين فقد افسدوا في القطر التونسي والطرابلسي وشرقي الجزائر ما قدروا عليه وخربوا ما عمره من قبلهم وجاءوا في زمن تأخرت فيه مدارك الشعب العربي وبالخصوص البدو منهم فكانوا شرا وبلاء ونحن نعترف بافسادهم وتدميرهم كما أننا نعلم أن نسلهم قد تحضر كثير منه واصلح بعض ما أفسده آباؤه وصار له فضل ومزية حيث مزجه الموحدون مع البربر فعربوا لسان البربر وسهلوا بامتزاجهم امتزاج الأمتين واتحاد اللغة تقريبا عند الجبل من البربر وكملت بهم الوحدة الإفريقية ودخل كثير منهم إلى الأندلس فأعانوا إخوانهم في البلاء النازل بهم من الإسبان وامتزجوا هناك أيضا وأبلوا بلاء حسنا .

لكن أماننا وامام العالم شيخ التاريخ ابن خلدون والله يغفر له لما تكلم على العرب عموما في مقدمته لطح العرب الفاتحين المهذبين بفعل المتوحشين وأحبط حسنات السلف بذنب الخلف فأحرق الأخضر باليابس ووصف عموم العرب بوصف المتوحشين منهم مع أن هؤلاء قوم مخصوصون وقليلون بالنسبة للأمة العربية وجاؤوا بعد الأولين بنحو أربعة قرون فكيف يحكم بالمتأخر على المتقدم وكيف وقع له حتى غفل عما خلده الأولون من المجد الذي لا ينازع فيه منازع وهاك نموذجا من عمله قال في مقدمته فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسايط وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث إلى آخر ما اطال به من المعاييب التي لا تنطبق إلا على عرب القرن الخامس الذين تسلطوا على وطنه وأعز شيء إليه فخربه ولا تنطبق على الفاتحين الذين عم سلطانهم السهل والجبل والأوعار والحصون والأمصار من الهند وحدود الصين إلى أواسط أوربا من شرقها وغربها فدليلة أخص من دعواه التي ترجم بها وعذره أنه لعله كان عصبي المزاج وبما شاهده من تخريب القيروان

وغيرها من مدن ووطنه أصابت قلمه نوبة عصبية فنتل ما فى كنانته ضد عموم العرب وما كان ينبغى له ذلك لأنه عالم إفريقيا ومؤرخها ومن فلاسفة العرب ومحققهم العارفين أسلافه حق المعرفة بل بالتارىخ الإسلامى العام وفتخر به نحن الإفريقيين وبآثاره الخالدة لذلك نلتمس له عذرا ونخصص كلامه بالمتأخرين المتوحشين بدليل قوله فصل فى أن العرب أبعد الناس عن سياسة الملك ثم قال فى أثناء الفصل: واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شيد لهم الدين امر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء اعظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم اه فهذه الكلمة على ما فيها من الغض من الخلفاء المتقدمين قبل تتابع الخلافة كابى بكر وعمر تخفف بعض غلواء ما فى الفصول الأخرى على أن عنوان هذا الفصل نفسه غير مستحسن منه تعميمه. لعمري إذا لم يكن العرب اقرب الناس للسياسة فمن يكون اقرب إليها هذا عمر ابن الخطاب أباد أعظم دولة كانت فى العالم دولة الفرس وأزاح الروم عن ممالك عظمى ووصل ملكه ما بين نهر بلخ وحدود تونس فى مدة عشر سنين لم يكن فيها بخار ولا كهرباء إلا ظهور الإبل وقد ضبط المملكة واقام العدل وأحسن السيرة وجلب قلوب خصومه الذين اخضعهم بالسيف فسالموه وأحبوه فاما تبعوا دينه واما أطاعوه.

لعمري أن رجلا وهو جالس فى ثياب مرقعة (احتقارا لزخرف دنياه) بالمدينة المنورة يفتح فتوحات كهذه ويمهد مملكة ممتدة من الشرق الأقصى إلى حدود المغرب الأقصى فى نحو عشر سنين لمن اعظم سياسى فى الأرض وأن ارضا تنبته لمن اعجب البلاد وأن أمة تنجبه لا ينبغى أن يقال فيها أبعد الناس عن السياسة ولو لم تنجب سواه على أنها لم تنجبه وحده فهذا معاوية بن أبى سفيان كان من أمهر سياسى فى الأرض وكفى أنه توصل بسياسته لانتزاع الخلافة من علي وما ادراك ما علي وما ابعده معاوية عنها واقرب عليا منها ثم اوصل جيشه لأبواب القسطنطينية العظمى وإلى قبرص وإلى ما وراء سوس الأقصى فى المغرب الأقصى وأطل على أوروبا من شرقها وغربها. وهذا عمرو بن العاص معينه فى ذلك وفتح مصر بشرذمة من الجيش ثم السودان ثم طرابلس التى شغلت دولة عظمى مدة جيل كامل ولم يات بشيء من الشنائع ولا كانت له آلات جهنمية فتحها فى شهور وترك تارىخ العرب نقيا شريفا.

وهذا عبد الرحمان الداخلى إلى الأندلس منفردا شريدا هاربا من شطوط دجلة

فتوصل بدهائه السياسي إلى تأسيس دولة عظمى أنارت أوروبا وافريقيا بل العالم بمعارفها وصناعاتها وافاضت على العالم سيلا من كتبها العجيبة في أنواع من العلوم.

وهذا ادريس الأكبر هرب من مكة هو ومولاه راشد فما وقف إلا بباب عبد المجيد البربري الأومي بوليلي (وسط المغرب الأقصى) وتوصل بدهائه السياسي إلى أن نزل له عن ملكه وأجلسه على كرسيه وباعه وأصبح من جملة خدامه بل اعجب من ذلك نزل له عن مذهبه ومعتقده فبعدهما كان خارجيا اباضيا أصبح لاجله شيعيا أو سنيا هو وقومه وهذا من اغرب ما يسمع في التاريخ لذلك ينسب له المغاربة الولاية والكرامة وحق ذلك فإذا لم تكن هذه سياسة أو كرامة فلم تبق سياسة ولا كرامة.

ومن أعجب ما تسمع أنه ترك ادريس الثاني جنينا في بطن امه كنزة فانظروه محافظين على مملكته وباعوه وهو ابن احدى عشر سنة.

فادريس الأول ملك قلوب البربر حيا وميتا ولم يكن ولده بأقل منه حنكة فقد قام بمملكته في هذا السن أحسن قيام وحفظ ما خلفه له أبوه بل وسعه توسيعا محسوسا واخضع لسياسته دولة مغراوة في تلمسان ودولة بني عصام في سبتة وكان محاطا بالأعداء والطامعين في ملكه من جميع حدود مملكته.

فأمة تنبت أمثال هؤلاء أقرب للسياسة من كل أمة وهذا أبو عبد الله المحتسب الصنعاني جاء إلى إفريقيا منفردا واحترف بتعليم القرآن وفي أقرب مدة كهرب قبيلة كنامة وقلب فكرها من مذهب الخارجية إلى الشيعية ثم قلب بها دولا وأقام على أنقاضها دولة عظمى امتدت فيما بعد من ساحل آسفي على المحيط المغربي إلى مصر والشام والحرمين والعراق وهذا السفاح العباسي قلب بسياسته اعظم دول الأرض في وقته بالدعاية وخلفها بدولة أعجب بها العالم كله وكل هؤلاء عرب ويقر بأعمالهم ابن خلدون نفسه في تاريخه اما أبو مسلم الخراساني فلم يكن إلا من المنفذين لبرنامج السفاح والسائرين على ضوء دهائه ويكفي تلاعب السفاح به وبأمثاله دليلا على سياسته الناجحة ولو جئنا لتعداد غيرهم ممن هم في تاريخه لضاق به المجلد ومع ذلك يتطرف قلمه فيقول ان العرب أبعد الناس عن السياسة ليؤسسها قاعدة كلية ويرسلها مثلا أو سهما يصيب به قبيلة او قلبه.

وقريب من هذا وقع له في قوله أن العلماء أبعد الناس عن السياسة وان التجار لا

يصلحون للسياسة وكل ذلك حكم منه على علماء وقته وتجار وقته ولكن افرغ العبارة في قالب العموم فلم يصب .

ولقد شهد مؤرخوا أوربا وغيرها للعرب بعلو الكعب في السياسة ويقتبسون من اعمالهم حيث أن دولتهم امتدت في نحو جيل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب قبل وجود التسهيلات التي مهدها البخار والكهرباء والمعامل الحديدية «في قطف الزهور ان ما بلغه الإسلام في امتداد فتحه وانتشاره في سبعين سنة لم يبلغه انتشار امبراطورة الرومان في 700 سنة» فهم قدوة العالم في السياسة وهم سياسيون بطبيعتهم جبلة فيهم دخلوا افريقية وهي بربرية مظلمة بالوثنية والجهل فلم تمض عليها ثلاثة أجيال حتى جندوا منها جندا مهذباً متدينا مدربا فتحوا به اسبانيا إلى حدود فرانساً وصقلية وغيرها . ان أمة تم لها في ثلاثة أجيال صبغ البربر بصبغة عربية وهذبت هاتيك الأمة وأوصلت الدين لاعماق قلوبها وصيرتها إنسانا حيا بعد ما كان وحشا مفترسا لمن اعرق الأمم في معرفة السياسة واكثرها حنكة ومقدرة .

بالله عليك أيها الإمام أي دولة استعمرت إفريقيا ولم تذب ذوبان الثلج في الماء الحار إلا العرب الذين صيروا البربر تبرا بعد ما كانوا تبرا ونحاسا فهم كيمياء السياسة وأساتذتها هذبوا الأمة البربرية بتهديب الإسلام وصيروهم موحدين يقرون بالاله الواحد ويعبدونه ويحرمون الزنى والفواحش بعدما كانوا يقربونها ضحايا للأحجار والأشجار وعلموهم وجوب القصاص وكفاءة الدماء ومنعوهم من قطع الأرحام والسابلة وعلموهم كيف يذبحون الحيوان ولا يعذبونه وحضروهم في المأكول والمشرب والملبس والمسكن وحذروهم من الكذب وعدم الوفاء ونكران الجميل والغيبة والنميمة والحقد والحسد إلى غير ذلك من المكارم التي تضمنها القرآن والتي ما طنت قط على اذن بربري فهذا ما أوجب امتزاج البربر مع العرب حيث لم ييخلوا عليهم بعلومهم وآدابهم وآداب لغتهم على عاداتهم في السخاء المفرط بذلك حتى هيئوهم للرشد وظهر فيهم العلماء والقواد وأصحاب الإدارة فتأهلوا لان كان منهم دول عظمى لم يكن قط مثلها أيام المعمرين قبل العرب كل هذا من حسن اسلوب العرب في سياستهم ذات المرونة المؤسسة على مكارم القرآن الذي سوى بين البشر .

ان الدول لا دوام لها ولا بد للفلك من الدوران لذلك يرى الإسلام ان الشعب الذي فيه اهلية لحفظ البيضة هو أحق بدولاب الدولة من أي جنس كان ولا يتعصب

للجنسية لذلك لم ينفس العرب على البربر استقلالهم وقيامهم بالأمر بل كانوا في إعاتهم وخدمتهم وهكذا البربر لما ضعفوا وراوا أهلية في العرب رجعوا إليهم أمانتهم اذ لم يكن البربر حفيظة على العرب ولا ثار.

فها نحن نرى افريقيا وجل عصبيتها بربر لم تنس معروف العرب حين رأته ضعف البربر عن الدولة اخريات دولة بني وطاس بالمغرب الأقصى فرجعوا لمملكة العرب وأعطوا قيادهم للدولة السعديين الشرفاء ثم بعدهم لدولتنا العلوية ادام الله عزها ومجدها.

ذلك ما يدلنا على حسن ملكة العرب الأقدمين التي بقيت عالقة بأذهان البربر الذين كانوا يرون العربي فوق البشر تعظيما له واحتراما وإلا فهو من البشر لذلك رجعوا إليهم بعد الاعراض عنهم وكل ذلك يستتج منه حسن سياستهم المرنة وما غرسوه من الود الحقيقي في قلوب البربر ودا لا ينسى على تعاقب القرون. إنما اولنا كلام الإمام ابن خلدون وخصصناه بالعرب البدو تحسينا للظن به وذلك الذي يجب على من يعرف قدره.

لكننا وقفنا على فصول اخرى ربما تمنع من ذلك فمنها قوله (فصل في ان العرب أبعد الناس عن الصنائع) ولم يستثن لهم إلا صناعة الصوف والجلد وفي هذا الفصل عمم الحكم على العرب الأولين والآخرين غير انه قال انهم تحافظوا على ما وجدوه عند بني اسرائيل والفرس والنبط والقبط الخ فناقض هنا ما نسب اليهم من التخريب سابقا ثم استثنى اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وقال انهم تداولوا ملكها آلاف من السنين في أمم كثيرة واختطوا بها أمصارا ومدنا وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة والأذواء فطال امر الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلاء الدولة كما قدمنا فبقيت مستجدة حتى الآن واختصت بذلك الوطن صناعة الوشي والقصب وما يستجد من حوك الثياب والحرير فيها اهـ. وكل هذا يكر بالإبطال على ما يأتي له من كونهم خربوا اليمن وما بعدها ولا ينتج له الدعوى التي ترجم بها طاعة الفصل ويردها أيضا العيان فلما يشاهد في ديار الأندلس الآن ومساجدها وما أبقاه التخريب من آثارها في أبنيتها وفي دور المتاحف ما يدل على حذق العرب في الصنائع وبلوغهم غاية الغاية وهذا المغرب الأقصى لا تزال فيه صنائع للبناء ادق وأتقن وأجمل مما يوجد في أرقى

مملكة أوربوية والأوربيون معجبون بذلك ومهتبلون به وقد اعجب سكان المعمور بما شاهدوه هذه السنة في معرض باريز من صنائع المغرب والجزاير وتونس الأهلية وما شوهد قبله في معرض اشبيلية وبرشلونة وكل ذلك من بقايا صنائع العرب ونتيجة قرائهم المتوقدة ونشاطهم الباهر وذوقهم اللطيف .

ومن تلك الفصول أيضا قوله فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان اسرع إليها الخراب والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه ثم افاض القول في وحشيتهم وبالغ عفى الله عنه في ذلك إلى أن قال وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمراناه واقفر ساكنه وبدلت الأرض غير الأرض فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمراناه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما أجاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين سنة لحق بها وعادت بسايطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناه تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتمائيل البناء الخ . ففي هذا الفصل عفى الله عنه لطح جانب العرب عموما لا خصوصا البدو المتوحشين حيث قال من لدن الخليفة وعمم سائر الممالك العربية لا خصوصا افريقية وهو في ذلك لعمر الحق غير مصيب ومن هذا الفصل وأمثاله توجهت عليه تهمة مذهب الشعوبية وحاشاه منه حيث انكر ما اثبتته التاريخ للعرب من التعمير ونشر لواء الأمن والعدل وهو نفسه تاريخه مملوء بمكارم العرب الأولى الفاتحين :

1 - كيف يمكنه أن ينسى أو يتناسى تعمير عمر بن الخطاب لممالك العراق وفارس والشام ومصر والحجاز وتمصيره للأمصار كالكوفة والبصرة وغيرهما . نعم بناهما أولا بالقصب لضرورة الحرب كما شاهدنا المتمدنين يعملون الآن ثم استاذنوه في البناء بالحجر فإذن بشرط عدم الخروج إلى حد السرف كما عند ابن خلدون نفسه في نفس المقدمة . وعدم السرف به تدوم العمارة ، والسرف أصل الخراب . وعمر مدنا أخرى ، وعدله المتواتر المسلم من العدو والصديق هو أصل العمارة وعمادها ، والتواريخ ملأى بتعميره وعدله وهو نفسه في المقدمة نفسها ذكر تعميره بل تأسيسه لمسجد الصخرة بفلسطين بعدما خربه الرومان قبله وجعلوه مزبلة وبنى مسجد المدينة وغيره .

- 2 - وكم عمر عثمان من مدن وقرى ومساجد ومعاهد ثم بعده الخلفاء الأمويون وغيرهم .
- 3 - أول مستشفى اسس مستشفى المجانين الذي أسسه هشام بن عبد الملك في الشام .
- 4 - أما أخوه الوليد فقد ملأ الممالك الإسلامية عمارة فقد كان في آن واحد يبني مسجد سمرقند ومسجد بني أمية بالشام ومسجد مكة ومسجد المدينة وبنوا مسجد قرطبة الذي لا يوجد له مثيل إلى الآن وهو وحده دال على مدنية العرب في البناء وتفننهم في العمارة والتائق ودليل على عدم اسراع الخراب لما بنوه . وابن خلدون وان لم يقف بنفسه على مسجد قرطبة فهو على علم منه ومن غيره من المآثر العربية الخالدة ولم يكن عمل خلفاء بني أمية قاصرا على بناء المساجد بل عمروا البلاد وأمنوا العباد ونشروا الأمن والعدل وهما موجبان للعمارة طبعاً . فعمر بن عبد العزيز بنى قنطرة قرطبة وبنى هو وغيره غيرها .
- 5 - أما ما شادته دولة بني العباس في بغداد وغيرها حتى صيرتها عاصمة العواصم وما خلدوه من المدارس والمستشفيات في أقطار الأرض والملاجي الخيرية والمساجد والدور والقصور حتى نسبوا في ذلك للأسراف والتبذير فشيء كثير لا يفيء به مجلد ضخم .
- وذلك في عموم آسيا وافريقيا وغيرها ولنكتف بالإحالة على ما في تاريخ ابن خلدون نفسه وبعضه في المقدمة .
- لقد وصلت بغداد والبصرة والكوفة والشام والعراقان ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية في العمارة والإتساع والرفه وسعة العيش والأمن شيئا عظيما ولقد كانت بغداد عاصمة العواصم تتدفق قصورا ومساجد ومدارس ومستشفيات ومكتبات ومراصد فلكية وعجائب بحيث لو كان في ذلك الوقت كهرباء وبخار لكانت اعجب من باريز وأعظم وأنجد وهكذا كانت العواصم الإسلامية تنافسها كمصر والقيروان والبصرة والكوفة وخراسان والشام وغيرها .
- 6 - وكذا ما شادته بعدها دولة الفاطميين التي كانت تنافسها فيمكن أن تنظر بعضه في خطط مصر للمقريري فلا نطيل بجلبه .

7 - وكذا ما شادته الدول التى انفصلت عن دولة بنى العباس فى المشرق فهو شىء ملثت به التوارىخ .

8 - كذلك ما عمرته الدول الإفريقية كبنى الأغلب فقد عمر ابراهيم بن أحمد بن الأغلب أكثر من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وابواب الحديد غالبها على رؤوس الجبال لحفظ الأمن ونشر العمارة هذا ما فعله سلطان واحد تحت رعاية الدولة العباسية فى افريقيا . أين ما بناه وعمره الأدارسة وغيرهم وغيرهم .

كذلك ما عمرته الدولة الأموية بالأندلس ومن بعدها من المدن والحصون التى لا تزال ماثلة إلى الآن وأسمائها عربية وشكلها عربى وذلك أيضا شىء كثير له مواضعه .

عجبا لامام التارىخ غفل عن كل ما سبق ونسب للعرب تخريب ممالكهم بالعراق والشام فان كان مراده انها لم تدخلها عمارة فما سبق لنا من البراهين يبطله وتارىخه يعضدنا فيما اسلفنا ولا اظنه ينكره . وان كان مقصوده ان الخراب طرأ على تلك الممالك بعدهم فقد نسي ما أثبتته هو فى تارىخه من أن الذى خرب تلك الممالك هم التتر جنكيز خان وتيمورلنك وجيشاهما فهم الذين خربوا مدينة العرب واتوا على مآثرها وليس العرب هم الذين خربوا ولا ذنب لهم فى التخريب .

ولا ينبغى لامامنا أن يزيد العرب نكبة المعرة على نكبة الخراب الذى أصابهم من أعدائهم فيلصق بنا معرة أعدائنا .

وعلى كل حال هذا الفصل غلطة كبرى من امام عظيم نجله ونعلم مقامه الرفيع وقد عظمت علينا المصيبة ان نصاب بسهام امام التارىخ وزاد سهما آخر فقال : فصل فى ان المباني والمصانع فى الممالك الإسلامية قليلة الخ وهنا زاد التعميم فادخل حتى الدول غير العربية كالموحدين الذين لازلنا ننظر بأعيننا آثارهم فى مكتبة مراكش واشبيلية والرباط وجامع المنصور وقصبة مراكش وقصبة الرباط وأسواره كلها من عمل الموحدىن وقصبة باب المحروق بفاس كذلك وننظر مدارس بنى مرين الممتدة على طول افريقيا الشمالية من مراكش وسلا وفاس وتازة وتلمسان والجزاير وتونس وغيرهم من دول الإسلام الكثيرة المآثر .

وزاد سهما آخر فقال - فصل فى أن المباني التى كانت تخطها العرب يسرع إليها الخراب وقد تحامل عليهم فى هذا الفصل حيث أن مبانيهم لا زالت بعد قرون يراها

هو وغيره ونسب إليهم فساد ذوقهم في اختيار اختطاط المدن وعدم معرفتهم بالأمكنة الصالحة للمدن وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي: قال والعرب بمعزل عن هذا وإنما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبث قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية وكلامه في هذا الفصل أيضا حائد عن الجادة وناظر إلى ما قاله بعض المؤرخين من كون عقبة لما أسس القيروان اختار محلا لاثقا بالإبل إذ هي غالب الظهر الذي عليه إذ ذاك تنقلات جيشه والبلد حربي على أن محل تخطيط القيروان لا ينكر أحد انه صالح لتخطيط مدينة مثلها إلا من جهة قلة الماء وقد شيدوا خارجها المواجل التي تكفيها وهامي قرطجنة يجلب إليها الماء من مسافة بعيدة ولو كانت لا تصلح إلا للإبل فقط دون سكنى الحضر لما عمرها الإفريقيون بعد تخريب العرب لها وأخطأ الإمام غفر الله له في إثبات أمر كلي بجزئية واحدة دون استقراء ولا تتبع وذلك نقص في صناعة المنطق والجدل.

1 - اغفل بغداد المؤسسة بجانب دجلة والتي هي في محل من أخصب بلاد الله ووقفه بالتخطيط.

2 - البصرة التي ليس لها نظير في كثرة المياه والنخيل والفلح ومثلها سجلماسة في المغرب.

3 - فاس التي هي أحسن بقعة بإفريقيا خصبا ومياها أحسن أنواع المياه للشرب وبها عناصر تفوق العد والوصف عذوبة ولطفا وبخارجها منابع حارة للاستحمام والاستشفاء وتوفرت فيها جميع المرافق المهيأة للعمارة والفلح والخصب والرفاهية وطيب الهواء يعرف ذلك العامة.

نعم بناها المولى إدريس في شعب منخفض لأمر حربي اقتضاه ومع ذلك فهي متفتحة للهواء النقي الجاف الطيب فلم يضرها ذلك.

وكم في إفريقيا وآسيا وأوروبا من مدن اختطها العرب وأحسنوا في اختيار مواقعها مما يطول بنا جلبة وذلك ينقض ما ادعاه في هذا الفصل كله وعلى كل حال ان الناقد البصير المنصف لا ياخذ البريء بجريرة المذنب ولا ينسب أفعال وأخلاق قبيل من العرب البدو الظعن الغير مهذبين في القرن الخامس للعرب المتحضرين الذين فتحو بلاد الإسلام في القرن الأول والثاني.

وإني اعيد ابن خلدون بالله أن يجحد مجد آبائه وأن يكون منكرًا لشمس الظهيرة وإنما وقع له تخليط في المقدمة ولم يحررها حيث أنه واضع فن عظيم مبتكر لعلم لم يسقط عليه من قبله من فطاحل المفكرين وكان في البداية وكل مبتكر لفن لا يأتي في أول عمل بأعلى مثال من مواده ولا شك أنه كان عند كتبه لها مستحضرا لحال وقته الذي كان فيه افساد العرب المتأخرين حديث عهد بالوجود وأغفل الكلام عن الحضريين الفاتحين الذين لهم المجد الشامخ والشرف الباذخ في افريقيا ومصر والأندلس والشرق والغرب وغيرهما من الأقطار التي دخلها الإسلام والتمدن العربى وحسنات الأولين لا تحبطها سيئات المتأخرين فكلام إمام التاريخ والأدب يجب علينا أن نؤوله ونحمله على خصوص البدو المتأخرين وأن نحسن الظن به ونعتبر مقامه العظيم والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه وهو كبيرنا واستاذنا وسيدنا وعالمنا فنعرف له حقه ونحترم جانبه العظيم بتأويل كلامه وتخصيصه ونرد على كل من يعممه «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» وقبل الانفصال عن الموضوع لا بد لي أن ابين دركا آخر على الإمام ابن خلدون فيما نسبه للعرب المتأخرين من تخريبهم عموم افريقيا وتحميلهم مسؤوليتها من حدود السودان إلى البحر الرومى بما فيها افريقيا والمغرب وحيث عطف المغرب على افريقيا تعين حمله على المغرب الأقصى فنقول أن المغرب الأقصى لم يصله التخريب والتدمير الذي فعلوه في القطر التونسى وإنما افسادهم كان في مملكة تونس وشرقى الجزائر.

وإن التخريب الذي وقع في المغرب ليس من العرب بل من غيرهم فابن خلدون نفسه نص في تاريخه على أن الكاهنة داهيا بعدما قتل زهير بن قيس البلوى أمرت بتخريب العمران لثلا يبقى للعرب مطمع في افريقيا قال وكانت ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة في قرى متصلة فخربتها نكاية في العرب وقال في الحلل كان في افريقية مائة ألف حصن ما بين قصر ومدينة وكان فعلها القاسى وخطتها المخطئة مما انجح سياسة حسان بن النعمان حيث التجأ الروم المعمرون والبربر كرها لتغريبها ونحن لا نبحث في المبالغة التي لا يخلو منها هذا الكلام حيث أن تخريب هذه العمارة العظمى ذات الآلاف من الفراسخ يحتاج إلى جيوش كبرى وآلات وسنين طويلة ولا كنا نستنتج من لام ابن خلدون أن البربر هم الذين خربوا ديارهم فالعرب

وجدوا افريقية خرابا إلى طنجة فعمروها وحسنوا أحوالها بالبناء والغرس والمشاهد وقد نص ابن خلدون أيضا على خراب آخر وقع في غربي الجزائر والمغرب قبل أن يأتي العرب المتأخرون البدو وذلك عند وقوع الفتن التي كانت بين زناته وصنهاجة فقد وجه صنهاجة على عهد العبيديين اثني عشر جيشا للمغرب فتقع حروب بينهم وبين زناته ويقع خراب وترجع بلا طائل حيث المغاربة لا يقبلون المذهب الشيعي الذي كان عليه صنهاجة ولا يرضون النزول عن مذهب مالك وهكذا لما جاءت دولة لمتونة ما تمكنت من الملك حتى وقع خراب وحروب ثم ما سقطت لمتونة وقامت دولة الموحدين حتى وقع أيضا مثل ذلك وقد نص هو في دولة الموحدين أن هزيمة «العقاب» التي وقعت على الناصر في الأندلس ماتت فيها حماة المغرب ورجاله وظهر بسببها الخراب والنقص في افريقيا والمغرب وهكذا وقعت فتن في سقوط الدولة الموحدية ونهوض المرينية وفتن أخرى بين هذه وبين الزيانية وبين هاذين وبين الحفصية كل ذلك اثر على عمارة المغرب وافريقيا بالخراب والخلاء الظاهر وكله من ايدي البربر لا دخل للعرب فيه ولا يتحملون مسؤولية من هذا التخريب كله .

وعليه فلا ينبغي لابن خلدون أن يحمل على كواهل العرب ما شاهده هو من الخراب في افريقية والمغرب فجله لا مسؤولية فيه على العرب المتأخرين المخربين فضلا عن المتقدمين الفاتحين الذين بيضوا وجه التاريخ العربي واتصفوا بارفع مكرمة تنسب لشعب نبيل نبيه .

هذا ولنرجع إلى أصل الموضوع لقد علم الناقد البصير من كل ما أسلفته لكم أولا وآخر الدلائل والبراهين التاريخية والإثنية الدالة على الفرق العظيم بين الفتح العربي لافريقيا الشمالية وبين الفتوح قبله فالفتح العربي هو تمدن ديني وتهذيب اجتماعي ثقافي أدبي لغوي نظامي عدلي المقصود به نشر الدين الذي هو أصل الخير ومكارم الأخلاق والعدل والسلم وقطع مادة الفتن وتنوير العقل بنور العلم والدين ونقل البربر من حالة قريبة من الحيوانية الوحشية وتأنيسهم وتصييرهم أناسا كاملين رشداء وإدخالهم في حياة متحضرة مهذبة ذات رحمة ورأفة بالبشر بل بالحيوان وصوغهم في القالب العربي لغة ودينا وقد وقع كل ذلك . أما الفتوح قبله فإنها استعمارية انتفاعية بالأرض وأهلها بقطع النظر عن اصلاح أهلها في غالب الأحوال فهو اصلاح للأرض وترك أهلها في فسادهم أو افسادهم بالفعل بتشريدهم ونزوعها

عنهم فالفتح العربى لاصلاح البشر وذلك هو المقصود الاصلى واصلاح الأرض تابع لذلك والفتح قبله بالعكس هو اصلاح الأرض بالفلاح والغرس والتشيد للمبانى بقطع النظر عن أهلها غالباً ففتح العرب بقيت آثاره الدينية والأدبية ظاهرة ولم يبق من آثار من قبلهم سوى خراب الجم وحنايا تونس وما إلى ذلك وايضا الفتح العربى امزج العرب بالبربر وتصيير الأمتين امة واحدة هذا مبدأهم فى فتوحهم وغيرهم بخلاف ذلك كله والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

الملحق رقم 2

نقد

كتب الدراسة للعلوم العربية بافريقيا الشمالية

محاضرة تلاها العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في مؤتمر اللغة والآداب العربية الذي انعقد بتونس أيام 14 و15 و16 دجنبر عام 1931 موافق 4 و5 و6 شعبان عام 1350 وقد ألقاها مؤلفها في جلسة المؤتمر الأخيرة الرسمية ساعة 5 عشية خصصت لها وحدها وقوطعت بالتصفيق الحاد مرارا على كل موضوع من موضوعاتها استحسانا وابتهاجا وقام مدير المعارف عند ختامها واثنى وأطرى وكانت السن الحاضرين لهجة بها والحمد لله وكانت مسك ختام المؤتمر مع أن الفقيه ابن القاضي قيم الزيتونة املى ملخصها باثر خطبة شيخ الإسلام في اليوم قبله بالنيابة لعذر المطر والسيل اللذين بسببهما تاخر حضور المحاضر في اليوم المذكور.

باسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما ينبغي لكماله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله

أيها السادة:

أتشرف بتقديم شكري لجنابكم حيث تنازلتم مرة ثانية وخصصتم جلستكم الرسمية هذه لسماع كلماتي التي سألقيها على شريف اسماعكم بعدما سمعتم ملخصها بالأمس على لسان أخينا سيد محمد بن القاضي الذي ناب عني في ذلكم بسبب تأخر وصولي لاجل الزوبعة.

كما اني متأثر جد التأثر من عواطفكم التي أبديتها نحوها نحوي بالأمس لذلكم التأخر الذي لم يكن منتظرا ولم يكن لي مانع من حضور افتتاح المؤتمر الذي تأسفت

كثيرا لفوات فرصته الثمينة سوى وادى مجردة الذى جاء بسيوله العظيمة يباريكم فكانه علم باجتماع بحور العلم وقواميس العربية والفصاحة بحاضرة تونس الخضراء فجاء بسيوله يتحداها ولكن جاء بغيبة عظيمة وذهبت سيوله جفاء وطمت عليه بحوركم كأنه ضرب بعضا موسى فأصبح يبسا فجزناه والحمد لله .

(تصفيق عام)

سادتي ان اجتماعكم هذا في هذا المؤتمر العربى المبارك فرصة ثمينة متى يسمح الدهر بمثلها للغة العربية الأم العريزة الحنون علينا فلا ينبغي أن نتركها تمر بغير ان نستفيد منها فائدة يخلد أثرها وتعود على لغتنا بالرقى في معارج الكمال لذلك اخترت أن القي بين يديكم اقتراحا في اصلاح كتب الدراسة لتعطوه جانبا من الأهمية ولا سبيل إلى الإصلاح إلا بعد معرفة ما هو منتقد منها فأقول :

غير خفى ان علة العلل في تاخر الأمة العربية او الأمم الإسلامية هو داء الأمية وكل يعلم مضارها العظمى وأثرها السيء فينا بما يغني علمه عن بيانه لذلك أرى أن أول داء نبادر لعلاجه وحسم مادته هو ذلك الداء العضال المخاطر داء الأمية . ولا تزول جرائمه إلا إذا تساوى افراد الأمة ذكرانا واناثا في قدر من العلم الأدبى والتهديب يزول به سوء التفاهم بين افراد الأمة وهو اقل ما يكفي لان يصل به الكل إلى معرفة ما يصلح مجتمعهم او يضر جامعتهم فيكونوا كجسم واحد يحس بما يؤلم أعضاءه ويهتدي الدواء الحقيقى فيطلبه من حيث ينبغي تحصيله .

ولا سبيل بحسب العادة إلى الوصول إلى هذا القرار إلا بتسهيل تعليم القراءة والكتابة وبه زوال غشاوة الأمية عن ابصار الأمة (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) كان النبي العربى صلى الله عليه وسلم يعالج داء الجهل بنفسه المقدسة بياشر تعليم الأمة وتهذيبها شفاهيا ويزيل عنهم داء الأمية فيأمرهم بكتب القرآن في الصحف واللخاف والعظام وغيرها مما كانوا يكتبون فيه .

ولقد أناف كتابه صلى الله عليه وسلم الذين يكتبون له الوحي وغيره على الأربعين كاتباً من أعيان الصحابة الكرام ترفيعاً لشأن الكتابة وكان يرغبهم في نبذ الأمية وتعلم الكتابة والقراءة .

وقد تبث في السير أنه لما أسر بعض كفار قريش في غزوة بدر وكانوا يحسنون الكتابة وكان أهل مدينته عليه السلام يجهلون بها جعل فداء بعض الأسرى أن يعلم

الاسير عشرة من أبناء المدينة المنورة فإذا علمهم نال حريته وأطلق من أسره بدون شيء سوى ذلك .

ومن افتدى بالمال كان يؤدي من الأربعة آلاف دينار إلى الثلاثة إلى الألفين إلى الألف كل اسير على قدر ماله فانظر قيمة تعليم الكتابة كم كانت تساوي فان تعليم الفتى الواحد يساوي اربعمائة دينار إلى مائة دينار ليس ذلك بغال في سبيل إتلاف داء الأمية لذلك لا نستعظم ما تقررره الدولة في ميزانيتها للتعليم حيث ننسبه إلى عدد المتعلمين كل سنة .

* ما هي الأمية *

الأمية في الزمن النبوي وما يقرب منه كانت عبارة عن عدم معرفة القراءة والكتابة فمن عرفهما لم يبق أميا حيث كانت للغة واحدة فلغة التخاطب والتفاهم هي الفصحى سواء فيها الأشراف والسوقة ولم يكن لديهم لغتان عامية وفصحى فكان الناس متساوين في فهم ما خوطبوا به من القرآن والسنة والأوامر والنواهي والنشورات والمكاتب والخطب والشعر وإنما تفاوتهم بالذكاء وزيادة المعلومات . أما في الوقت الحاضر فالذي يعرف القراءة والكتابة فقط من غير أن يفرق بين التراكيب الصحيحة والفاصلة هو أمي أو ملحق به حيث جهل اللغة الفصحى التي هي لغة النشر ولا يخرج عن سجن الأمية إلا إذا عرفها ولو معرفة ابتدائية وان لم يصل إلى حد التعمق في الدقائق فهذا يخرج من صف الأميين ويدخل في صف أهل العلم إذ يمكنه ان يتوقى اللحن في كلامه وأن لا يغلط في فهم كلام غيره بحيث لا يتقلب له الضارب مضروبا وبذلك يفهم خطب الخطباء غير المتكلمين لسجع الكهان ولا المتعمقين في التراكب المعقدة المتظاهرين بمظاهر الفخفة العلمية ويفهم المنشورات الدولية والجرايد السيارة ليطلع منها على أحوال العالم ويعرف ما عند غيره فيخرج من عزلة الانفراد ويفهم لغة المراسلة التي لا يرضى أحد من أهل العلم ان يتنازل عنها ولا أن يكتب بدرجة أسفل منها وهي لغة الشريعة ولغة القوانين والظواهر والمنشورات الحكومية فالمحصل على هذا القدر ليس بأمي بل هو عارف بما له وعليه عضو عامل في المجتمع بخلاف الأمي الجاهل بذلك فإنه كعضو أشل ضرره على مجتمعه أكثر من نفعه (إلا نادرا وعلى خرق للعادة) لعدم تمييزه بين ما هو ضار أو نافع فربما اختار الضار على النافع من حيث لا يشعر والأمي بسيط الفكر ينخدع لكل مهيج فيقع في

شباك الفتانين باقل إشارة بخلاف الذى يقرأ الكتب ويطالع الجرايد فإنه يكون مشاركا للعقلاء فى تفكيرهم لا تنطلى عليه حيل المحتالين غالبا إذا سلم هذا القدر علمنا أننا لسنا مطالبين أمام أمتنا العربية بتعليمها الحروف العربية والكتابة وقراءة الجمل قراءة بسيطة فقط بل نحن مطالبون بتعليمها تعليما ابتدائيا لغة النشر فيجب أن نعمم هذا بين أفراد الأمة ذكرانا وإنانا بقدر الإمكان هذا التعليم الذى أريده لا يحصل إلا بتعليم ما لا بد منه من النحو والصرف ومصطلحات كتب اللغة الإبتدائية كمصباح الفيومى ومختار الصحاح للرازي ونحوهما بحيث يمكن للمتعلم أن يراجع لفظة غريبة اعترضت فهمه فى آية أو شعر ومرادى من النحو ما قال امام الأدباء ابو عمر الجاحظ: علم ولدك من النحو ما يعرف ان يميز به بين العبارة الصحيحة والعبارة الفاسدة وإياك أن تكثر عليه من النحو فإنه خيال .

فوصية هذا الإمام ينبغى ان يقتصر فى التعليم الإبتدائى على القدر الضرورى الذى يحتاج إليه من يريد أن يتوقى اللحن فيما يعبر به عما فى ضميره والغلط فى فهم عبارة غيره كما تقدم وهذا القدر لا يلزم فيه أن يدرس الفية ابن مالك وشروحها ولا كافية ابن الحاجب وشافيته فضلا عن التوضيح والتسهيل أو نحوهما مما كانت تسميته من باب الأضداد .

إن من يريد ان يمر بالعلمين ليزود منهما زاد مسافر يوصله لغيرهما من المقاصد غير محتاج إلى دراسة أمثال هذه الكتب المسهبة بكثرة اختصارها واحتياج رموزها إلى شرح وشروحها إلى حواش واخذ ورد وقبول ونقد فالدراسة بها تحتاج إلى أن ينقطع الطالب إليها ثلاث سنوات او اربعا لا يزاول غيرها وأنى لأبنائنا ان يجدوا هذا الوقت فى المدارس الثانوية فضلا عن الإبتدائية ليس للأولاد فى المدارس سوى ثلاث ساعات أو ساعتين فى الأسبوع مخصصتين للنحو فى بعض الصفوف دون بعض ولا يتسع الوقت لأكثر من ذلك لأنهم مطالبون فى الأوقات الأخرى بعلوم دينية وأدبية أخرى مع العلوم العصرية التى أصبحت ضرورية لمعاشهم وازدهار مستقبلهم وهذه الساعات لا تسع الدراسة بكتب ابن مالك وابن هشام مثلا بل لا تصلح بها مقدمة ابن اجرؤم نفسها كما سنبينه بعد . ان هذه المدارس الدولية إبتدائية وثانوية هى أهم ما يعتمد الآن عليه فى حفظ اللغة والعلوم والعربية لكثرتها وانتظام سيرها ولولاها لكانت لغتنا فى خطر . إذن فالضرورة قاضية علينا بتأليف كتب تنطبق على حاجة أبنائنا تصلح

للدراسة في فني النحو والصرف وغيرهما من الفنون فمن المتعين علينا ان نؤلف كتباً وطنية دراسية في كل علم نحن في حاجة إليه موافقة لحاجتنا ومطابقة لتفكيرنا وتكون على ثلاثة أصناف صنف للمدارس الابتدائية وصنف للثانوية وصنف للنهائية فالصنف الأول يجمع بعض قواعد النحو وهي الضرورية منها التي لا بد منها في إصلاح المنطق والكتابة كما تقدم وقد رايت من هذا الصنف جملة الفت في الشام ومصر وغيرهما وتقع الدراسة ببعض منها في المدارس الدولية عندنا في المغرب ولكنها لم تسلم من نقد وقليلة لم تتمكن من تميم التعليم بها لقلة ما يرد منها وغلاء أثمانها غلاء مشطا ولم يستحسن أحد ادخالها في تعليم القرويين الابتدائي فالواجب على علماء افريقيا الشمالية ان يؤلفوا مثلها مما يسلم من النقد تنشره إدارة المعارف على نفقتها ليعم التعليم به في جميع البلاد الإفريقية لأن اختلاف التعليم والأسلوب مضرة فكم من طالب ينتقل مع والديه من مدينة إلى مدينة أو من مدرسة إلى أخرى في مدينة واحدة فيختلف عليه الكتاب الذي يدرس به وتضيق أيام الدراسة عليه وكم من واحد بدأ أول السنة في مدرسة بسفينة النحاة السورية فقرأ أحكام الأفعال دون الأسماء ولما انتقل وسط السنة لمدرسة أخرى تقرأ بالاجرومية مثلاً وجددهم قراوا احكام الأسماء وهو لم يقرأها فضاغت عليه سنة وسقط في الإمتحان طبعاً حيث الإمتحان عندنا في العربي مثل الفرنسي سواسية .

الصنف الثاني كتب تؤلف لتلاميذ الثانويات تكون اجمع للقواعد من الأولى وأرقى تعليماً منها وتشمل على جملة من شواهد الكلام الفصيح فتهيئ دارسها لان يكون منشئاً خطيباً وسطاً .

الصنف الثالث كتب تؤلف لاصحاب التعليم العالي في القرويين والزيتونة وأمثالها تجمع جميع قواعد النحو ولا تشذ عنها شادة بجميع شروط كل قاعدة وقيودها ومستثنياتها وتاتي لكل قاعدة بأصولها من الكلام العربي والقرآن العظيم والسنة الصحيحة وتجمع ما هو مفترق من القواعد في الألفية وشروحها كالاشموني وحواشيه والمغنى والتسهيل وكافية ابن الحاجب وكتاب سبويه وشروحها بحيث لا يبقى الطالب محتاجاً للبحث عن قاعدة ما في كتاب من كتب النحو المتفرقة والتي لا يتيسر لكل أحد امتلاكها وتهيئته لان يصير منشئاً خطيباً من الدرجة الأولى عربياً قحاً .

لا أريد كتباً تختصر من الكتب السالفة الذكر اختصاراً بل أريد ممن يؤلف في

النحو كتب الدراسة ان يثور ثورة مهولة جريئة على النحويين فيكسر السجن الذى سجنونا وسجنوا فيه أنفسهم ويطلقنا من ربة أفكار المؤلفين ولا سيما المتأخرين فينبذ وراء ظهره الأسلوب الذى التزمه وهو تضخيم علم النحو وتكثيره وصيرورته علما عظيم الجثة بالعمامة والثياب حتى صار شبعا مخوفا فحرموا من النفع به عموم الأمة وكانوا سببا بي ابعادها عن لغة القرآن وعن لغتها المحبوبة وحرموها من التقدم وزوال الأمية .

أريد ممن يؤلف ان يقلب وضعية العلم رأسا على عقب اعرابا وتصريفا .

1 - فلينبذ تلك التعاريف المعقدة التى أول من جاء بها الرماني والتى الجأنا إلى النزاع هل تعريف الفاعل رسم أوحد وقد ادخل فيه الحكم الذى هو الرفع او العرض العام وهما لا يدخلان الحدود وهى قاعدة منطقية والمنطق يتأخر طبعا عن النحو فكيف يقدم .

2 - ولينبذ عنا ما خلط بالفن من قواعد علمى المعانى والبيان اللذين هما كنتيجة لعلم النحو ويتكرر على التلميذ قراءتهما عندما يقرأهما فى الوقت المخصص لهما وذلك مما ضخم به صاحب التصريح على التوضيح كتابه وافاض فيه محشوه مثلما فعلوا فى مبحث حروف الجر هل ينوب بعضها عن بعض مجازا أو استعارة مع ان هذا مبحث لغوى وقد كرره حتى فى علم الأصول فزادوا النحو صعوبة وهكذا علم الوضع اتوا بجمل قواعده فى علم النحو وكل من هذه العلوم له تواليفه ويطلب فى إبانة ومن طلب الشئ قبل إبانة عوقب بحرمانه .

3 - ولينبذ عنا كل حجج النحويين وتوجيهاتهم الخيالية التى ليست عليها مسحة من القبول وليقتصر على الإستدلال بالسماع الصحيح الذى تلقاه ثقة أهل الفن كالخليل وسيبويه ويونس والاصمعي وأمثالهم من العرب الموثوق بعربيتهم فليجتنب تلك الحجج الخيالية التى هى فلسفة باردة ضخمت بها الكتب وضاع فيها الوقت فهم انفسهم يقولون: او هى من حجة نحوي والعرب ابعده الناس عن تلك الفلسفة الخيالية وأن تعجب فعجب للنحويين اخترعوا أدلة باردة سمجة ونبذ الفقهاء من كتبهم الأدلة التى بنيت على الأصول القويمة والتى لا يكون الفقيه فقيها إلا إذا عرفها وحررها .

4 - ولينبذ عنا كل خلاف كوفى أو بصري أو بغدادى وكل تحزب لفريق ضد الآخر فالعلم لا وطن له وكل قول عضده سماع صحيح فصيح لم تلجىء اليه ضرورة

الشعر فصحيح مقبول لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ والمثبت مقدم على النافي وزيادة الثقة مقبولة فهذه أصول عامة مقبولة في كل فن فلا معنى لبقاء الخلاف بعد ثبوت السماع إلا تكثر الشغب والجحود والجمود على التحيز لفريق دون آخر ولغة العرب ليست بصرية ولا كوفية .

إن جل مسائل الطب فيها خلاف ولكن الطبيب لا يعالج مرضاه بقوله في علاج هذا الداء خلاف بل يعالجه على طريقة يختارها وترجح عنده صوابيتها ولو اراد تتبع الخلاف ما عالج مريضا ولماتوا كلهم قبل رفع الخلاف .

وعلى كل حال إن كل قول تجرد عن الدليل الصحيح فلينبذه ولا يعرج حتى على حكايته ويكفي ان يقول أول الكتاب كل مسألة نحوية لا تخلو من خلاف بين بصري وكوفي غالبا .

5 - ولينبذ التاويلات البعيدة في السماع الصحيح الظاهر فان ذلك محض خيال وجحد للحق فتكلف التاويل هو الذي فتح على الإسلام كل ويل ولو فتح بابه لسقط على النحويين كل قواعدهم لأنها انما تستند السماع الصحيح الظاهر غالبا وهو قابل للتاويل .

6 - ولينبذ تعليل بعض القواعد النحوية التي انحصر أفرادها فلم تحتج لتعليل ولا لتقييد كتعليل بناء بعض الأسماء كالضمائر وأسماء الإشارة بشبه الحرف فالمبنيات من الأسماء محصورة وما كان عليهم إلا أن يعدوها عدا ويمسكوا عن الأوهام الباطلة فالبناء جمود كالعدم بل هو عدم اختلاف الحركة الأخيرة مهما اختلفت العوامل وانعدم لا يعلل على أن تلك التعاليل لا تخلو من نقد واخذ ورد مما دل على فسادها واراقة بحور المداد على بسيط من أرض الورق من غير فائدة تجتلب فيلس هناك مجهول استنتجوه ولا عويص اقترعوه بالله عليكم أي حاجة بنا لمعرفة علة بناء الإسم وكون بنائه على حركة وكونها خصوص كذا كل ذلك باطل وجيده من الفوائد العلمية عاقل، وإنما هو تضخيم وترييم وتطويل لما خلقه الله قصيرا وتكثير للقليل بخيال أشبه بالخيال ولا خطر لعربي بيال ولا إسلامي قبل خوض الفارسيين في علوم العرب وإنما العرب كانت تنطق حسب أذواقهم السليمة وفكرتهم البدوية البسيطة المستقيمة لا شعور لهم بما تخيله النحويون ولا بما تفلسف به الفرس البصريون والكوفيون

ومصلحة الأمة فى تقصير علم النحو فطولوه وتقليله فضخموه فليجتنب المؤلف أمثال هذه الأحاجى المسترذلة .

7- ولينبذ تععيد قواعد ليست لها فوائد وإنما هى كمد الموائد للطعام ولا طعام كقاعدة ان المتبدا لا يكون نكرة إلا بمسوغ ويطيلون ذبول القاعدة ببيان المسوغات ثم يكثرون على ذلك بما يشبه أن يكون مبطلا له وهو أن المدار على حصول الفائدة ونسوا أنهم قعدوا قاعدة أول الفن أنهم لا يعتبرون من الكلام إلا ما كان مفيدا فأى فائدة حصلت من هذه القاعدة وهكذا القاعدة الأخرى المشابهة لها أو المأخوذة منها وهى ان صاحب الحال لا يكون نكرة إلا بمسوغ وينوعون المسوغات ثم يقولون إنه ورد فى الصحيح بدون مسوغ صلى النبي صلى الله عليه وسلم قاعدا وصلى وراءه قوم قياما فصار حاصل الفذلكة صفرا .

وكقاعدة أن المصدر المنكر لا يكون حال بقياس وإنما هو موقوف على السماع مع وروده بكثرة فى الكلام الفصيح ومع الثبوت المستفيض لم يبق ما يوجب تحجير القياس مع ثبوت اطلاق المصدر على اسم الفاعل واسم المفعول ما ذاك لإختيال التوجيهات النحوية والفلسفة الباردة .

وكقاعدة أن لا يحذف الجار وينصب مجروره قياسا وإيقافه على السماع مع وروده كثيرا فى الفصيح وقد رأيناهم فى مسائل أخرى إذا وردت جزئية أو جزئيتان عن العرب أباحوا القياس والمنع مخالف لأصل القياس المبني على أن الحكم يدور مع العلة فليس التحجير إلا من خيال الفلسفة الباردة .

وقد اقدم ابن مالك كغيره فى مواضع من الألفية على نبذ التحجير المجحف كقوله :

وسبق حال ما بحرف جر قد ابوا ولا امنعه فقد ورد

وكقوله فى منع العطف على ضمير الرفع المتصل :

وليس عندي لازما اذقداتي فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

فبامثال هذه القواعد وهذه التحجيرات والنزاع فيها وفى توجيهاتها الفلسفية الباردة طال علم النحو وضخم ومصيبة الأمية جاءت الأمة من طولها وضخامته .

9 - ولينبذ وراء ظهره ان يذكر فى تواليف الدراسة الابتدائية مالا يصل إلى فهمه أهلها مثل تعريف الكلام والكلم واللفظ والمفيد الخ . فتعريف أمثال هذه

الأمر لا يحتاج إليها المتوسط ولا تفيدته ولا يجوز اتعابه واتلاف وقته فيها فضلا عن المبتدي لقلّة جدواها وإنما فيها ارباب طالب النحو إذ يجد هذه المسائل الصعبة القليلة الجدوى في أوله فيظنه كله صعبا فيذهب مهرولا ويترك لهم نحوهم يقيمون زندهم ويضربون عمرهم .

ومثل ذلك تعريف الإعراب والإختلاف فيه هل هو لفظي أو معنوي وما أبعد تلك التدقيقات عن المبتدئين بل عن المتوسطين وما أقل جدواها وما أكثر الوقت الذي يضيع فيها ومن ذلك الاشتغال في كون تقسيم الكلام إلى اسم وإلى فعل وإلى حرف هل من تقسيم الكلّي إلى جزء ياتيه أو الكل إلى أجزائه ثم انهم اعترضوا الكل واطلموا المسالك بمصطلحات منطقية لا تطلب ولا تفهم إلا بعد تحصيل جملة من النحو فيالله من قوم لم يرق في اعينهم إلا ان يكون طريق النحو وعرا مظلما وهكذا ما دمت سائرا مع أبواب النحو تجدهم فتحوا الباب بقولهم باب كذا ثم في أول قاعدة أو ثانيها تجدهم أو صدوه بل جعلوا عليه رسدا وطلسمات بأنواع من الصعوبات . ليطردوا الناس عن لغتهم ويصعبوها عليهم وهي من أسهل اللغات وأكثر الصعوبة خلط فلسفة النحو بالنحو وكان ينبغي ان تجعل كتب فلسفة النحو مستقلة للمتخصصين فيه وليس عملهم هذا خاصا بالنحو بل هو داء عياء وصلت عدواه إلى سائر العلوم العربية .

فهذا علم البيان اكثروا فيه من الخيال فصيره صعب المرتقى وقد كان ثمرة يانعة دانية وضخموه بخلافات السكاكي والزمخشرسي وغيرهما حتى أنك إذا تطلبت قاعدة من قواعده نقية لم تجدها إلا في وسط مستنقعات من الأوهام والأبحاث الجوفاء بل حتى تخوض لأجلها بحورا من التموهيات السرابية .

وهكذا علم اصول الفقه ضخّموه بعلم المنطق والجدل واللغة والتوحيد بل حتى التصوف فصار علم الأصول وسط هذه العلوم لا يبصر إلا بمكبرة كاشفة كهلال تحت الغمام .

أما علم اللغة الذي هو سماع محض لم تجد الفلسفة منفذا إليه فقد ضربوا دونه سدا بالألغاز الإختصارية فلا بد لمن أراد الكشف عن لفظة أن يغوص قاموس التعمية الذي اختصر صاحبه سفرا فوجب على شارحه عشرا .

أناشدكم الله أيها المؤتمرون ان تأخذوا بيد هذه اللغة العربية الجميلة الراقية من

اصل وضعها والتي أضاعها أهلها . وقضى عليها حب الفخفة العلمية والألمعية العرفانية قضى عليها تكبير العلم وتصغير التالىف فبينما هم يريدون تكبير العلم وتصغيره فى صف العلوم الواسعة الطويلة العريضة إذا بهم يصغرون التالىف فيتسابقون إلى الإختصار إلى أن يصلوا لحد الألباز والتعمية فىحوجونا إلى أسفار الشروح والحواشى فنريد ممن يؤلف أن تكون له براعة تامة وفكر وقاد ومقدرة واسعة ومبدأ صحيح وجرأة نادرة فلا يختصر لنا ما هو مختصر أو مطول ولا يوضح لنا ما هو محتاج لإيضاح فقط بل يقرب وضعى العلم ويتصرف تصرف الناقد البصير ويستخلص القواعد النحوية أو البيانىة أو غيرهما استخلاصا صحيحا بفكر مستقل فلا يدخل فنا فى فن ولا يكتر فى العلم من الفلسفات الخيالية الباردة بل يقتصر على القواعد الصحيحة النقية يفرغها فى قالب عربى صميم مصقول على نسق توالىف المتقدمين بحيث تستغنى فى كل تالىف عن أى شرح أو تكملة بل يكون كافيا للصف الذى ألف لأجله مفهوما بنفسه من غير تشتيت للضمائر ولا احتياج إلى تقدير مضاف ولا أحداث اصطلاح لكل كتاب بل يكون اسلوب التؤاليف اسلوبا عربيا قحا سالما من كل ابهام أو إيهام أو لكنة أو تعقيد وإنما هو سرد مسائل كل فن وقواعده مستغنيا بالتصيص عن التعويض من غير تطويل ولا زيادة على المقصود من الفن ولا اختصار مخل به .

ويكثر فى الكتب الإبتدائية من الأمثلة والتمرينات وفى غيرها يكتر من الشواهد العربية والجمال الفصحى والكلام العالى ومهما أتى بقاعدة ساقها تامة القيود والشروط والمستثنيات إلى غير ذلك مما تقدم . هذا واننا لمحتاجون لكتب التلاوة والإملاء والمطالعة تكون قوالها وتراكيب جملها عربية فصحى وتكون مشكولة باتقن ضبط إلا أنها تختلف باختلاف أصناف التعليم فالتى تكون للثانوى أعلى من التعليم الإبتدائى ولكن كلها تكون معانيها فى الأخلاق والتهذيب إذ الأمة بأخلاقها ونحن أحوج ما يكون لتكوين أمة مهذبة ذات اخلاق إسلامية عالية بل نحن أحوج إلى التهذيب منا إلى التعليم فالأحسن والواجب أن تكون كتب التلاوة والإملاء كلها كتب أخلاق وتهذيب يستفيد التلميذ من معناها لمعناه وروحه ومن ألفاظها وحسن تراكيبها لاصلاح لسانه ولهجته وتدريبه على الفصاحة والبلاغة والأخذ بضعى البيان ولا بد من مزج الكتب الثانوىة منها بجوامع كلمه عليه السلام وبنائيات الأخلاق وأحاديثها الصالح وأمثال العرب وخطب الخلفاء وحكم الحكماء وغيرها مما هو راجع للأخلاق والتهذيب وذلك أفضل من حكايات ملئت بها كتب جعلت لهذا الغرض كبحر الأدب الذى

يدرس به التلاوة في مدارسنا المغربية الدولية .

وإننا لمحتاجون إلى معجم لغوي يجمع كل ما في القاموس وشرحه وتكلمته وصلته وذيله الذي ذيل به صاحب الشرح (مؤلف له خطى مستقل موجود جله بمكتبة القرويين) وكل ما في اللسان وغيره من المعاجم المعروفة بحيث أن من راجع مادة منه أيقن واطمأن خاطره أنه حصل منها على المراد ولم تبق نفسه متشوفة لسواه ولا يقتصر على ما اقتصر عليه صاحب أقرب الموارد فإنه أدخل بشيء كثير من الفن .

ومحتاجون إلى معجم عصري يجمع دوال الأشياء المستحدثة إما من صميم العربية ان وجد لها لفظا وإلا فيكون بالوضع الجديد على نسق ما كان يفعله أسلافنا عند ترجمتهم كتب اليونان وغيرهم .

كما أننا محتاجون لكتب تاريخ إفريقيا الشمالية كتبا دراسية بأنواعها .

عجبا لأمة عظيمة ليس لها كتب دراسية لتاريخها المجيد اليس من المعيب المزري بنا أن نأخذ تاريخ بلادنا عن غيرنا ممن لا يمكن أن يعرفه كما نعرفه نحن فربما اضرنا في تاريخنا وأعز ما لدينا من حيث لا يشعر ومن حيث يظن نفعنا .

أيها السادة ان العربية صعبت على مريدها بكثرة المواد واختلاف أفكار المؤلفين فكل من أراد تحقيق مسألة احتاج إلى أسفار أن لم تعد بالمشين عدت بالعشرات والأزمان تذهب على التلاميذ سدى .

أيها السادة إنني لا انقص التوايف الإسلامية التي مرت الإشارة إليها ولا اقلل من أهميتها بل لأصحابها الفضل والجزاء العظيم ولكن الأزمان تغيرت والأحوال انقلبت والأفكار تبدلت ولكثرة الإحتياج إلى العلوم الدنيوية أو العصرية ضاق الوقت على شبابنا والعاقل من يلبس لكل حال لبوسه ويتغلب على الأحوال بالسياسة التي تناسب كل حال فكتب المتقدمين منا صارت كتب مطالعة وكنوزا لعلومنا ينبغي المحافظة عليها وصونها من الضياع واشتغال اهل التخصص بالاستفادة منها وكذا من يريد ان يتخرج في الفتوى والقضاء والتدريس لا بد له من أن يتمرن على ما تمس حاجته إليه منها سنة على الأقل لتسهيل عليه دراستها ومعرفة مصطلحاتها فيمكنه أخذ الأحكام منها والرجوع عند الحاجة إليها .

ولكن ينبغي التعجيل بتأليف كتب الدراسة لجميع علومنا العربية والدينية لأصناف التعليم الثلاثة حسب ما تمنيته وحسب ما يظهر لكم وإنني اقترح عليكم أيها السادة

اعضاء المؤتمر العلمى الإفريقى أن توازروا المعهدين العربيين العظميين اللذين تفتخر بهما افريقيا الشمالية - القرويين - والزيتونة على ترقى العلوم العربية فيهما فتألف لجنة للتأليف فى كل من المعهدين تشتغل بتشويق أهل العلم الإفريقيين لذلك وبقترح تأليف ما هو ماكد الأهم فالأهم. ثم امتحان ما يظهر من تلك التوايف امتحانا مدققا ينطبق على الشروط التى تقدمت واعطاء جوائز لما هو مستحسن منها ثم طبعه على نفقتها فمن النقص البين فىنا ان نبقى عالة على غيرنا فيما هو ضرورى لنا جامدين على الدراسة بكتب تضيع اوقات شبابنا وتطيل مدة دراستهم.

ولابد لكل من اللجتين أن يكون لها ميزانية خاصة لهذا العمل النافع ويمكنها أن تشتري المؤلفات الدراسية من مؤلفيها ونشرها بالطبع وترخيص أثمانها على الطلبة وإعطاء أولاد الفقراء منها مجاناً فان الدراسة فى القرويين إلى يومنا هذا أغلبها بالكتب القديمة ولا يتم نظام المعهدين إلا بكتب الدراسة الموافقة لروح العصر وبذلك تنتعش اللغة والأدب وتدب فى علومنا حياة قوية ويختصر بسببه زمن الدراسة ويرتقى المعهدان إلى المستوى المطلوب.

سادتى لقد كان النظام الذى الفته بمعاوضة مجلس القرويين التحسينى سنة 1332 هجرية مشتملا على باب تأليف كتب الدراسة والإجازة عليها لكن حالت الأقدار دون فتح الباب المذكور وإنا لرجو فتحه عن قريب.

إننا بتنظيم الزيتونة والقرويين وادخال العلوم العربية للمدارس الدولية الأهلية قد وصلنا فى احياء علومنا لنصف الطريق ولقد عودتنا الدولة الحامية دولة العلم والعرفان انها بدأت مسافة فى الإصلاح اكملتها ولقد اصلحت افريقيا الشمالية الإصلاح الإدارى الثقافى ولا يتم ذلك إلا بان نرى علومنا العربية وآدابنا القومية بالغة اوج الكمال فنقطع نصف الطريق الباقي لبلوغ الآمال.

إن الأمة الإفريقية عربية اللسان والتفكير فغاية امنيتها حفظ عروبته ودينها لا تبغى بهما بدلا ولا يتم تمدينها الحقيقى إلا بذلك فبترقية علومنا وآدابنا تكون الأمة الحامية اسدت إلينا نعمة يعرفها لها الأجيال الآتية وتتحد الأمتان قلبا وقالبا اذ بالإحسان تمتلك القلوب وان أملنا قوى ان يكون وصولنا للصالاة المنشودة فى أقرب وقت والمؤول من الله ان يجازى رجال الإصلاح خير جزاء.

تصفيق عام مكرر قوى من كل أهل المؤتمر وغيرهم.

الفهرس

9	تقديم
13	القسم الأول
	إشكالية الدعوة الإصلاحية في المغرب بين الاجتهاد والتقليد
15	توطئة
23	الفصل الأول - الجذور التاريخية لنشوء الدولة المغربية
23	1 - الإرث الامازيغي والتجديد الإسلامي
25	2 - السمات التاريخية للدولة المغربية
27	3 - الشعور بالوحدة القومية عند المغاربة
30	4 - الدفاع عن الذاتية المغربية
33	5 - المقاومة المسلحة كمظهر لوحدة القومية
35	الفصل الثاني - الإطار التاريخي لحركة الإصلاح
35	1 - فترة انفتاح علي الخارج
38	2 - فترة انغلاق وانزواء
42	3 - العبرة من الهزيمة ضالة الحسن الأول
48	4 - ظهور المطبعة بالمغرب
50	5 - مشروع الإصلاح في مواجهة المد الاستعماري

- 6 - الانعكاس السلبى لعقد الجزيرات على فكرة الإصلاح 54
- الفصل الثالث - تجليات التيارات الإصلاحية فى المغرب 61
- 1 - حركة إصلاح المجتمع باسم السلفية 61
- 2 - اليقظة السياسية والفكرية فى مطلع القرن العشرين 65
- 3 - التيار السلفى التجديدى 67
- 4 - التيار السياسى الليبرالى 71
- الفصل الرابع - من الإصلاح المرفوض إلى الإصلاح المفروض 77
- 1 - تزايد الاحتكاك بالبلاد الأوربية والانبهار بما يوجد عند الآخر 77
- 2 - فقدان دولة المخزن لمناعتها نتيجة الهزيمتين 78
- 3 - موت السلطان الحسن الأول وتفاقم الضغط الخارجى 81
- 4 - مظاهر جدلية الإصلاح فى مطلع القرن العشرين 82
- الفصل الخامس - تطور مفهوم الإصلاح فى المغرب فى مطلع القرن العشرين 87
- 1 - تفاقم مظاهر الفساد الإدارى واندراج السياسة نحو الإنهيار 87
- 2 - الإنتقال باشكالية الإصلاح من الدعوة التقوية النهضوية إلى طرح مسألة النظام الدستورى 90
- 3 - جماعة «لسان المغرب» ومشروع دستور 1908 92
- الفصل السادس - استنتاجات حول معوقات الإصلاح المنشود 97
- 1 - الإخفاق فى القدرة على اصلاح المؤسسات العسكرية والمالية 97
- 2 - جهود الملوك وخذلان المسؤولين 99
- الفصل السابع - أحوال المجتمع المغربى قبيل فرض الحماية 107
- 1 - هستغرافيا المجتمع المغربى 107
- 2 - الوضع السياسى العام لحكومة المخزن 111
- 3 - الأوضاع الإدارية وأجهزة الحكم 116

- 4 - الوضع الاجتماعي والمعيشي 118
- 5 - الوضع الأمني 123
- 6 - الوضع الصحي 126
- 7 - حالة التربية والتعليم 128
- 8 - الوضع التجاري والإقتصادي 132

139 القسم الثاني

الفقيه محمد بن الحسن الحجوي
نموذجاً للدعوى الإصلاحية في المغرب
استطلاع حول فكره وآثاره

- 143 الفصل الأول - الوثيقة في خدمة انبعاث التراث الإصلاحي
- 151 الفصل الثاني - موقع الفقيه الحجوي من مظاهر يقظة الفكر الإصلاحي في المغرب
- 157 الفصل الثالث - انبعاث شخصية الفقيه الحجوي
- 167 الفصل الرابع - الفكر النهضوي في خطاب الفقيه الحجوي
- 171 الفصل الخامس - تجديد الفتوى عند الفقيه الحجوي
- 175 الفصل السادس - فكرة الحرية ومدلولاتها الجديدة
- 175 1 - الفكر التحرري والإجتهد ثنائي متلازم
- 177 2 - مفهوم الحرية عند الفقيه الحجوي
- 179 الفصل السابع - الفقيه الحجوي وهو يتحدث عن نفسه
- 183 الفصل الثامن - المشروع الإصلاحي للفقيه الحجوي
- 183 1 - مذكراته للسلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ
- 188 2 - برنامجه الإصلاحي

- 3 - فكرة النظام والتنظيم 189
- 4 - وصفه للأوضاع الداخلى وتجليات الخطاب الإصلاحى 191
- الفصل التاسع - إصلاح التعليم 197
- 1 - نقد نظام جامعة القرويين وإعداد برنامج إصلاحى لها 197
- 2 - لماذا تجديد الكتب الدراسية للعلوم العربية؟ 203
- 3 - الدعوة إلى تعليم البنات 206
- الفصل العاشر - التعليم وعلاقته بالإقتصاد والمال 209
- 1- المفهوم العصرى للتجارة عند الفقيه الحجوى 210
- 2- اشكالية نظام التأمين 213
- 3- المعاملات البنكية 215
- خاتمة 217
- تحقيق حول إحصاء تأليف الفقيه الحجوى 221
- 1 - قائمة تأليفه كما وردت فى كتابه «مختصر العروة الوثقى» 225
- 2 - بيانات إضافية عن بعض تأليفه 233
- 3 - الملحق رقم 1: الفتح العربى لافريقيا الشمالية 236
- 4 - الملحق رقم 2: نقد كتب الدراسة للعلوم العربية 265

المثقل والنقل

حسن أحمد الحجوي

في الفترة ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر حيث كانت أوروبا تزرح تحت نير الكنيسة وتتخبط في الظلام الفكري، كانت الإمبراطورية المغربية مركزاً حضارياً وعلمياً، تبدو وكأنها قابضة على وسائل الاستمرار في أمامية التقدم.

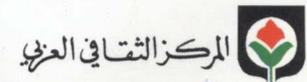
لكن المغرب وإن استطاع الاحتفاظ ببعض مظاهر التقدمية لفترة دامت زهاء قرنين آخرين، فإنه في فجر القرن السادس عشر غدا يبدو للعيان وقد فاته الركب الحضاري بمسافات صعبت ملاحقتها، بل إن مظاهر التخلف أخذت تتفاقم لحقب متوالية ظلت فيها البلاد تحت وطأة الغارات المسيحية الآتية من الغرب والتسللات العثمانية الآتية من الشرق.

هذه الحروب التي أكره عليها المغرب لرد الهجومات المتعاقبة عليه من أوروبا، بما كانت ترمي إليه من مطامع استعمارية باطلة، قد شغلت دولة المغرب وأمتة أزمنة طويلة عن القيام بما يتطلبه رقي الشعب في ميادين العلوم والتقنيات التي شادت عليها أوروبا حضارتها انطلاقاً من القرن السادس عشر.

من خلال نتوءات هذا الواقع التاريخي، ولأسباب أخرى ذاتية سنحاول الوقوف عليها، ظلت الفكرة الإصلاحية في بلادنا تلاقى صعوبات جمة تجعل دعاة الإصلاح يجهدون فيكبون تحت تأثير الأحداث السياسية وما يصاحبها من اختلافات تطبع منهجية الفكر الإصلاحي في منظوره وتجسيده.

وقد اقتصرنا في سياقة هذا البحث المتواضع على فترة زمنية من تاريخ الفكر المغربي الناهض وهو يخوض مسألة الإصلاح والتحديث، لنحصرها في المرحلة ما بين سنة 1757 وسنة 1912 تاريخ سقوط المغرب تحت الحماية الأجنبية. ذلك أن هذه المرحلة من تاريخ المغرب أفرزت أحداثاً سياسية وفكرية كان لها الأثر على مسار تطور بلادنا في مجال اكتشاف ذاتيتها وشعورها بالفجوة التي تبعتها عن مستوى التقدم، وتندرنا بأن الوقت قد حان للقيام بما يمكنها من ملاحقة الركب الحضاري الذي أخذ يتسع لكثير من البلاد الأخرى، عربية وغير عربية.

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب



مركز الدراسات والبحوث
مكتبة النيل والفرات
جميع كتبنا متوفرة
أيضاً على الإنترنت في
www.neelwafurat.com